وعد الحبّ الأبديّ

جمعتهما المأساة،
لكنّ الحبّ وحّدهما
ليكونا عائلة...

جانيت أوك

الكتاب الثاني

مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn

وعد الحب الأبدي

جانيت أُوك

ترجمة: سعيد باز

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

Copyright © 1979, 2003 **Janette Oke**.
Originally published in English under the title:
Love's Enduring Promise by Bethany House Publishers,
a division of Baker Publishing Group,
Grand Rapids, Michigan, 49516, USA.
All rights reserved.

Arabic Edition Copyright © 2019 by **Ophir Printers & Publishers**.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

وعدُ الحبِّ الثابت

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٩م

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمَّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

رقم الإيداع:٢٠١٨/١٢/٥٩٠٩

ISBN 978-90-5950-269-7

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه،

المحتويات

١ بداياتٌ جديدة٩
٢ تأمُّلات١٨
٣ آرني الصَّغير٢٣
٤ زيارات٢٩
٥ أخبارٌ مُشَوِّقة٤٠
٦ طِفلُ وَنْدا الجديد٤٥
٧ السَّيِّدة لارسون٥٣
٨ جوابٌ غريب٦٢
٩ نانْدري وكلاي٧١
١٠ رِحلةٌ إلى المدينة٧٨
١١ عائلة ومُعلِّم٨٨
١٢ أيَّام المدرسة٩٨
١٣ شيءٌ جديد١٠٥
١٤ صديقةُ تومي١١٢
١٥ البَحثُ عن واعِظ١٢٠
١٦ مارتي تُحادِثُ ما غراهام١٢٥
١٧ زيارة قصيرة لِوَندا١٣١
١٨ الواعِظُ الجديد١٣٧
١٩ مدرسة وزِيارات١٤٣
٢٠ مُتفرِّقات١٤٩
٢١ المُحتَرَمُ نتسون١٥٥
٢٢ الحياةُ تستمرُّ١٦٠

٢٣ الكنيسة والعائلة١٦٤
٢٤ عيد الميلاد١٧٦
٢٥ مرَّة أُخرى بعده١٨٥
٢٦ جُوش ونانْدري١٨٩
٢٧ قِسِّيس جديد، بيت جديد١٩٧
٢٨ العِيشة والتَّعلُّم٢٠٢
٢٩ زائرو مِسي ٢٠٩
٣٠ اكتِشافُ مِسي ٢١٨
٣١ مُفاجآت ميلاديَّة٢٢٣
٣٢ مُفاجأةٌ أُخرى بعد٢٣٠
٣٣ يومٌ استثنائيٌّ٢٣٧

إلى صديقتي العزيزة ومُعلِّمتي سابقًا

السيِّدة آيرين لِندبِرغ

١

بداياتٌ جديدة

تحرَّكت مارتي مُضطرِبةً. كان الحُلم قدِ استحوَذَ عليها، والآنَ أحسَّت قُشَعريرةً لا يُسيطَرُ عليها تجري في أوصالها.

ومع استيقاظها التَّدريجيِّ، جاءِ فرَجٌ غامر. فها هيَ هُنا، سالِمة ومُستقِرَّة، في سريرها الخاصّ.

رغمَ ذلك، لازَمَها انزعاجٌ مُقلِق. فقد كان الحُلم مُرَوِّعًا، واقعيًّا ومخيفًا جدًّا. وسألت نفسَها لماذا حلَمَت هذا الحُلمَ أصلًا بعدَ هذه المدَّة كلِّها؟ ثُمَّ إنَّه كان حقيقيًّا، حقيقيًّا جدًّا جدًّا.

كان في وسعها أن تُحِسَّ تفاصيلَ الحُلم المروِّعة تُطبِقُ عليها ثانيةً إذ فكَّرَت في الأمر. العرَبةُ المخلوعة، العاصفةُ الثَّلجيَّةُ العنيفة المُوَلوِلة تشدُّ بشادر العرَبة المُرَفرِف وتُمزِّقه، وهي- مارتي- جاثِمة وحدها في زاوية، متشبِّثة ببطَّانيَّة رقيقة ممزَّقة لفَّتها حول جِسمِها المُرتجِف مُحاوِلةً الاستِدفاء. وكان يأسُها لكونها وحيدةً مؤلِمًا أكثرَ من البَردِ الذي سعى للاستيلاء عليها.

كانت قد فكَّرَت في أثناء الحُلم: **سأموت، وحيدةً تمامً، سأموت!** ثُمَّ استيقظت مسرورةً وشعرَت بدفءِ سريرها المألوف، العالي القوائم، ونظرَت من خلال نافذة الكوخ إلى سماءٍ مُبارَكة بنجوم مُتلألئة.

غير أنَّها لم تستطِع أن تكبحَ قُشَعريرةً أُخرى، وإذ سرَت في جِسمها طوَّقَتها ذِراعٌ قويَّة وقرَّبَتها.

لم تكُن قد قصدَت أن تُوقِظَ كلارك. فأيَّامُه كانت حافلةً بالعمَل، ملأى بمهامِّ الزِّراعة والاهتمام بالحيوانات، وهيَ علِمَت أنَّه بحاجةٍ إلى نومِه. وإذ تأمَّلَت وجهَه في الضَّوءِ الباهت من النَّافذة، أدركَت أنَّه لم يكن مُستيقظًا حقًّا...حتَّى الآن.

غمَرَها فيضٌ من الحُبّ. فكُلَّما احتاجت إلى تأكيدٍ لحُبِّه، كانت تُعطاهُ حالًا، حتَّى من عالَمِ النَّوم في ما دونَ الوعي. ولم تكُن هذه أوَّلَ مرَّةٍ فيها، حتَّى قبلَ استيقاظِه، أحسَّ احتياجَها وطوَّقها بذراعَيه.

ولكنَّ اليقَظةَ كانت آتيةً إليه الآن. فمسَّ شعرَها المفلوش بقُبلة وهمَس: "هل مِن خَطْب؟"

تمتمَت: "لا، أنا بخير، إنَّما حلَمتُ توًّا حُلمًا مروِّعًا. ذلك كلُّ ما في الأمر. كنتُ وحدي تمامًا و..."

فاشتدَّت ذِراعُه: "ولكنَّكِ لستِ وحدَك".

"صحيح، كلارك، وأنا مسرورة، مسرورة جدًّا".

وإذ ضمَّها من قُربٍ، علِمَت أنَّ قُشَعريرتَها قد توقَّفت وحقيقةَ الحُلم

قد ولَّت.

إذ ذاك مدَّت يدًا إلى خدِّه: "أنا بخير الآن...حقًّا. عُد إلى النَّوم".

مسَّدَت أصابِعُه شعرها، ثُمَّ استقرَّت برِقَّة على كتِفها. واستلقَت مارتي بهدوء، وبعدَ لُحَيظاتٍ طمأنَها تنفُّسُ كلارك بأنَّه نامَ من جديد.

سيطرَت مارتي على أفكارها الآن. وإذِ انزاحَ رُعبُ الحُلم جانبًا، استغلَّت اللحظاتِ الهادئةَ قبلَ الفجر لتُفكِّرَ مليًّا وتُخطِّطَ لأنشِطَةِ النَّهار.

طَوالَ أشهُرِ الشِّتاء، خُصِّصَت كلُّ لحظةٍ استطاعَ رِجالُ الحيِّ توفيرها من عمَلِهم الخاصِّ لقطعِ أزناد الخشَب ونقلِها. فعائلاتُ المِنطقة لمسَتِ الحاجةَ إلى مدرسة لتربية أولادها، وقد عَلِم الجميعُ أنَّ السَّبيلَ الوحيد للتمكُّن من الحصول على مدرسة هو أن يُقيموا البناء بأنفُسِهم ويجِدوا مُعلِّمًا يتولَّى المهمَّة.

وباتَ مُقرَّرًا أن تكونَ غُرفةً واحدة بسيطة، مَبنيَّةً بقُربِ النَّهر على قطعةِ أرضٍ تبرَّعَ بها كلارك ومارتي ديفِس.

كانت أكوامُ الخشَب قد تراكمت بالتدريج. وما زالَ الرِّجالُ مُتحمِّسين لإحضارِ عدَدِ الألواح المطلوب قبلَ دفء الرَّبيع الذي يصهَرُ الثَّلج، ثُمَّ قبلَ أن تغدوَ الأرضُ مُرحِّبةً بمَحاريثِهم يتوافَرُ وقتٌ لِعَونةِ البناء مرَّةً أو مرَّتَين.

أُحصِيَ عدَدُ الأزناد، فتبيَّنَ أنَّه يفي بالمطلوب. وكان يومُ غَدٍ هو

اليومَ المُخصَّص للمساعدة في "بناء المدرسة". وأملَ الرِّجالُ أن يُنجِزوا الحِيطان، ويُضيفوا الرَّوافِدَ إذا أمكن. ثُمَّ يُكمل البِناءُ في أثناء الصَّيف كما يسمَحُ الوقت. حتَّى إذا جاء الخريف، يكون للأولاد مدرسَةٌ تخصُّهم.

قفَزَ ذِهنُ مارتي مُسبَّقًا إلى المُعلِّم. فما زال عليهم أن يجِدوا مُعلِّمًا، وكان العثورُ على مُعلِّمين وإثارةُ اهتمامهم بالمجيءِ إلى الحدود البعيدة صعبَين جدًّا. أيبنون مدرستهم ليكتشفوا أنَّهم كانوا غيرَ قادرين على الظَّفَرِ بمُعلِّم مؤهَّل؟ لا! عليهم أن يُصَلُّوا كلُّهم طالبين أن تُوفَّقَ المجموعةُ الصَّغيرة المَعنيَّة بالبحث عن مُعلِّم، وألَّا تكونَ مجهوداتُهم في بناء المدرسة قد ذهبَت سُدًى، وأن يُعثَرَ على مُعلِّم مُناسب.

لن ترتادَ مِسي الصَّغيرةُ المدرسةَ في فصلها الأوَّل. فهي تُكمِلُ سنَتَها الخامسة في تشرينَ الثَّاني المُقبِل، وربَّما تكونُ أصغَرَ سنًّا من أن تنضمَّ إلى الآخرين الذين ستبدأ المدرسةُ الجديدة بهم. فأحسَّت مارتي تنازُعًا داخليًّا، إذ أرادت لمِسي أن تبقى في البيت معها سنةً أُخرى. ومع ذلك، في غمرة التَّشوُّق بشأن المدرسة الجديدة، كان صعبًا ألَّا تهتمَّ فِعلًا بأمر طِفلةٍ يُتوقَّعُ حضورُها. وذكَّرَت نفسها مجدَّدًا بأنَّها هي وكلارك قرَّرا أنَّ مِسي ينبغي أن تنتظِر. وقد كان ذلك قرارًا صعبًا، لأنَّ مِسي تحدَّثت بشأن المدرسة الجديدة دائمًا.

أوَّلَ الأمر، بدَتِ المدرسةُ بعيدةً جدًّا في المُستقبل، أمَّا الآنَ فباتوا

على عتَبةِ "ولادتها". وأقلَقَ التَّفكيرُ فيها مارتي، فعلِمَت أنَّها لن تتمكَّن من العودة إلى النَّوم، حتَّى لو كان ذلك واجبًا عليها. لقد كان الوقتُ أبكَرَ من أن تُباشِرَ عمَلَ نهارها. ورُبَّما أيقظَ تحرُّكُها أفرادَ الأُسرة الآخرين.

استلقَت بهدوءٍ، مُرتِّبةً في ذهنها الطعامَ الذي ستُعِدُّه للمُشتغلين في بناء المدرسة غدًا وماذا ينبغي أن يُعمَلَ اليومَ على سبيل التَّحضير. وألبسَت ذِهنيًّا كِلا صغيرَيها، بل لاحظَت ذهنيًّا أيضًا أيَّةُ واحدةٍ من الجارات قد ترغبُ في الدَّردشة معها حين يسمَحُ العمَلُ بذلك. ففُرصةُ الاجتماعِ معًا، حتَّى لو عنَت عمَلًا شاقًّا وجَهدًا زائدًا، كانت شيئًا تُعِزُّه مارتي، وقد علِمَت أنَّ الأُخرَيات في حيِّهم يُشارِكنَها في ترقُّبها.

بدَت الدَّقائق تنقضي على مهل، حتَّى اضطرَّها عدَمُ استقرارها أخيرًا إلى الخروج من تحت اللِّحاف. وقد رفعَت نفسها بحذَر وبُطء، لأنَّ الطِّفلَ الذي في بطنها جعَلَ أغلَبَ الحركات مُرهِقة.

وذكَّرَت نفسها: **شهرٌ آخَرُ بعد، وسنرى مَن هذا!**

كانت مِسي ترجو طِفلةً أُختًا، ولكنَّ اكْلار الصَّغير لم يهمَّه الأمر. فالطِّفلُ كان طفلًا بالنِّسبة إلى طريقة تفكيره كصبيٍّ صغير. أضِف أنَّ الطِّفلَ يبقى في البيت، أمَّا هو ففي كُلِّ فُرصة كان يجولُ مع باباه، مُحاوِلًا أن يجعلَ خطواتِهِ مُضاهيةً لخطواتِ أبيه. وهكذا، فإنَّ اكْلار لم يرَ في طفلٍ إضافةً كبيرة إلى عالَمِه.

زلَّقَت مارتي قدَمَيها في جَوربَيها البيتيَّين، ولفَّت حولها رُوبًا مُدفئًا. لقد كان البيتُ الصَّغير باردًا في الصَّباح.

ذهبَت أوَّلًا لِتُلقيَ نظرةً على مِسي واكْلار النَّائمَين. كان الظَّلامُ ما يزالُ أشدَّ من أن تُبصِرَ مارتي جيِّدًا، ولكنْ في الضَّوءِ الدَّاخل من النَّافذة طمأنَها شكلُهما بأنَّهما كانا مُغطَّيَين ومستريحَين جيِّدًا في نومهما.

مضَت مارتي إلى المطبخ، وأشعلَت النَّار في موقِد المطبخ القديم المُعوَّل عليه. لقد شعرَت مارتي بقرابة بينها وبين موقدِها، تقريبًا كما بينَ الرجُل وحِصانَي عرَبَتِه: هكذا حسبَت بابتسامةٍ ضئيلة. فالموقِد وهي اشتغلا معًا للإتيانِ بالدِّفء والقُوت لهذا البيت وهذه العائلة. ومن بينِ جميع الأشياءِ التي حواها بيتُهم، شعرَت بأنَّ الموقِد كان يخصُّها حقًّا.

سُرعانَ ما أخذَتِ النَّار تُفَرقِع، فوضعَت مارتي الإبريقَ حتَّى يَغلي ثُمَّ ملأت ركوةَ القهوة. سيمرُّ بعضُ الوقت قبلَ أن يُدفئَ الموقد المطبخ وتبدأ القهوة بالغلَيان، وكذا تلفَّفَت مارتي بِرُوبها طلَبًا للدِّفء ورفعَت عن الرَّفِّ الكِتابَ المقدَّس الباليَ الخاصَّ بكلارك. سيُتاحُ لها وقتٌ لتقرأ وتُصلِّي قبلَ أن تبدأ العائلة بالتَّحرُّك.

شعرَت بأنَّها قريبةٌ من الله هذا الصَّباحَ بصورةٍ خاصَّة. لقد نبَّهها الحُلمُ مجدَّدًا إلى الأُمور الكثيرة التي في حوزتها وينبغي أن تشكُرَ من

أجلها، وعزَّزَ ترقُّبُ المدرسةِ الجديدة مشاعِرَ حُسنِ الحالِ لديها. وفيما شعرَت بقُربٍ وثيق واهتِمامٍ جَمٍّ في وجودها مع كلارك، فإنَّ الله وحدَه كان يُدرِكُ حقًّا أعماقَ نفسِها. وقد سُرَّت بالفُرصة المؤاتية للإفضاء بكُلِّ ما في داخلها لذاك الذي تعرَّفت إليه منذُ عهدٍ قريبٍ فحسْب.

جلست مارتي ترتشِفُ ببُطءٍ قهوتَها السَّاخنة، مُستمتِعةً بدفئها مُنتشِرًا عبْرَ كامِلِ كِيانِها. لقد شعرَتِ الآنَ بالانتعاش، بدَنيًّا وروحيًّا على السَّواء. ومن جديدٍ تفحَّصَت عيناها النَّصَّ على الصَّفحات التي انفتحَت في حضنها. وقد بدَتِ الآية مُوجَّهةً إليها، لا سيَّما في هذا الوقت: **تشدَّدْ وتشجَّع، لا ترهَبْ ولا ترتعِب، لأنَّ الربَّ إلهَك معك حيثُما تذهب!**

وجدَتِ الكلماتِ غنيَّةً بالوعد وعزاءً لها، خصوصًا بعدَ حُلمِها المُضطرِب. وحدي!كانت هذه كلِمةً مُنتابة. وقد كانت شاكرةً جدًّا لأنَّها لم تكُن وحدها. ومرَّةً أُخرى بَعدُ، في اتِّضاعٍ وعرفان، اعترفت بحِكمةِ الآب السَّماويِّ في الإتيان بكلارك على وجه السُّرعة إليها بعدَ وفاةِ زوجِها كليم المأساويَّة. وأدركَتِ الآنَ أنَّه حالَما شُفِيَت داخليًّا بما يكفي للتمكُّن من مدِّ يدِها لشخصٍ آخر، كان كلارك هُناك أصلًا، توَّاقًا إلى التَّرحيب بها. لماذا قاومَت تدبيرَ الله لأجلها تلك المُدَّةَ الطَّويلةَ بكُلِّ ذرَّةٍ من كِيانها؟ لقد قالت ما غراهام إنَّ القلبَ والعواطفَ تستغرقُ وقتًا لِتَتعافى، وكانت مارتي على يقينٍ بأنَّ ذلك كان السَّبب. وإذ توافرَ لها ذلك الوقت- وصَبرُ كلارك الجميلُ- استطاعت أن تحبَّ من جديد.

أن تُحِبَّ وتُحَبَّ، أن تنتسِب، أن تكونَ جُزءًا من حياةِ شخصٍ آخر: يا له من جُزءٍ ثمين في خُطَّة الله لخليقته! هكذا فكَّرَت إذ سكبَتِ لنفسها فِنجانَ قهوةٍ آخر.

هل تمكَّنَت مرَّةً مِن إخبارِ كلارك حقًّا بكُلِّ ما شعرَت به؟ بطريقةٍ ما، بدَت مُحاوَلةُ التَّعبير عن ذلك بالكلام غيرَ مُنصِفةٍ على الإطلاق لمشاعرها الحقيقيَّة على نحوٍ مؤاتٍ. آه، لقد حاولَت أن تُعبِّرَ لفظيًّا، ولكنَّ الكلمات كانت غيرَ وافية بتاتًا. فحاولَت بالأحرى أن تقولَ ذلك بعينَيها، وأفعالها. وبالحقيقة أنَّ كِيانَها بحدِّ ذاته استجابَ له يوميًّا بمئةِ طريقة.

عندئذٍ رفسَتِ الحياةُ الصَّغيرةُ في داخلِها رفسةً مُفاجئة.

فهمَسَت مارتي: "وأنت! أنت تعبيرٌ إضافيٌّ بَعدُ عن حُبِّنا. لا مُجرَّدُ خَلقِك، بل ولادتك وتربيَتُك أيضًا. فذلك حُبٌّ أيضًا. أنت استِثنائيٌّ، هلَّا تعلم! استِثنائيٌّ قبل أن نعرِفَ حتَّى مَن أنت. استِثنائيٌّ لأنَّك لنا، عطيَّةٌ من الله. باركَكَ الله، أيُّها الصَّغير، وجعلَك قويًّا، جسمًا وعقلًا وروحًا. ليتك تنمو طويلًا ومستقيمًا من كُلِّ وجه. اجعلْ باباك فخورًا...ولَسوفَ يكون فخورًا. ما دُمتَ جميلًا وقويًّا في النَّفس- حتَّى لو كان جِسمُك ضعيفًا أو عقلُك ناقصًا- فكُن مُستقيمَ الرُّوح فحسْب. أنا أعرِفُ باباك. ذلك هو الأهمُّ عندَه...وعندَ ماماك أيضًا".

قاطعَت حرَكةٌ من غُرفةِ النَّوم مُحادثةَ مارتي الذَّاتيَّةَ مع طفلِها غيرِ

المولود، وبعدَ لحظةٍ ظهَرَ كلارك.

فرحَّبَت به مارتي بابتسامة، قائلةً: "لقد نهضتَ باكرًا. ألَم تستطِع أن تنامَ أنت أيضًا؟"

"الآن، مَن يستطيعُ أن يظلَّ مُمدَّدًا في السَّرير بوجود رائحة تلك القهوة في الهواء؟ أُوَكِّدُ لك أنَّه لو تيسَّر لأُولئك السَّيِّدات المُتلهِّفاتِ لاجتذابِ رجُلٍ أن يضعنَ أريجَ القهوة الطَّازجة المُنعِشة بدلًا من أيِّ عِطرٍ باريسيٍّ لَوصلنَ إلى مكانٍ ما فعلًا".

فتضاحكا في خُفوت، وهمَّت مارتي بأن تقومَ عن كُرسيِّها.

ووضَع كلارك يدَه على كتفها. "ابقَي جالسةً فحسْب. أنا أعرِف أين الفناجين. لا يُتاحُ لي أغلبَ الأحيانِ أن أستمتِعَ بفِنجانِ قهوة قبلَ القِيام بالمَهامّ. لعلَّكِ تستطيعين أن تجعلي هذا عادةً". ثُمَّ ابتسمَ بأُنسٍ ومدَّ يدَهُ لأخذِ كُوز. فعلِمَت أنَّه لم يُرِد لها فعلًا ان تستيقِظَ أبكَرَ بعد، نظرًا لأيَّامها الحافلة بالعمَل مُواكَبةً لِصَغيرَين مُفعمَين بالحياة وآخَرَ على الطَّريق.

سكَبَ كلارك قهوتَه وأقبلَ إلى الطَّاوِلة، حيثُ جلس مُقابِلَها. وبدا أنَّه يتفحَّصُها بانتِباه، فقرأت حُبًّا واهتمامًا في نظَراته.

"أأنتِ بخير".

"بخير".

"الصَّغير يتحرَّك؟"

فابتسمَت مارتي ابتسامةً عريضة. "لمَّا قُمتَ وجئتَ إلى هُنا، كنتُ أُدردِشُ معها".

"معها فعلًا؟"

"حسْبَما تقولُ مِسي، لا يجرؤ الطِّفلُ ألَّا يكونَ أُنثى!"

"أقلقتِني قليلًا هذه اللَّيلة".

"ما كان ذلك أيَّ شيء سِوى حُلمٍ مُزعِج".

"أتُريدين أن نتحدَّث بشأنه؟"

"أُخَمِّن أنْ ليس من كثيرٍ يُقال. كان ذلك الشُّعورَ المفزِعَ بأنِّي وحدي، وقد أخافني كثيرًا. لا أدري كيف أقولُ ذلك بطريقة صحيحة، يا كلارك، ولكنَّني مسرورةٌ جدًّا بأنِّي لم أُضطرَّ قطُّ لأنْ أكون وحدي فعلًا، حتَّى بعدما فقدتُ كليم. فقد كُنتَ هُناك أنت ومِسي حاضِرَينِ تمامًا لِتَملأا حياتي. آه، أعلَمُ أنَّني صدَدتُك إلى حين، ولكنَّك كنتَ هناك. وقد أعطَتني مِسي شخصًا أُفكِّر فيه، غايةً في الحال. أنا مسرورةٌ جدًّا، كلارك. إنِّي شاكرةٌ لله جدًّا أنَّه لم يترك لي أدنى خِيار، بل تدخَّلَ وتولَّى الأمرَ تمامًا، حتَّى حينَ لم أكُن أُفكِّرُ فيه".

انحنى كلارك فوقَ الطَّاولة، ومسَّ خدَّ مارتي. "أنا أيضًا مسرور، سيِّدةُ ديڤِس". وكان في عينيه مُغايَظة، ولكنْ كان فيهما حبٌّ أيضًا. "ما التقيتُ قطُّ امرأةً أُخرى يُمكنها أن تعمَلَ قهوةً أفضل".

أزاحَت مارتي يدَه جانبًا، مُمازِحةً. "قهوة...هَه!"

وما لبثت تعابيرُ كلارك أن صارت أكثرَ جِدِّيَّةً. ”تخميني أنَّني علِقتُ تقريبًا قبلَما اشتمَمتُ أوَّل قِدرٍ مملوءة. لن أنسى أبدًا كم بدَوتِ صغيرةً وموحَشةً إذ توجَّهتِ إلى تِلكَ العرَبة المُخلَّعة، مُحاوِلةً بصُعوبةٍ أن ترفعي رأسَكِ عاليًا، في حينَ علِمتُ أنَّكِ في قرارةِ نفسكِ تمنَّيتِ الموت. لقد بكى داخلي معكِ تمامًا في الحال. لا تفترِضي أنَّه كان هُنالك شخصٌ آخر فهِمَ شُعورَكِ أفضلَ ممَّا فهِمتُه أنا. وقد تلهَّفتُ كي أتمكَّنُ بطريقةٍ ما من تهدئة شُعوركِ ذاك“.

طرَفَت مارتي بعَينها لتحبِسَ دمعةً. ”ما قُلتَ ذلك لي قطُّ من قبل. ظننتُ أنَّك كنتَ فقط مُتلهِّفًا لامرأةٍ تتولَّى الاهتمامَ بصغيرتِكَ مِسي“.

”صحيحٌ أنَّني كنتُ كذلك، وصحيحٌ أنَّ ذلك هو ما كان مُفترَضًا أن تفعليه. وقد حاولتُ جاهدًا طَوالَ أوَّلِ شهرَين أن أُقنِعَ نفسي بذلك أيضًا. ثُمَّ كان عليَّ أخيرًا أن أعترِفَ بأنَّه كان في الأمر أكثرُ من ذلك“.

مدَّت مارتي يدَها وضغطَت يدَ كلارك، ثُمَّ قالَت مُغايِظةً: ”لقد حظيتُ بِشَقِيٍّ!“

”ثُمَّ عاكستِني وأجِزتِني في أتعَسِ شُهورِ حياتي، وأنا أتساءلُ هل يكونُ شعورُكِ يومًا تُجاهي كشُعوري تُجاهَكِ، أم هل تحزمين حقائبَكِ وترحلينَ فحسْب. وتخميني أنَّني تعلَّمتُ عنِ الصَّلاة في تلك الأيَّام أكثرَ ممَّا تعلَّمتُه يومًا من قبل. وتعلَّمتُ أكثرَ عن الانتِظار أيضًا“.

فهمسَت مارتي، وهي تكادُ تختنِق: "آهِ كلارك، ما علمتُ بذلك أدنى عِلم". ثُمَّ رفعَت يده وطبَعَت قُبلةً على أصابعه. "أظنُّ أنَّ كلَّ ما في وسعي القيامُ به هو أن أُعوِّضَ عليك الآن".

قامَ عن كُرسيِّه وانحنى فوقها، غارسًا قُبلةً على جبينها. "أتعلمين أنَّني قد أُطالِبُكِ بذلك؟ وكخُطوةٍ أُولى، ما قولُكِ في تحضير يختني المُفضَّلة للعشاء، كثيفةً وكبيرةَ القِطع؟"

فغضَّنت مارتي أنفها، وقالت: "رجُل! يعتقِدُ أنَّ الطريقة الوحيدة لتُبَرهِني حُبَّكِ هي أن تُبهِجي مَعِدتَه".

وشعَّثَ كلارك شعرَها المحلول.

"الأحسَنُ لي أن أُباشِرَ تلك المهامَّ، وإلَّا ظنَّتِ البقَراتُ أنَّني قد نسيتُهنَّ".

ثُمَّ قبَّلَها على أنفها ومضى.

٢

تأمُّلات

استيقظت الشَّمسُ ونهضَت من سريرها في اليوم التَّالي، ناثِرةً لَونَيِ القَرَنفُل والذَّهَب على ما تبقَّى من ثلج الشِّتاء وأشجار التَّنُّوب البيضاء والخضراء. فبشَّرَ النَّهارُ بأن يكون مؤاتيًا لإنشاء المدرسة. وهمسَت مارتي بصلاةِ شُكرٍ إذ تحرَّكت من غُرفة النَّوم. كانت قلِقةً خشيةَ أن تهبَّ عليهم عاصفةٌ ربيعيَّة مُبكِّرة أُخرى، ولكنْ ها قد حلَّ يومٌ كما رجَت وصلَّت لأجله. فاعتذرَت إلى الرَّبِّ عنِ الشَّكِّ في صلاحه، سواءٌ أمطرَت أم صحَت، وذهبت إلى المطبخ بسُرعة.

كان كلارك قد سبقها إلى المطبخ هذا الصَّباح ثُمَّ غادرَ البيَت كي يقومَ بالمَهامّ. وقد نشرَتِ النَّارُ التي أشعلَها الدِّفءَ في أنحاء بيت المزرعة. فأسرعَت مارتي كي تضعَ الفَطورَ على الطَّاولة قبل أن يظهَرَ الولَدان.

وبينَما هي تشتغلُ عند الموقِد، محرِّكةً العصيدة ومُحَمِّصةً الخُبز، دخَلَ المطبخَ اكْلار بَعَينيه النَّاعِستَين. كان قميصُه غيرَ مَدسوس وحمَّالةُ ردائهِ السِّروالِيِّ مفتولةً ومُثبَّتةً بطريقة غير صحيحة. وكان مُنتعِلًا

إحدى فردتَي حذائه دونَ ربْط، وحاملًا الأُخرى تحتَ إبطِه.

وسألَ حالًا: "أينَ يا؟"

فابتسمَت مارتي إذ نظرَت إلى الصَّبيِّ المُشعَّثِ الشَّعر. وأجابت: "إنَّه يعمَل. وبالحقيقة أنَّه يكادُ ينتهي على الأرجح. عليك أن تستعجِلَ لِتَلحقَ به هذا الصَّباح. فلأُساعِدْك".

دسَّت له القميص، وثبَّتت الحمَّالة بالطريقة الصَّحيحة، وأجلسَتهُ على كُرسيٍّ لِتَسوية حذائه.

قال سائلًا: "أهذا هو اليوم؟"

"نعَم، هذا هو اليوم! عندما يُخيِّمُ اللَّيل يكون عندَنا مدرسة".

فكَّرَ اكْلار في ذلك هُنَيهةً. كان قد قال لمارتي أصلًا إنَّه غيرُ واثقٍ بأنَّه سيحبُّ المدرسة، ولكنَّ كلَّ شخصٍ آخر بدا مُتحمِّسًا لها. فابتسم بِمَودَّة.

وإذ زلَّ عن الكُرسيِّ، قال: "طيِّب، أحسَنُ لي أن أُسرِع. أمرٌ جيِّد أنَّني لستُ ذاهبًا إلى المدرسة...يا يحتاجُ إليَّ".

ابتسمَت مارتي، وفكَّرت: يقينًا أنَّه يحتاجُ إليك. يا يحتاجُ إليك...يحتاجُ إليك لتعترِضَ في طريقه وهو يُطعِمُ الحيوانات، يحتاجُ إليك لِتُصِرَّ على جَرِّ دَلوٍ أكبَرَ من أن تحمِلَه. إنَّه يحتاجُ إليك لتُبَطِّئَ خطواتهِ حين يأخُذُ البقرات لِتَرعى بعيدًا، يحتاجُ إليك لِتُثَرثِرَ له طَوالَ الوقتِ في أثناء عمَلِه. وهزَّت رأسها، إلَّا أنَّ الابتسامةَ بقِيَت. نعم، يحتاجُ إليك...يحتاجُ إلى ما تُظهِرُه له من محبَّة واحترام

أبطال! وانحنَت لِتُعانِقَ الصَّبيَّ الصَّغير، ثُمَّ ساعدته على ارتداء معطف مُدفئ، ووضعَت يدَيهِ في قُفَّازَي صُوفٍ بشُعبتَين وقُبَّعتَه على رأسه، وفتحَت له الباب. فانطلقَ بسُرعة كي يجِدَ باباه، وبوب العجوز يطفُرُ حولَهُ مَرِحًا ونابحًا بابتِهاج.

رجعَت مارتي إلى تحضيراتِ الفَطور، ناظِرةً بين حينٍ وآخر إلى باب غُرفةِ نومِ الولَدَين. سيكونُ عليها أن تُناديَ مِسي. فهي كانت تتأخَّرُ في نومها ولا تنِطُّ مُغادِرةً السَّريرَ كما كان اكْلار يفعل كلَّ صباح. كانت مِسي أيضًا تحبُّ المغامرةَ واستكشافَ ما قد يحمِلُه اليوم، ولكنَّها كانت راغبةً في انتظارِ ذلك إلى ما بَعدُ قليلًا. وقد باتت أصلًا مُساعِدةً صغيرة جيِّدة، وكانت خصوصًا تتطلَّعُ بلهفةٍ وتَوق إلى مُعاونة مارتي في الاهتمام "بالأُخت الصَّغيرة" الجديدة الآتية على الطَّريق. فلأجلِ خاطِرِ مِسي، تمنَّت مارتي أن يكون الطِّفلُ الجديد أُنثى. وما كان مُمكِنًا أن تحبَّ مِسي أكثَرَ لو كانت قد وُلِدَت من لحمها ودمها شخصيًّا.

رتَّبت مارتي المائدة لأجلِ فَطورِهم، مُتسائلةً كم من الجارات كُنَّ يفعلن ذلك عينَه بحماسةٍ مُماثلة تدبُّ فيهنَّ حِيالَ فكرة المدرسة الجديدة. فصِغارُهنَّ لن يُضطرُّوا لأنْ ينشأوا جُهَّالًا لمجرَّدِ كون أهلهم قد تجرَّأُوا على السَّفَر إلى الغرب لِيَفتحوا المناطقَ الحدوديَّة لأجلِ الزِّراعةِ والمَزارع. وفي وسع الأولاد أن ينشأوا مُتعلِّمين وقادرين على تأديةِ دَورِهم في حَيِّهم، أو في أحياءٍ أُخرى إذا اختاروا ذلك.

اتَّجهَت أفكارُ مارتي إلى فتاتَي آل لارسون، ابنتَي صديقتِها تينا. فزَوجُها جَد لم يرَ أنَّ المدرسةَ الجديدة كانت ضَروريَّةً إلى حدٍّ بعيد، داعيًا إيَّاها "سَخافةً خالصة...البناتُ لا يحتجن إلى تعليمٍ على كلِّ حال". ولكنَّ عينَي تينا لارسون توسَّلتا بصمت أن تُعطى بِنتاها أيضًا فرصةً وافية. فإنَّهما كانتا تكبران، وباتتا الآن في الثالثة عشرة وفي الحادية عشرة، وهُما تحتاجان إلى التَّعلُّم في مدرسة قبلَ أن يفوتَ الأوان.

وفيما مارتي تتحرَّك في مطبخها، صلَّت عسى أن يؤتى جَد تغييرًا في الرأي.

وفي وسَطِ صلاتها، نظرَت خارِجَ نافذة المطبخ فرأت رَجُلَيها آتيَينِ من الحظيرة. كانت خطواتُ كلارك، الطويلةُ عادةً، مكبوحةً لتتماشى مع خطواتِ اكْلار الصَّغير، القصيرة والسَّريعة. وقد تشبَّثَ اكْلار بمسكة سطل الحليب، واثقًا بأنَّه كان يُساعِدُ في حَمْلِ الحِمل، وهو يُثَرثِرُ لكلارك في أثناء مَشيِه. وكان بوب العجوز يثِبُ ذَهابًا وإيابًا قُدَّامهما، مُفترِضًا أنَّه يُمهِّدُ لهما السَّبيل، وأنَّه لَولاه ما كان الاثنان لِيَصِلا إلى مَقصِدهما على الإطلاق.

ابتلعَت مارتي غُصَّةً في حَنجرتها. أحيانًا، يُوجِعُ الحُبُّ قليلًا...ولكنْ يا له من وجَعٍ ثمينٍ جدًّا!

كان آل ديقِس أوَّلَ عائلة تصِلُ إلى تحتُ عندَ النَّهر، ولكنْ لم تكُن

أمامهم مسافةٌ طويلة يقطعونَها بعد ذلك، إذ كان كلارك قد أفرزَ قِطعةَ الأرض لأجل المدرسة من أرباضِه. فحلَّ كلارك الحِصانين، وبدأ يقيس الأرض ذهابًا وإيابًا، غارزًا أوتادًا في أثناء سيره ليُعلِّمَ المساحة المُخصَّصة لمبنى المدرسة.

نطَّ اكْلار هُنا وهُناك وراءَ أبيه، مُلتقِطًا المِطرقة حالَ وضعها أرضًا، ومُناوِلًا أوتادًا، فكانَ مُساعِدًا عامًّا ومصدَرَ إزعاجٍ محبوبًا.

كان وُجاقٌ عتيق قد وُضِعَ في عرَبَتهم المزرعيَّة، فانشغلت مارتي بإشعالِ نار ووضعِ إناءِ الماء فوقها حتَّى يغلي. لم يشتغِل هذا الموقد جيِّدًا كذاك الذي في مطبخها تقريبًا، ولكنَّه سيكونُ أفضَلَ من نارٍ مُخيَّم، وسيُساعِدُ النِّساءَ كثيرًا في تحضيرِ وجبةِ طعامٍ ساخنة.

دفعَت مِسي قُبَّعتَها إلى الوراء، وتركَت أطراف شعرها البُنِّيَّةَ الباهتةَ تتطاير. لقد استمتعَت بإحساسِ الدِّفءِ من الشَّمس على رأسها إذ أخذَتِ الحِصانَين إلى أجَمةِ شَجَرٍ قريبة، حيثُ ربطتهُما وبسَطَت أمامَهُما حشيشًا مُجفَّفًا كي يتناولاه فَطورًا لهُما.

بعدَ قليلٍ بدأت تَصِلُ عرَباتٌ ومَركباتُ جليدٍ أُخرى، واكتسبَ المشهدُ كلُّه جوًّا حَماسيًّا نابضًا بالحياة. وأخذ الأولاد يتراكضون ويزعقون ويُطارِدون بعضُهم بعضًا. حتَّى اكْلار أُغريَ بالابتعاد عن تعقُّبِ أنشِطة أبيه.

دردشَتِ النِّساءُ وتَنادَينَ وتضاحكن إذ حيَّت إحداهُنَّ الأُخرى،

وانهمكنَ في تحضيراتِ الطَّعام.

وبجِدِّيةٍ عمليَّة، بدأ الرِّجالُ يُعاينون أزناد الخشَب، مُرتِّبين ومُنتَقينَ ما كان مُناسبًا منها للأساسات، ومُصنِّفينَ ذهنيًّا التَّرتيبَ الذي به ستُستعمَل الأزناد. ثُمَّ شرَعتِ الفؤوسُ تشتغل. فأهوَت أذرعٌ مفتولةُ العضَل بضرَباتٍ ثابتة، وتطايرَتِ الشَّظايا، وانحنَت ظهورٌ قويَّة ونهضَت بِتَناغُم إذ رُفِعَت الأزنادُ الثَّقيلة ووضِعَت في أماكِنها. ولاحظت مارتي بشيءٍ من الفَخر قيادةَ كلارك المُعترفَ بها بين الرِّجال واحترِامَهم له.

كان ذلك عمَلًا شاقًّا، ما خفَّفه إلَّا عدَدُ المُتَشارِكين فيه والرِّضى الذي سيأتي به. وبينَ الحين والحين، كانت ضِحكةٌ من القلب أو قهقهةٌ مُشتركة تشُقُّ أصواتَ الشُّغلِ ذاتِه. وسرعانَ ما ظهَرَ لِلعِيان واضحًا شَكلُ مبنى مدرستهم، فيما ارتفَعتِ الحِيطانُ بالتدريج مع كُلِّ زَنْدٍ وُضِعَ في مكانه.

بدَت شمسُ الرَّبيع الباكر حاميةً تقريبًا، فخلَعَ العُمَّالُ ستراتِهم إذ سخنَت أجسامُهم من الجهد.

أدَّى الموقد العتيقُ وظيفتَه على نحوٍ مُسِرّ، إذ غلَتِ القهوة، وبدأت قُدورٌ كبيرة من اليخنة واللَّحم والفاصوليا تُبَقبِق، ناشِرةً رائحتُها المرحَّبَ بها في أرجاء مُخيَّم النَّهار الواحد.

توقَّفَ ولَدٌ يعبُرُ ركضًا في مُنتصف شَوطهِ ليتنشَّقَ جائعًا ويسألَ هل بات الطَّعامُ جاهزًا، ونادى رجُلٌ ينقُلُ زَندًا ضخمًا من فوقِ كتِفه ليتبيَّنَ

متى تُمدُّ السُّفرةُ سريعًا. وعندَ الموقد، نادَتِ المرأةُ التي كانت تُحرِّكُ القِدرَ قائلةً إنَّ عليه أن يضبِطَ نفسه، ثُمَّ أعطَتِ الصَّبيَّ الصغيرَ ابتِسامةً وتربيتةً وحضَّته على مُواصَلة الرَّكض، مُتصوِّرةً دون شكٍّ ولدَها مُجريًا عمليَّات جَمعٍ على لوحٍ أسودَ غيرِ منظورٍ بعد.

إنَّ الشَّمسَ والأزنادَ والضَّحِك- لكنِ الوعدَ أكثرَ الكُلّ- جعلت ذلك اليوم يومًا صالحًا. سيعودون كلُّهم إلى البيوت مُتعَبين لكنْ مُنتعِشين، أجسامُهم موجوعة ولكنَّ أرواحهم مرفوعة. فمعًا سيُنجِزون أُمورًا عظيمة، ليس لأجل أنفُسِهم فحسْب، بل أيضًا لأجل أجيالٍ آتية. لقد بذلوا من تلقاءِ أنفُسِهم، وسيَجني الفوائدَ كثيرون.

اعتقدَ مارتي وكلارك أنَّ بَن غراهام قالَ أحسنَ قولٍ إذ وقفَ الجميعُ يُحدِّقون إلى المبنى الجديد قبل أن يوجِّهوا أحصِنتَهم نحوَ بيوتهم.

"إنَّه يجعلُك تشعر بالفَخرِ بعضَ الشَّيء!"

٣

آرني الصَّغير

أرغمَت مارتي نفسها لتُباشِرَ إعدادَ العشاء. سيرجِعُ كلارك سريعًا من الحقل، ولن تستغرِقَ المَهامُّ وقتًا طويلًا، الأمرُ الذي جعلها شاكرةً.

في حُجرة الجلوس، كانت مِسي مُنشغِلةً بإصدار الأوامر إلى أخيها الصَّغير اكْلار.

وسمِعَتها مارتي صارخةً بِاشمئزاز: "ليس بهذه الطَّريقة...هكذا!"

فقال اكْلار مُجادِلًا: "يُعجِبُني الأمرُ بهذه الطَّريقة!" وشعرَت مارتي بيقينٍ أنَّه سيَعتمِد طريقتَه الخاصَّة. فقد كان في الصَّبيِّ بوادر عِناد...مِثلَها هي، كما اعترفَت لنفسها بحُزن.

حرَّكَت القِدرَ لِتَضمنَ أنَّ الجزَرَ لم يكُن يلتَصِقُ بالقعر، وعبَرَت تلقائيًّا إلى الخزانة لتُشَرِّحَ بعضَ الخُبز. لم تكُن هي نفسَها قطُّ، وقد عرَفَت السَّبَب.

نظرَت بتَوتُّر إلى الساعة وحبسَت نفَسَها إذِ استولَت عليها انقِباضَةٌ أُخرى. كان عليها أن تُنجِزَ عملها فعلًا، وأمَلَت أن يرجِعَ كلارك

سريعًا.

وإذ خفَّ الانقِباض، عادت إلى التَّحرُّك، فوضعَت الخُبزَ على الطَّاولة ومضَت إلى الحظيرة.

ولا بُدَّ أن يكون اكْلار أيضًا قد سمع الحِصانَين، إذ ركَضَ عبْرَ المطبخ، مسرورًا دونَ شكٍّ بالتَّحرُّر من لُعبة تَطلُّبِ مِسي والرُّجوع إلى عالَمٍ فيه يشتغِلُ معشرُ الرِّجالِ دونَ تدخُّلٍ من معشر النِّساء. فهزَّت مارتي رأسها وضحِكَت ضِحكةً خافتة رُغمًا عنها إذِ التقطَ سترته عن خُطَّافٍ وأقحَمَ بانفعالٍ إحدى ذِراعَيه في الكُمِّ غيرِ الصَّحيح. سيكتشِفُ غلطتَه لاحقًا ويُصحِّحُها في أثناء ركضه، كما علِمَت مارتي.

لم تستغرقِ المهامُّ وقتًا طويلًا، وسُرعانَ ما دخلَ كلارك حاملًا سطلَ حليبٍ مُزبِدًا ساعدَ اكْلار في حَملِه.

وضعَت مارتي الطَّعامَ في صحون وحطَّته على الطَّاولة، فيما اغتسَلَ "معشَرُ الرِّجال" في المغسل الخارجيّ. واستقَرَّت على كُرسيِّها مُستريحةً بقُرب الطَّاولة، مُنتظِرةً ريثما يجلس الآخرون في أماكنِهم.

أكمَلَ كلارك الصَّلاة وباشَرَ سكْبَ الطَّعام لنفسه ولِاكْلار. والتفتَ إلى مارتي، ثمَّ توقَّف فجأةً ونظَرَ إلى وجهها مُحدِّقًا.

سأل بهدوء: "ماذا يُزعِجُكِ؟"

وتدبَّرت ابتِسامةً واهِنة. "أظنُّ أنَّ الأوانَ قد حان".

فهتَفَ: "الأوان!" واضعًا البطاطا على الطَّاولة بخبطة. "لماذا لم تقولي ذلك؟ سأُحضِرُ الطَّبيب". وكان قد هبَّ واقفًا.

فقالت له مارتي: "اقعُد وتناولْ عشاءك أوَّلًا...". ولكنَّه كان قد بدأ يهزُّ رأسَه رفْضًا قبلما تمَكَّنَت من إكمال كلامها.

قال لها: "الأحسنُ لكِ أن تستلقي في السَّرير". ثُمَّ التَفتَ إلى الولدَين: "مِسي، اهتمِّي بِكْلار". وحدَّق إلى وجه الفتاة: "مِسي، اقتربَ الآنَ وقتُ مجيء الطِّفل الجديد. ماما بحاجة لأن تستريحَ في السَّرير. أعطِي اكْلار عشاءه، ثُمَّ نظِّفي الطَّاولة. أنا ذاهب لأُحضِرَ الطَّبيب. لن أتأخَّر، ولكنَّ عليكِ أن تكوني فتاةً كبيرة وتهتمِّي بالأُمور حتَّى أرجِع. إذا احتاجت ماماكِ إلى أيِّ شيء، فأحضِريه لها، سمِعتِ؟"

حَنَت مِسي رأسَها إيجابًا بِرَزانة.

ثُمَّ ساعَدَ مارتي للوقوف على قدمَيها، قائلًا: "والآن، هيَّا إلى السَّرير، ولا تُجادِلي!"

سمحَت مارتي لنفسها بأن تُقاد. فالسَّريرُ كان الشَّيءَ الذي رغِبَت فيه أكثرَ الكُلِّ، وثانيًا بعد ذلك أدركَت فجأةً احتياجَها إلى ما غراهام.

وفيما كلارك يسحَبُ لها اللِّحاف إلى الوراء، سألَته: "كلارك، أعلَيكَ أن تُحضِرَ الطَّبيب؟"

فوقفَ كي ينظر إليها وأجاب: "بِلا شكّ! فلِهذا هو هُنا".

”ولكنَّني أُفضِّلُ بالأحرى وجودَ ما غراهام بقُربي، يا كلارك. لقد أبلَت حسَنًا عند ولادة اكْلار، وهي تستطيع...“.

”الطَّبيبُ يعلَمُ ماذا ينبغي أن يفعل إذا طرأ خلَلٌ ما. أنا أعرِفُ أنَّ ما غراهام قد ساعدَت أُمَّهاتٍ كثيرات على ولادة أطفالِهنَ، ومُعظمَ الأحيان يجري كلُّ شيءٍ حسَنًا، ولكنْ إذ حَصَلَ خلَلٌ ما، فعندَ الطَّبيبِ المهارةُ و...وكلُّ شيء“.

انزلقَت دمعةٌ على خدِّ مارتي. لم يكُن لديها أيُّ شيءٍ ضدَّ الطَّبيب، ولكنَّها أرادت السيِّدة غراهام.

ثُمَّ قالت لنفسها: **لاتتحامقي!** ولكنَّ الفِكرَة بقِيَت، وإذ أخذَتها الانقِباضةُ التَّالية زاد توقُها لأنْ تكونَ السيِّدة غراهام معها.

ناوَلَها كلارك قميصَ نوم عن علَّاقة الثياب وراءَ الباب، وساعدها على خَلعِ فُستانِها وارتداء منامة الفلانيلَّة الرَّقيقة.

غطَّاها في السَّرير وطمأنها بقُبلةٍ إلى أنَّه سيرجِعُ سريعًا. ولاحظَت مارتي وجهَه الشَّاحب وحركاتهِ العَصبيَّةَ السريعة. ثُمَّ غادرَ الغُرفة راكضًا تقريبًا، وبعدَ لحظةٍ سمِعَت مارتي وقْعَ حوافِرِ حصانِ الرُّكوب مُغادرًا الفِناء وهو يعدو عدوًا.

سُمعَ من المطبخ صَوتا الولَدَين. كانت مِسي ما تزالُ تُصدِرُ الأوامِرَ لِكْلار، طالبةً منه أن يُعجِّل ويُنظِّفَ صحنَه ويبقى هادئًا تمامًا لأنَّ ماما تحتاجُ لأنْ تستريحَ حتَّى تتمكَّنَ من ولادة الأُختِ الطِّفلة الجديدة.

تمنَّت مارتي لو تستطيعُ أن تنام، ولكنَّ النَّومَ جفاها إذ تزايدَت الانقباضات باستمرار قوَّةً وتَواتُرًا.

نظَّفَت مِسي الطَّاولة بجَلَبة تقريبًا، وإن كان في وسع مارتي أن تؤكِّد أنَّ الصَّغيرة كانت تُحاوِلَ إتمامَ الأمر بهدوء. ثُمَّ بدا أنَّها تُحاوِلُ تنويمَ اكْلار. وقدِ احتجَّ لأنَّ وقتَ النَّوم لم يَحِن بعد، إلَّا أنَّ مِسي أبَتِ الإصغاءَ إليه، وفازَت هي في الأخير، الأمرُ الذي فاجأ مارتي وأراحها. وباتَ اكْلار مُغطًّى في سريره لينامَ تلك اللَّيلة.

أدخلَت مِسي رأسَها إلى غُرفةِ النَّوم لإطْلاع والدتها على سير الأُمور، ومنَ السَّعد أنَّ ذلك كان بين الانقباضات بحيثُ استطاعت مارتي أن تُحادِثَها بشكل طبيعيّ. وقد طوَّقَتِ الفتاةَ الصَّغيرة بإحدى ذِراعَيها، وشكرَتها على المُساعدة، ووجَّهَتها أن تأويَ هي إلى السَّرير. فهزَّت مِسي رأسَها مُوافِقةً بِرَزانة، ثُمَّ مضَت طائعةً لتعملَ ما طلبَتهُ أُمُّها.

زحفَت الدَّقائق، ثُمَّ السَّاعات، ماضيةً بِبُطء. وباتَتِ الانقباضات الآنَ مُتقارِبةً على نحوٍ شديد وأصعَبَ من أن تُحتَملَ دونَ صُراخ.

نبَحَ بوب العجوز، فتنفسَّت مارتي الصُّعداء، مُتسائلةً عن وصول الطبيب بسُرعةٍ بالغة. ولكنْ سُرعانَ ما كانت السيِّدة غراهام هي التي انحنَت فوق مارتي.

قالت مارتي، غيرَ مُصدِّقةٍ وشاكرةً: "أنتِ جئتِ!" وجرَت على خدَّيها الدُّموعُ حالًا ودونَ استحياء. "كيفَ عرَفتِ؟"

فأجابت مَّا: "عرَّجَ كلارك علينا، وقال إنَّكِ بحاجةٍ إليَّ".

"ولكنِّي ظنَنتُ أنَّه ذاهِب لإحضار الطَّبيب".

"لقد ذهب. والطبيبُ سيقومُ بالتَّوليد. قال كلارك إنَّكِ تحتاجين إليَّ لمُجرَّد التَّشجيع". ثُمَّ مسَّدَت شعرَ مارتي إلى الوراء، قائلةً: "كيف حالُكِ؟"

رسَمَت مارتي ابتسامةً مُرتَعِشة: "بخير...الآن. أظُنُّ أنَّ الوقتَ سيَطولُ هذه المرَّة كما عندَ ولادة اكْلار".

أجابت ما غراهام: "رُبَّما لا يطول". وربَّتَت ذِراعَ مارتي: "سأتفقَّدُ الصَّغيرين وأُحضِّرُ الأُمور للطَّبيب. ناديني إذا احتجتِ إليَّ".

فهزَّت مارتي رأسها مُوافقةً، وقالت: "شُكرًا لك! شُكرًا لكِ على مجيئكِ. سأكون بخَيرٍ...الآن".

جاءت السيِّدة غراهام وراحت، ثُمَّ تنبَّهت مارتي بغُموضٍ إلى أصواتٍ إضافيَّة تنضمُّ إلى صوتِ السيِّدة غراهام في المطبخ. وطفَت الكلماتُ على الهواء صوبَها، ثُمَّ باتَ الطَّبيبُ بجانب السَّرير، مُتكلِّمًا إلى السيِّدة غراهام بنَبَراتٍ مُنخفضة، وكلارك مُنحَنيًا فوقها، هامسًا بكلماتٍ طمأنة.

كانت مارتي شِبهَ غافلةٍ عنِ الباقي، إلى أن سمِعَت بُكاءً حادًّا من مولودٍ جديد.

فهَمهَمت مارتي بصوتٍ خفيض: "لقد جاءت".

وأجابها صوتُ الطَّبيبِ الهادرُ: "بل جاء! إنَّه ابنٌ جميلٌ آخر".

فهمسَت مارتي بصوتٍ خافت جدًّا: "سيَخيب أمَلُ مِسي". ولكنَّ الطَّبيبَ سمِعَها.

"لا أحَدَ يُمكن أن يخيبَ أمَلُه طويلًا جدًّا بشأنِ هذا الصَّبيِّ. إنَّه غَندور!" وبعدَ ذلك بدقائقَ قليلة، وُضِعَ الابن الجديد بلِزقِ مارتي. وفي ضوءِ المِصباح، استطاعت مارتي أن ترى أنَّه كان بالحقيقة "غندورًا"، وإذا بمحبَّتها للحياةِ الجديدة الضَّئيلة قُربَها تنتشِرُ في كِيانها كعَسَلٍ دافئ.

ثُمَّ جاء كلارك، مُشرِقَ الوجه إذ حملقَ بِابنهِ الجديد وطابعًا قُبلةً على شعرِ مارتي.

وقالَ فخورًا: "كاسِبُ جوائزَ آخَر، أمَا هوَ الآن؟" فأومأت مارتي برأسِها مُوافقةً وابتسمت ابتسامةً واهنةً.

غادَرَ كلارك ثُمَّ عادَ سريعًا، حاملًا على كُلِّ ذِراعٍ ولَدًا ناعِسًا.

وانحَنى هامسًا: "أخوكُما الجديد. انظُرا إليه نائمًا هناك. أليس جميلًا حقًّا؟"

ما كان من اكْلار إلَّا أن حدَّقَ بعَينَين واسعتين.

أمَّا مِسي فقالت بلجهةٍ ميَّالة إلى الشَّكّ: "صبيٌّ؟ كان مُفترضًا أن يكون الطِّفلُ بِنتًا. أنا صلَّيتُ لأجلِ بِنت".

فباشر كلارك يقولُ على مهل: "أحيانًا، أحيانًا يعلَم الله أفضلَ منَّا ما

هو الأفضل. إنَّه يعرِفُ أنَّ ما نُريدُه ربَّما لا يكونُ صالحًا لنا الآن. وهكذا فهو أحيانًا، بدَلَ أن يُعطيَنا ما طلبناه منه، يُرسِلُ بالأحرى ما يعلَمُ أنَّه الأفضلُ لنا. تخميني أنَّ هذا الطِّفلَ الصَّبيَّ لا بُدَّ أن يكونَ شخصًا خاصًّا حتَّى أرسلَه الله إلينا".

أصغَت مِسي بانتِباه، ثُمَّ انتشرَت على وجهها ابتسامةٌ إذ تمَطَّى الطِّفلُ وتثاءب في نومه.

فهمسَت: "إنَّه جذَّابٌ جدًّا، أمَا هو؟ ماذا سنَدعوه، يا؟"

سمَّوا الطِّفل آرنولد جوزيف ودعَوه آرني الصَّغير من الأوَّل.

وبدا أنَّ اكْلار وجدَه مُضجِرًا بعضَ الشَّيء، واشتكى قائلًا إنَّ "آرني لا يعمل أيَّ شيء"، مع أنَّه على استعدادٍ للدِّفاع عنه حتَّى الموت. أمَّا مِسي فأبدَتِ ابتهاجًا وحماسَةً واعتِناءَ أُمومةٍ، وتساءلت جهرًا لماذا أحسَّت أصلًا أنَّ أُختًا كان يمكن أن تكون أفضلَ، ولو قليلًا.

ثُمَّ استقرَّت الأُمورُ من جديد وعادت إلى روتينٍ مألوف. وقد زُرِعت الحُقولُ والبساتين. وباتت مارتي في حركة دائبة من الصَّباح الباكر حتَّى المساء المُتأخِّر، لأنَّ الطِّفلَ الجديد، فضلًا عن الفرَح، جلَبَ مزيدًا من الشُّغل. لقد كانت أيَّامُ مارتي ملآنةً حقًّا...ملآنةً لكنْ فائضةً سعادةً ومحبَّة.

٤

زيارات

لمَّا حلَّ خريفُ تلك السَّنة، كان الطِّفلُ آرني قد نما باطِّرادٍ وصار صبيًّا صغيرًا مُعافًى وقويًّا. وقد رسَّخَ بثبات مكانتَهُ المُلائمةَ في العائلة، شاقًّا طريقه إلى القلوب بالضَّحِك والهديل. وتجاهَلَ تعليمات مِسي بشأن طريقةِ الحَبْوِ الصَّحيحة، زاحِفًا هُنا وهناك على بطنه.

عندَما حُصِدَت الغِلال، أكَّدَ كلارك أنَّ محاصيلَ السَّنة كانت الأفضلَ على الإطلاق.

واستطاعت مارتي بطريقةٍ ما أن تُواكِبَ نِتاجَ حديقتها. وقد قدَّرَت للغاية وجودَ يدَي مِسي المساعِدتَين لتسلية آرني ومُراقبة اكْلار.

إنَّما خيبةُ الأمل الوحيدة ذلك الخريفَ كانت المدرسة الجديدة. فعلى مدى أشهُرِ الصَّيف الحافلة بالعمَل، تيسَّرَ للرِّجال وقتٌ كافٍ كي يُغطُّوا السَّقف بألواح الخشب، ويُركِّبوا النَّوافذ، ويُبلِّطوا الأرضيَّة. وقد طُلِبَ موقد ناتئ البطن وجرى تركيبُه، كما صُنِعَت مقاعِدُ بسيطة للجلوس والكتابة. وكان مُزارِعو المِنطقة قد تبرَّعوا كلٌّ بقِسطٍ من

الحَطَب الذي جُمِعَ في أكداسٍ بترتيب داخِلَ الفِناء. وأُنشئ مأوًى بسيطٌ لأحصِنة المَزارِع، فضلًا عن المباني الإضافيَّة الضَّروريَّة. حتَّى ألواحُ الطَّبشورِ السَّوداءُ عُلِّقت، غير أنَّ المدرسة ظلَّت فارغةً وساكنة. وعلى الرُّغم من العمَل الدَّؤوب الذي قامت به لجنةُ البحث، لم يُعثَر على أيِّ مُعلِّم.

قضَت مارتي ليلةً أرِقةً وقلِقةً من أجل ذلك. بدا غيرَ مُنصِفٍ أن يحلُموا ويعملوا باجتهادٍ بالغ لإنشاء المبنى الصَّغير الجميل، فقط ليقومَ خاليًا ويُتركَ الأولادُ سنةً أُخرى دونَ تعليمٍ رسميّ. وباتَ الحديثُ الآن عن السَّنة التَّالية، ولكنَّ السَّنةَ التَّالية بدَت زمَنًا طويلًا رهيبًا ينبغي انتِظارُه، خصوصًا بالنِّسبة إلى أحداثٍ مثلِ ابنتَي آل لارسون إذ كانت فُرصة التعلُّم في مدرسة تفوتُهما.

كانت مارتي ذاتَ صباح مشغولةً بالتَّعليب إذ سمِعَت صوت حِصانَي عرَبة مُقبِلَين. وبوجود الجيران بعيدين بعضَ الشَّيء، كان الزُّوَّار قليلين جدًّا ومُرحَّبًا بهم للغاية. فمسَحت مارتي يدَيها على مئزَرِها ونظرَت من النَّافذة لترى كلارك مُحيِّيًا وَنْدا مارشال وآخِذًا الحِصانَين منها.

لمَّا توجَّهَت وَنْدا إلى البيت، تنبَّهت مارتي حالًا إلى مئزَرِها المُلطَّخ بالخُضَر ويدَيها المُبقَّعَتين من الشُّغل. فطرحَت عنها المئزَرَ بسُرعة وسحبَت آخَرَ نظيفًا من أحَدِ الجَوارير. ولدى رَبطِهِ حولَها وهي ذاهبة

إلى الباب، استطاعَت أن تُحِسَّ ابتِسامةً ترفعُ زاويتَي فمها.

استقبلَت وَنْدا بعِناقٍ بهيج، وبدأتا كِلتاهُما تتحدَّثان في الحال لِتَوقهِما إلى زيارة.

قالت مارتي: "أنا مسرورةٌ جدًّا بمجيئك. عُذرًا عن مطبَخي غيرِ المُرتَّب. أنا أشتغِلُ بالتَّعليب، كما ترَين".

فطمأنَتها وَنْدا: "لا بأس! ما كان ينبغي لي أن أجيء في وقتِ شُغلٍ كهذا، ولكنَّني لم أُطِقِ البقاء بعيدةً حقًّا. لقد كان عليَّ أن أراكِ فِعلًا، يا مارتي".

"لا تنتظري أبدًا حُلولَ وقتٍ يخلو من العمل. عجَبًا! يبدو أنَّ أيَّامي كلَّها حافلةٌ بالشُّغل، وأنا على يقين بأنِّي أحتاجُ فعلًا إلى زيارة من صديقة بين حين وآخر".

افترضت مارتي أنَّ عليها أن تنتظِرَ وتدَعَ وَنْدا تُخبِرها بما تحمِل، ولكنَّ الألَقَ على وجهها حمَلَ مارتي على سؤالها بعد: "ولكنْ ما أخبارُكِ؟ في وسعي أن أرى استِبشارَكِ الجليَّ".

ضحِكَت وَنْدا في خُفوت ضِحكةً تكادُ أن تكونَ قهقهةَ صبايا، كما خُيِّلَ إلى مارتي. وما كانت مارتي قطُّ قد رأت وَنْدا سعيدةً على نحوٍ ظاهِرٍ هكذا.

قالت وَنْدا: "أُوه، مارتي! صحيحٌ أنِّي مُستبشِرةٌ تمامًا". ثُمَّ ضحِكَت، وشهقَت نفَسًا عميقًا، واندفعَت تقول: "كنتُ توَّا في عِيادة

الدُّكتور واتكِنز. سأُرزَق طفلًا!"

وبعدَ قولِ مارتي بابتهاج: "أُوه، وَنْدا!" تابعَت خبَرَها.

"يقولُ الدُّكتور واتكِنز إنَّه ليس من سبَبٍ يحول دونَ احتِفاظي بهذا الجنين، وليس من سبَبٍ يمنَعُ بقاءه حيًّا. إنَّ كام توَّاقٌ جدًّا، وهو يقولُ إنَّ ابنَنا سيكون الصَّبيَّ الأوسَمَ والأقوى والأذكى في الغرب كلِّه".

ضحِكَت مارتي. "حسنًا، تخميني أنَّه قد يكونُ لدى كلارك أيضًا شيءٌ يقولُه عن ذلك".

وضحِكَت وَنْدا أيضًا. "لمَّا سألتُ كام: «ماذا لو كان الطِّفلُ بِنتًا؟»، قالَ إنَّها ستكونُ الفتاةَ الأكثرَ جمالًا وحلاوةً وأناقةً في الغَربِ كُلِّه. آهٍ مارتي، أنا سعيدةٌ للغاية بحيثُ يُمكِنُ أن أبكيَ حقًّا". وقد بكَت فِعلًا.

فتقدَّمَت مارتي لتُطوِّقَها بذِراعَيها، غيرَ خَجِلَةٍ بدموع الفرَح التي تقطَّرَت رقيقةً على خدَّيها.

وأخيرًا استطاعت مارتي أن تقول: "كم أنا سعيدةٌ حقًّا من أجلك، يا وَنْدا! وبوجود الطَّبيب هُنا سيجري كلُّ شيءٍ حسنًا، كما أنا مُتيقِّنةٌ حقًّا. سوف يكونُ لكِ أخيرًا ذلك الطِّفلُ الذي ما بَرِحتِ راغِبةً فيه بشِدَّة. مَتى سيُولَد؟"

فقالَت وَنْدا آنَّةً: "آه! يبدو المَوعِدُ بعيدًا جدًّا الآن. ليسَ قبلَ نَيسانَ المُقبِل".

”ولكنَّ الشُّهورُ ستَمضي بسُرعة. فهذه حالُها دائمًا. وستُتاحُ لكِ أشهُرُ الشِّتاء كي تستعدِّي للطِّفل، قائمةً بالخِياطة والتَّنجيد وكلِّ شيء. سيجعَلُ ذلك الشِّتاءَ زمَنًا سعيدًا جدًّا. فسيمضي بسُرعةٍ زائدة بحيثُ تستصعِبين القيامَ بكُلِّ ما ستحتاجين إليه“.

”أرجو ذلك. مارتي، أيُمكِنُكِ أن تُريني نَموذجَ تلك الكنزة التي كان آرني يرتديها الأحَدَ الماضي؟ أودُّ أن أحبِكَ واحِدةً مثلها“.

”بالتَّأكيد. لن تُواجِهي أيَّةَ مُشكلة البتَّة في حَبْكِ تلك الكنزة“.

وفوقَ قَهوةٍ وكُعَيكاتٍ مُحلَّاة، أنجزَت مارتي ووَنْدا النَّموذج، حيثُ دوَّنت وَندا مُلاحظاتٍ فيما أرَتها مارتي الكنزة وشرَحَت لها قُطَبَ الحبْك.

ولَّى عَصرُ النَّهار بسُرعة، ولمَّا استيقظَ آرني واكْلار من نومَتهِما القصيرة قالت وَنْدا إنَّ عليها أن تكون في طريقها إلى بيتها.

أُرسِلَت مِسي لتسأل كلارك هل يستطيع إحضار حِصانَي وَنْدا. فلبَّى الطَّلَب حالًا، وبعدَ عِناقٍ آخَر، وتمنِّياتِ السَّلامة باتت وَنْدا على الطريق إلى منزِلها.

مشَت مارتي راجعةً مع كلارك إلى مخزن الحبوب. وقالت بحماسة: ”حكَت لي وَنْدا أحسَنَ خبَر. سوف تُرزَقُ أخيرًا ذلك الطِّفلَ الذي تُريدُه بكُلِّ جوارحِها. إنَّها مُتأثِّرة ومُتحمِّسة جدًّا. وبالحقيقة أنَّي أُصلِّي أن يتمَّ كلُّ شيءٍ على خير هذه المرَّة“.

كان في وسع مارتي أن تؤكِّدَ أنَّ كلارك سُرَّ من أجل وَنْدا، ومضَت تقول: "ويقولُ كام إنَّه إذا كان الطِّفلُ صبيًّا، فسوف يكون الأذكى والأوسَمَ والأفضل في الغرب كُلِّه، وإذا كانت بِنتًا فإنَّها ستكونُ الأجمل. وقد قلتُ لها إنَّكَ قد تُعطيهِ مشورةً ما بشأنِ ذلك". ثُمَّ ضحِكَ الاثنانِ معًا.

وما لبِثت عينا كلارك أن نمَّتا عنِ استِغراقٍ في التَّفكير.

"لعلَّكِ لا تعرِفين كامِرُن مارشال جيِّدًا جدًّا بعد، أتعرِفينه؟"

"لم أكَد ألتقي الرَّجُل، إنَّما رأيتُه مرَّاتٍ قليلةً فقط في اجتماعات أهلِ الحيّ. لماذا؟"

فغدَت سيماءُ كلارك أكثرَ جِدِّيَّةً بعدُ، وقال: "إنَّه رجُلٌ غريبٌ إلى أبعَدِ حدٍّ". وتوقَّفَ هُنَيهةً. "من شأنِ كام تمامًا أن يشعُرَ بأنَّ ابنَه ينبغي أن يكونَ الأذكى، وابنتَه ينبغي أن تكون الأجمل. فذلك من خِصاله". ثمَّ توقَّف هُنيهةً أُخرى. "أعتقِدُ أنَّ ذلك هو سبَبُ زواجهِ بِوَنْدا. لقد تصوَّرَ أنَّها أجملُ فتاةٍ وقعَت عيناهُ عليها يومًا، ولذلك وجَبَ فعلًا أن تصير «له». إنَّ مُشكِلة كامِرُن مارشال هي الأهمِّيَّة التي يُضفيها على «ما لي هو الأفضل». أتذكَّرُ مرَّةً فيها رأى كام حِصانًا جيِّدًا. وكان لا بُدَّ له من أن يحوزَ ذلك الحِصانَ فِعلًا لأنَّه تصوَّره أفضلَ قليلًا من أيِّ حِصانٍ آخر في هذه النَّواحي. فباعَ كلَّ حِنطَتِه ليحصُلَ على ذلك الحِصان. لقد أخَّرَه ذلك سِنين، ولكنَّه اعتبر ذلك الحِصان أحسَنَ

منظرًا ممَّا اعتبَرَه أيُّ شخصٍ حَوالَيه. تَخميني أنَّه تصوَّره مُستَحِقًّا ثمَنَه.

"هل لاحظتِ عرَبَته مرَّةً؟ إنَّها مدهونةٌ بكاملها ومُزيَّنة بزخارِفَ معدِنيَّة. كان ممكنًا أن يمتلِكَ مكانًا أوسَعَ يسكُن فيه. فكَّرَ رِجالُ الجِوار منذُ سِنينَ قليلةٍ أن يتصرَّفوا بمَودَّةٍ تُجاهَه، فساعدوه في قَطع أزناد الخشَبِ ليتمكَّن من إنشاء منزِل. ولكنَّه بالأحرى رأى تلك العرَبة، فباعَ الخشَبَ واشتراها، وما زال هو ووَندا يسكنان في تلك الغُرفة الواحدة الصَّغيرة. فكما يرى كام الأمر، يخصُّ البيتُ المرأة، لا الرَّجُل. لقد تمنَّيتُ غالبًا لو حفَزَه شيءٌ ما على فِكرةِ حيازةِ البيت الأفضل أيضًا، ولعلِّي أجِدُ سبيلًا إلى إقناعه بذلك. ولكنَّ ذلك سيكونُ أسهَلَ على وَنْدا بالتَّأكيد الآن، لأنَّ طِفلًا سوفَ يأتي، ولا بُدَّ أن يكونا بحاجةٍ إلى مكانٍ أكبر".

كان كلارك ناظِرًا إلى التِّلال البعيدة عِندَما أنهى كلامه. ولم تكُن مارتي قطُّ قد عرَفَت مِن قبلُ أيَّ نوعٍ من الرِّجال كان كامِرُن مارشال. فشعَرَت بأنَّها عاجزة، وتمنَّت لو وُجِدَ شيءٌ ما تستطيع أن تفعلَه لِتُساعِدَ صديقتها.

ثمَّ قال كلارك مُتأمِّلًا: "غالبًا ما تساءلتُ عمَّا يجعَلُ رجُلًا ما غيرَ واثق بنفسه هكذا، بحيثُ يُضطرُّ إلى إثبات ذاته باقتناءِ أشياء. لا بُدَّ أنَّ شيئًا ما في الأعماق يُقلِق كام حتَّى جعَلَه كما هو".

أخَذَ كلارك نفَسًا عميقًا، وبدا مُسترجِعًا نفسَه من مكانٍ ناءٍ. "أرجو

يقينًا أن يكون ذلك الصَّغير الآتي غَندورًا، وإلَّا فإنَّ الأمرَ سوف يكون صعبًا على والده بصورة رهيبة".

والتفتَ لِيُواجِهَ مارتي، ثُمَّ تبسَّم. "لم أقصِدْ أن أضَعَ مِطفأةً على بُشراكِ. أنا على يقين بأنَّه سوف يكون لدى كام سببٌ يجعلُه فخورًا، ولدى وَنْدا أيضًا. إنَّني مسرورٌ حقًّا من أجلِ وَنْدا. فسيُوقِظُ حياتَها أن تشتمِلَ على طِفل!"

حمَلَ النَّهارُ قرصةَ برْد، مُذكِّرًا بأنَّ الشِّتاء وراءَ الباب. وإذ عبَّأت مارتي صُندوقًا بالخُبز ومَرَقِ الحَساء والخُضَر وكُعَيكات الدِّبس، كانت شاكرةً أنَّ الرِّيح لم تكُن هابَّة.

وصَلَ خَبرٌ ذلك الصَّباح بأنَّ السَّيِّدة لارسون كانت مريضة. وبدا كأنَّه شيءٌ أخطَرُ بكثيرٍ من نزلةِ بَرْدٍ أو رشح عاديٍّ، فرأت مارتي أنَّ عليها أن تذهب وتتفقَّدَ جارتها، حتَّى لو كانت الرِّياحُ البادرة مُثبِّطةً للهِمَّة.

لم يُرِد كلارك أن يراها تذهبَ وحدَها، ولكنْ لِكَون مِسي في الواقع أصغرَ سِنًّا من أن تُترَكَ مُعتنيةً بِكْلار وآرني الصَّغير، لم يكُن لديه أيُّ شيء يفعلُه سِوى البقاء في البيت مع الأولاد.

لبِسَت مارتي ما أمكنها من الثِّياب المُدفئة. ثُمَّ خرجَت حاملةً صُندوقتَها إلى حيثُ انتظرَها كلارك مع الحِصانَين.

قالَ مُنبِّهًا: "لا تسمحي لنفسكِ بأن تؤخَّري فوقَ الحَدّ. وإذا بدأتِ الرِّيحُ بالهُبوب فعلًا، فتَوجَّهي إلى البيت على وجه السُّرعة".

وعَدَت مارتي بالامتِثال، ولفَّت نفسَها بالبَطَّانيَّة بكُلِّ حِرص، وانطلقَت.

لمَّا لاحَ للعِيان مَنزِلُ آلِ لارسون، المُهمَلُ تقريبًا، لاحظت مارتي فقط خَيطَ دُخانٍ ضئيلًا صاعدًا من مِدخَنةِ الكوخ.

لم يُلاقِها أحَدٌ في الفِناء لِمُساعدتها على الحِصانَين، فربطَت دان وتشارلي بعمودٍ قريب، وهُرِعَت إلى البيت حاملةً صُندوقتَها.

حصَلَت حركة عند النَّافذة، وإذِ اقتربَت مارتي أُسدِلَت السِّتارةُ في مَوضِعها مُجدَّدًا. ولمَّا دقَّتِ الباب، فتحَتهُ الابنةُ الصُّغرى، كلاي، وأومأت لها بهدوءٍ كي تدخُل.

كانت أُختُها، نانْدري، تغسِلُ صحونًا وَسِخةً في قِدرِ ماءٍ وَسِخٍ بالمِثل. وبيَّنَت لمارتي مِكنِسةٌ مبتورةٌ مُسنَدةٌ إلى الطَّاولة أنَّ كلاي كانت تبذِلُ جهدًا لِكَنس الأرضيَّة.

إنَّهما تُحاوِلان، على الأقلّ... هكذا فكَّرت مارتي شاكِرةً. وبعدَما سلَّمت على الفتاتَين، توجَّهَت إلى الموقد البارد تقريبًا. كانت الغُرفة أيضًا باردة، وبثَّت قُشَعريرةً في أوصالِ مارتي، على الرُّغمِ من حقيقة كونها لم تخلع معطفها بعد.

فتحَت غِطاءَ الموقد، فرأت حطَبةً وحيدة تحترِق وتُدخِّن في بيت

النَّار.

وسألت راجيةً: "أينَ حطَبُكم؟"

فأجابت كلاي: "لا حطَب. أبونا لم يُقطِّعه، ونحنُ لا نستطيع أن نُشَقِّقه".

"ألدَيكُم فأس؟"

"نعَم... نوعًا ما".

واكتشفَت مارتي ما عنَت "نوعًا ما" لمَّا خرجَت إلى الكومة المُبعثَرة التي شكَّلت مخزونَ حطَبِهِم الضَّئيلَ للشِّتاء. فلم تكُن قطُّ قد رأت أداةً كَليلةً ومُثَلَّمة كهذه. وبقَدْرٍ من الجهد كبير، تمكَّنت من تشقيق حطَبٍ كافٍ لتبديدِ البَرْد من البيت.

وبعدَما أشعلَت النَّار ووضعَت ركوةً كبيرة لِتَغلي، دخلَت كي ترى السيِّدةَ لارسون.

كانت المرأةُ راقِدةً ولابِدةً تحتَ بضعِ بطَّانيَّات على سريرٍ ضيِّق في الغُرفة الثانية من الكوخ الصَّغير. وأراحَ مارتي أن ترى أنَّ الثِّيابَ على الأقلِّ لم تكُن منثورةً في الغُرفةِ كُلِّها. ثُمَّ أدركت بيأسٍ أنَّه ربَّما كان كلُّ شيءٍ يملكونَه على جُلودِهم، في محاولةٍ لإبعاد أكبرِ قدْرٍ مُمكن من البرد. وقد تمدَّدت السيِّدة لارسون شاحِبةً وساكِنةً تحت الأغطية الضَّئيلة.

أنَّبَت مارتي نفسها: **لماذا لم أتذكَّرْ إحضارَ لِحافٍ ثقيل؟** حتَّى حينَ

خطرَتِ الفكرةُ في بالها، لاحظَتِ الارتعاش الذي سرى في جِسمِ السَّيِّدة لارسون. ووقفت بلِزق السَّرير، مادَّةً يدَها لتُمسِّدَ الشَّعرَ برِفقٍ وترُدَّه عن الوجه النَّحيل الأبيض.

قالت همسًا: "كيف حالُكِ؟"

فحاولَتِ السَّيِّدة لارسون أن تُجاوِب، ولكنَّ كلامَها جاء خافتًا وخفيضًا.

وقالت مارتي: "سأُعطيكِ بعضَ الحَساء السَّاخن حالًا"، ورجعَت بسُرعة إلى المطبخ، حيث وضعَتِ المَرَق على النَّار لِيَسخُن، ثُمَّ خرجت إلى العرَبة وعادت بالبطَّانيَّة التي كانت قد لفَّتها حولَها وهي آتية. فأدفأتِ البَطَّانيَّة عندَ الموقد قبلَما أدخلَتها إلى السَّيِّدة لارسون ولفَّتها بإحكامٍ حولَ الجِسمِ المُرتَعِش.

سخَنَ الحَساءُ بسُرعة، فطلبَت مارتي من كلاي صحنًا ومِلعقة. ثُمَّ أخرجَتِ الخُبزَ من الصُّندوقة وأعطَته للفتاة، قائلة: "لِماذا لا تتناولين أنتِ ونانْدري شيئًا من الحَساء وهو ساخِن، وشيئًا من الخُبزِ معه؟"

فقالت نظَراتُ الجُوع في أعيُنِ الفتاتَين إنَّهما ستفعلان ذلك بمُنتهى الشَّوق.

حملَت مارتي الحَساءَ السَّاخن إلى السَّيِّدة لارسون. وقد أدركَت أنَّ المرأة كانت أصلًا أضعفَ من أن تُطعِمَ نفسَها، وأمَلَت ألَّا تُعارِضَ إطعامَها بالمِلعَقة. وما كان من داعٍ لأنْ تقلق. فإنَّ السَّيِّدة لارسون

قبِلَتِ الطَّعامَ بشُكرٍ ظهَرَ في عينَيها.

ثُمَّ همسَت: "الفتاتان..."

طمأنتها مارتي بسُرعة: "إنَّهما تأكلان"، فبدا عليها الاطمئنان.

تحدَّثت مارتي بهدوءٍ وهي تُطعِمها بالمِلعَقة: "أنا آسِفة جدًّا من أجلِ تَوعُّكِك. لم أسمَع بذلك حتَّى اليوم. كان ينبغي لِجَد أن يُعلِمنا، وكان مُمكِنًا أن نأتيَ للمُساعدة عاجلًا.

"حسَنٌ أنَّ عندَكِ هاتَين الفتاتين اللَّطيفتين لِتُساعِدَاكِ. لمَّا جئتُ، كانت نانْدري تغسِلُ الأواني وكلاي تكنِسُ الأرضيَّة. لا بُدَّ أنَّهما مُعينتان عظيمتانِ لك...هاتَين البِنتين".

اكتسبت عينا السَّيِّدة لارسون قليلًا من الحيويَّة بعد، وأومأت برأسها قليلًا. لقد عرَفَت مارتي كم أحبَّتِ المرأةُ بِنتَيها.

" لا بُدَّ أن تكونَ هذهِ الفترةُ شاقَّةً عليكِ. فالمرأةُ تكرهُ تمامًا أن تُلازِمَ السَّرير، تكرهُ ألَّا تكونَ مُعتنيةً بعائلتها. إنَّ ذلك يجعلُ المرأة تشعُرُ بعدَم النَّفعِ تقريبًا على نحوٍ رهيب، ولكنَّ الله يعلَمُ حقًّا كيف تشعُرين، ولماذا أنتِ مريضة. وهنالك دائمًا سبَبٌ لِسَماحهِ، وإن كُنَّا لا نُدرِكهُ دائمًا في الحال. فأنا على يقين بوجودِ سبَبٍ جيِّد لهذا أيضًا. وذاتَ يوم، قد نُدرِكُ ذلك السَّبب".

كان الحساءِ قد نفِدَ تقريبًا، ولكنَّ السَّيِّدة لارسون نحَّتِ الباقيَ جانبًا. ولم تَدرِ مارتي هل شبِعَت أم هل كانت مُتعبَةً فحسْب. ثُمَّ

تكلَّمَت السَّيِّدة لارسون، على مَهلٍ أوَّلًا. ولكنْ بالتدريج تدحرجَت كلماتُها واحدةً إثرَ الأُخرى، مُتَدفِّقةً في تعاقُبٍ سريع إذ كان ينبغي أن تُقال. وقد تنفَّسَت المرأةُ بصعوبة، وكلَّفها جَهدُ التَّكلُّم كثيرًا، إلَّا أنَّها بدَت مُصمِّمةً على الإفصاح عن واقعِ حالها.

قالت: "بِنتايَ...بِنتايَ ما كانَ لَهُما شيءٌ قطّ، لا شيء...وذلك ليس هو ما أُريدُه لهما. أبوهما رجُلٌ صالح، ولكنَّه لا يفهم ما يتعلَّق بالبنات. فظلَّت مُصلِّيةً...طالِبةً أن يُعطيَهُما الله فُرصةً ما، مجرَّدَ فُرصة، ذلك كلُّ ما أطلبُه. أنا...لا أهُمُّ الآن. لقد عشتُ حياتي. إلَّا أنَّني لا أقولُ إنِّي أُريدُ أن أموت...أنا خائفةٌ أن أموت. لستُ امرأةً صالحة، يا مارتي. لا شأنَ لي بأن أطلُبَ من الله أيَّ شيء، ولكنِّي لستُ طالبةً ذلك لأجلِ نفسي، بل لأجلِ بِنتَيَّ فحسْب. أتعتقِدين أنَّ الله يسمع صلَواتي، يا مارتي؟ ما كنتُ لأجرؤَ على الصَّلاة أصلًا، ولكنَّ بِنتَيَّ مُحتاجتانِ حقًّا...". وأخيرًا انفجرَت باكيةً بتَقطُّعٍ وتنهُّد.

ربَّتَت مارتي اليدَ النَّحيلةَ المُتشبِّثة بالبطَّانيَّة.

وقالت باقتناعٍ شديد: "طبعًا، الله يسمع".

فبدَت السَّيِّدة لارسون وكأنَّ حِملًا ثقيلًا رُفعَ عنها.

"أيُمكن أن يُبدي رحمةً لِصَغيرتَي امرأةٍ خاطئة؟" وتوسَّلَتْ عيناها أن يكونَ الجواب مُطَمئنًا.

فقالت مارتي على مهل: "نعم! إنَّه يحبُّ الفتاتين، ولَسوفَ

يُساعدُهما. أنا على يقين بأنَّه سيفعل ذلك. ولكنْ، سيِّدةُ لارسون، هو يُحبُّكِ أنتِ أيضًا، ويُريدُ أن يُساعِدَكِ. إنَّه يحبُّكِ، يحبُّكِ حقًّا. أنا أعلَمُ أنَّكِ خاطئة، ولكنَّنا كُلَّنا لسنا مُختلِفين. يقولُ الكتاب إنَّنا كلَّنا خُطاةٌ ومُتعلِّقون بخطايانا كما لو كانت شيئًا يستحقُّ الاحتفاظَ به، ولكنَّها ليست كذلك. فعلينا أن نُفلِتَها، وسيأخُذها الله منَّا ويضَعُها هناك في كومة الخطايا الكبيرة تلك التي حمَلَها المسيحُ بنفسه يومَ ماتَ مصلوبًا. ليس صلاحُنا هو ما يجعلُنا مؤهَّلين للتَّمتُّع بالسَّماءِ في حضرةِ الله، بل إيمانُنا بالرَّبِّ يسوع. ما علينا إلَّا، حقًّا ما علينا إلَّا أن نقول: «شكرًا لك، يا ربُّ، من أجلِ مَوتك. طهِّرني من الدَّاخل حتَّى أكونَ مؤهَّلةً لسمائك!» وهو سيفعل ذلك. إنَّه يأخُذُ نفْسَنا هذه المُلوَّثة بالتُّراب، ويُنظِّفُها ويُلمِّعها لأجل السَّماء. ذلك هو ما يفعله، وكلُّ ذلك استجابةً لصلاتنا الاسترحاميَّة". ومسَّدَت مارتي الشَّعرَ المُتشابِك رادَّةً إيَّاه عن الجبين المحموم. "أتُريدين أن تُصَلِّي، سيِّدةُ لارسون؟"

بدَتِ المرأةُ مدهوشةً. "لم أُصَلِّ قطُّ. ما فعلتُ ذلك لأجلِ نفسي، بل لأجلِ بِنتَيَّ فقط. لستُ أدري ما أقولُه لَه؟"

فذكَّرَتها مارتي بلُطف: "لقد قُلتِه لي. قولي له إنَّكِ سئمتِ التَّعلُّقَ بخطاياكِ، وإنَّكِ لا تُريدين أن تحمِليها بعد، واطلُبي إليه أن يتفضَّلَ بتخليصِكِ منها. ثُمَّ اشكُريهِ أيضًا، من أجل محبَّته ومن أجل تطهيره إيَّاكِ".

بدَتِ السَّيِّدة لارسون مُتردِّدة، ولكنَّها ما لبِثَت أن بدأت صلاتَها القصيرة. وقدِ استجمعَت الكلماتُ المُتَلعثِمةُ بالتدريج قوَّةً ويقينًا. ولمَّا فتحَت مارتي عينَيها اللَّتَين أعشاهُما الدَّمع، لاقَتها ابتسامةٌ فاترةٌ، لكنْ واثقة، وعينانِ دامِعتان بالمِثل.

هتفَتِ السَّيِّدة لارسون بهَمسٍ أجَشَّ: "لقد فعل! لقد فعل!"

شدَّت مارتي على يد السَّيِّدة لارسون، ومسحَتِ الدُّموع عن خدَّيها هي. وقالت مؤكِّدةً: "بالتأكيد فعل ولَسوفَ يستجيبُ صلاتَكِ الأُخرى أيضًا. لستُ أدري كيف سيُدبِّرُ الأمر، ولكنَّني مُتيقِّنة بأنَّه سيفعل ذلك".

ثُمَّ وقفَت. وكانت الشَّمسُ تتحرَّك بسُرعة نحوَ الغرب، فعلِمَت أنَّ عليها أن تكونَ على طريق العودة إلى بيتها. "سيِّدةُ لارسون، عليَّ أن أذهبَ عاجلًا. وعدتُ كلارك بأنِّي لن أتأخَّر، ولكنَّ ثمَّة شيئًا أُريدُ لكِ أن تعلميه. إذا حدَثَ لكِ شيءٌ ما- وأنا أرجو أن تقِفي عاجلًا على قدمَيكِ من جديد- ولكنْ إذا حدثَ شيءٌ ما، فسأبذِلُ قُصارايَ لأضمنَ أن تُتاحَ لبِنتَيكِ تلك الفُرصة".

لاذَتِ السَّيِّدة لارسون بالصَّمت. لقد بدَت حابِسةً نفَسَها، ولكنْ ما لبِثَت مارتي أن أدركت أنَّها كانت أشدَّ تأثُّرًا من أن تتكلَّم...إلَّا إلى إلهِها الذي اهتدَت إليه حديثًا.

ومن جديدٍ أغرورقَت عينا المرأة. أخيرًا، استطاعت أن تقولَ مرَّةً بعدَ

مرَّة: ”شُكرًا لكِ، حقًّا، شكرًا لكِ!“

مسَّت مارتي يدَها مسًّا رقيقًا، ودارت لتذهب. لقد كان عليها أن تُسرِعَ بالرُّجوع إلى البيت كي يُتاحَ لكلارك وقتٌ كافٍ لِيَعودَ إلى منزِل آل لارسون بحِملٍ من حطَبِ الوَقود واللُّحُفِ المُدفئة.

0

أخبارٌ مُشَوِّقة

فرِغَت مارتي من رَقْعِ رِداءٍ سِروالِيٍّ لِكْلار، ووضعَته جانبًا. كان الوقتُ أبكَرَ من أن تبدأ بتحضير العشاء. فالتقطت ثوبًا آخر للإصلاح، وجعلَت ذِهنَها يسرَحُ حولَ بعضِ أحداثِ الأشهُر القليلة الماضية.

كانت قد ذهبَت عدَّةَ مرَّات لزيارة السَّيِّدة لارسون. وقد مدَّت يدَ العَونِ أيضًا ما غراهام وجاراتٌ أُخَرُ، مُمرِّضاتٍ المرأةَ ومُهتمَّاتٍ بتلبية حاجات العائلة. ومع أنَّ السَّيِّدة لارسون استقرَّت راضيةً على سلامها الدَّاخليِّ الذي نالَته حديثًا، فقدِ استمرَّت تضعُف. ورُغمَ أنَّ أحدًا من المَعنيِّين لم يُعبِّر عن الأمر بالكلام، فقد علِمَت مارتي أنَّهم يخوضون معركةً خاسرة. وقدِ استُدعيَ الطبيبُ أيضًا، فهزَّ رأسَه بصَمت وشجَّعَهُم على إبقائها مُستريحةً بقَدْر الإمكان.

كان ضَحِكُ الأولاد على شيءٍ أو آخَر، وهم يلعبون قُربَ الموقد السَّاخن، يجتذِبُ أفكارَ مارتي بعيدًا عن مرضَ السَّيِّدة لارسون إلى أُمورٍ أكثرَ إبهاجًا.

سوف يُقبِلُ الرَّبيعُ عليهم قريبًا، وبمجيئه سيُرحَّبُ في الجِوار بطِفلَين جديدَين، في شهر نَيسان. وقد سُرَّت مارتي كثيرًا من أجلِ الأُمَّين العتيدتَين، وصلَّت طالبةً أن يتمَّ كلُّ شيءٍ على خير.

سيكونُ أوَّلَ طفلٍ يصِل هو طِفلُ وَنْدا. فهيَ التي فقدَت قبلًا ثلاثةَ أولاد، ورغِبَت بشِدَّةٍ في ولَد، استحقَّت أن تحوزَ هذه البهجة. وبوجودِ طبيبٍ في المُتناوَل الآن، أُوتيَتِ الثِّقةَ بأن يتمَّ الأمرُ بخيرٍ هذه المرَّة.

صلَّت مارتي مِرارًا كلَّ يوم: "رجاءً، يا ربّ، دع كلَّ شيءٍ يتمُّ على ما يُرام بالنِّسبة إلى وَنْدا".

أمَّا الطِّفلُ الثَّاني فكان لِسالي آن. وهذا الحفيدُ الأوَّل لِبَن وما غراهام سوف يكون مُميَّزًا جدًّا. فسالي آن أيضًا أمَلَت أن تصيرَ أُمًّا قبلَ ذلك، ولكنَّها لم تحمِلَ جنينَها الأوَّل حتَّى التَّمام. والآنَ باتت أيَّامُ وَضعِها قريبةً جدًّا، وبدَتِ الأُمورُ جاريةً حسنًا هذه المرَّة. وقد علِمَت مارتي أنَّ سالي آن لم تكُن وحدَها تعدُّ الأيَّام.

فيما فكَّرَت مارتي مليًّا في الوعد بحياتَين صغيرتين جديدتين سوف يأتي بِهما الشَّهرُ المقبِل، تحوَّلَت عيناها نحوَ صِغارِها وهم يلعبون راضين على مقربة منها.

كانت مِسي تُلبِسُ هُرَيرةً ثِيابَ دُمية. فبعد كثيرٍ من الجِدال والإقناع من قِبَل مِسي، وافقَت مارتي أخيرًا على السَّماحِ بوجود هِرَّةٍ حظائر صغيرة في البيت. وقد سمَّتها مِسي مِس پُس وعامَلَتها كطِفلة. فما من

هُرَيرةٍ لقِيَت يومًا حُبًّا وتدليلًا أكثرَ من مِس پُس. وتساءلت مارتي إذا كانت مِس پُس لِتُرحِّبَ، على وجه الاحتمال، ببضعِ لحظاتٍ من السَّلام.

كان اكْلار يُكدِّس كُتَلًا خشبيَّة صغيرة في مُحاوَلةٍ منه لإنشاءِ حظيرة. فكانت الكُتَل أحيانًا تسقط على القَشَّات التَّاعسة المأخوذة من المِكنِسة والمُعتبرَةِ حيواناتِ مزرعته، وعندئذٍ يُضطَرُّ إلى البدء من جديد.

أمَّا آرني، وكان في وسعه الآن أن يقعُدَ وحدَه، فراقبَ اكْلار محدِّقًا، مفتونًا على الأخصِّ، فيما بدا، بالصَّوت النَّاتج عن سُقوطِ الكُتَلِ مُنهارةً. فكان ذلك يستدرُّ قَرقراتِ ابتِهاج، ويجعَلُ جِسمَه الصَّغير المُمتلئ يترجَّحُ إلى الوراء والأمام تأثُّرًا وحماسةً.

وقد شرح اكْلار لآرني الصَّغير بمسؤوليَّة أيَّةُ قشَّاتٍ كانت الأحصِنة، وأيَّةٌ كانت الأبقار، وأيَّةٌ العجول، وأيَّةٌ الخنازير. وكان آرني يُصغي بعينينَ مُتَّسِعتَين ويزعَقُ مُتجاوِبًا.

عندَ صوتِ بوب العجوز، ضجَّت الغُرفة بالحياة. لقد رجَعَ كلارك من المدينة. ولم تكُن مارتي قد توقَّعت رجوعه قبلَ ساعة. فقامت بسُرعة والتفتت إلى السَّاعة لترى هل غلِطَت في قراءة الوقت. لا، بل كان الوقتُ ما يزالُ باكرًا.

وثَبَ اكْلار من مكانه على البِساط، هاتفًا: "بابا رجَع!" وقد ترك

كُتَلَ بنائه تسقطُ حيثُ أمكن، غيرَ مُبالٍ بالضَّرَر الذي حلَّ بأحصِنة القشِّ وأبقاره.

بدأت مارتي تُناديه كي يرجِعَ ويجمعَ اللَّعُب، ولكنَّها ما لبِثَت أن غيَّرت رأيَها. ففي وسعه أن يجمعها لاحقًا حينَ يأتي لِتَناوُل العشاء. لقد كان مُهِمًّا بالنِّسبة له- وإلى كلارك- أن يستقبِلَ باباه الآن.

كذلك مِسي أيضًا، وهي تحمِلُ الهُرَيرةَ المُدَثَّرة بحِرص، توجَّهَت إلى الباب.

وفيما اكْلار يركضُ عبْرَ المطبخ، صاحَ: "لا شكَّ أنَّ آرني حزين!"

فاضطُرَّت مارتي لأنْ تُناديَ وراءه حتَّى يسمع: "ماذا تعني؟"

ردَّ الصَّبيُّ الرَّاكض من فوقِ كتفِه: "لا يقدرُ أن يركُض!" وما لبِثَ أن توارى وانسفَقَ البابُ وراءه.

ابتسمَت مارتي وتوجَّهَت إلى آرني المتروك وحدَه الآن على البِساط.

وإذ شالَتِ الطِّفل، سالَته: "أأنتَ حزين؟"

لم يبدُ آرني حزينًا...ربَّما ارتبَكَ قليلًا حِيالَ الاهتياج المُفاجئ حَوالَيه، ولكنَّه كان مسرورًا من النَّواحي الأُخرى. فقد انتشرَت على وجهِهِ ابتسامةُ سَعادة. وقبَّلَت مارتي خدَّه ثُمَّ مشَت إلى نافذة المطبخ.

كانت قد توقَّعت أن ترى اكْلار ومِسي مُتطفِّلَين بِرَكبةٍ مع كلارك إلى الحظيرة، ففاجأها أنَّ الثَّلاثةَ كانوا صاعِدينَ على الممرِّ إلى البيت مُتَرافقِين. وكان الصَّغيران يقفِزان بخِفَّةٍ برِفقةِ أبيهما، مُثَرثِرَين بجلَبة.

بدا كلارك أيضًا مُتأثِّرًا ومُتحمِّسًا. فمشَت مارتي نحوَ الباب لِتُلاقيَ المجموعة.

هتَفَ كلارك تمامًا: "خبَرٌ جيِّد!" مُمسِكًا بها من خَصرِها ومُدَوِّمًا بها وبالطِّفلِ معًا في أنحاء المطبخ. وقد تمسَّكَت مارتي في إحكامٍ بآرني الذي كان مُستمتِعًا بالأمر كلِّه استِمتاعًا بالغًا.

ولمَّا التقطَت نفَسَها، قالت: "حُبًّا بالله، كلارك! ماذا جرى؟"

فضحِكَ كلارك وشدَّها إلى صدره، وتشبَّثَ آرني الصَّغير بقبضةٍ من قميصِ أبيه.

وقال كلارك: "عندي خبَر عظيم. لقد حصلنا على مُعلِّم".

"مُعلِّم!"

"نعَم! وعندَما يأتي الخريف، ستكونُ تلك المدرسةُ الصَّغيرة هُناك ضاجَّةً وعاجَّةً بتَعلُّم الكُتب وقَرعِ الجرَس. أتسمعينَ هذا، يا مِسي؟" ثُمَّ توقَّف لِيَشيلَ البنتَ الصَّغيرة ويُرجِّحَها دائريًّا.

وكرَّر: "لقد حصلنا على مُعلِّم. عندما يأتي الخريف، يُمكِنُكِ أن تذهبي إلى المدرسة، كآنسةٍ كبيرة تمامًا".

فاحتجَّت مارتي ضاحكةً: "الأوانِسُ الكبيرات لا يذهبنَ إلى المدرسة". ثُمَّ تمسَّكَت بذراع زوجها، وهي تكادُ أن تنفجرَ من حُبِّ الاستِطلاع. "آهِ كلارك، كُفَّ عن سماجَتِك وأخبِرنا بكُلِّ شيء عن الأمر! أُوه، إنَّه خبرٌ رائعٌ حقًّا. فكِّري في هذا تمامًا، يا مِسي : مُعلِّمٌ

لمدرستكِ! أليس هذا هو أحسَنَ خبَر؟ مَن هو، كلارك، ومن أينَ هو؟"

"إنَّه مُعلِّمٌ اسمُه الأُستاذ وِلبُر وِتِل، وهو من مدينةٍ مُمتازة هناك في الشَّرق- لا أستطيعُ الآن أن أتذكَّر أيَّةُ مدينة هي- ولكنَّه مُمتلئٌ عِلمًا بالفِعل. ما زال يُعلِّم منذُ ثماني سنين حتَّى الآن، إلَّا أنَّه أراد أن يرى الغربَ بعَينيه".

دبَّتِ الحياةُ في مِسي من جديد، وصاحت: "عظيم! عظيم!" مُصفِّقةً بيدَيها، مُنضمَّة بوضوحٍ إلى موجةِ التأثُّر والتَّحمُّس. "سأتمكَّن من الذَّهاب إلى المدرسة. سوف أقرأ وأرسُمُ صُوَرًا وأقوم بكُلِّ شيء".

قال اكْلار: "وأنا أيضًا".

فقالت مِسي بإصرار، بأُسلوبِ أُختٍ كُبرى: "ليس أنت، اكْلار. أنتَ صغيرٌ جدًّا".

وردَّ كلار مُعترِضًا: "ليس أنا! إنَّني كبيرٌ مِثلُكِ تقريبًا".

لم تكُن مارتي مُتيقِّنةً أينَ كان الجِدالُ سينتهي، لو لم يتدخَّل كلارك.

قالَ مُعزِّزًا اكْلار: "مهلًا! سوف تذهب أنت إلى المدرسة بكلِّ تأكيد، ولكنْ ليس الآن. أُريدُ منك أنت تُساعِدُني في حلْبِ الأبقار والقيامِ بِالمَهامِّ مُدَّةً من الزَّمَنِ بَعد. ربَّما في غضون سنتَين سوف أتمكَّن من الاستِغناء عنك، عندما يصيرُ آرني أكبرَ قليلًا ويُمكِنه أن يُساعِدَ باباه".

اقتنعَ اكْلار. فلتذهب مِسي إلى المدرسة. إنَّه سوف يُضحِّي إلى حين، ما دام أهلُه يحتاجون إليه في البيت.

كان صعبًا أن يُسَيطَر على الجَلبة التي أثارها الخبَر، ولكنْ أخيرًا وضعَت مارتي آرني على كُرسيِّه، وفي يدِه كسرةَ خُبزٍ يَقضِمُها. وخرجَ اكْلار مع كلارك للاعتِناء بالأحصنة وتأديةِ المهامّ. وحلَّت مِسي دِثارَ هُرَيرَتِها، مُفسِّرةً بجِدِّيَّة أنَّها لن تتمكَّن في ما بعد من أن تلعَب بهذا المقدار. فهي فتاةٌ كبيرةٌ الآن، وسوف تُداوِمُ على الذَّهابِ إلى المدرسة. ثُمَّ شرَعَت في إعدادِ فُسطانِها الأفضل، وجواربها النَّظيفة، وحذائها الذي تنتعِلُه أيَّامَ الأحَد...قبلَ الأوان بنِحوِ خمسةِ أشهُر ونصف فقط.

ابتسمَت مارتي حِيالَ تحضيرات مِسي الجادَّة، ومضَت تُعِدُّ العشاء، وفي قلبها ترنيمة. ففي خريفِ هذه السَّنة، سوف تكون لهم مدرستُهم الجديدة. وسوف تتلقَّى مِسي التَّعليمَ الذي طالَما تاقت إليه. فهل تكونُ نانْدري وكلاي محظوظتَين بالمِثل؟ وعدَت مارتي نفسها بأنَّها ستبذِلُ كلَّ ما في قُدرتها لترى ذلك حاصلًا.

٦

طِفلُ وَنْدا الجديد

أشرقَت شمسُ نِيسانَ المُدفئة على الأرض، مُذيبةً ثلجَ الشِّتاءِ ومُطلِعةً الزَّعفرانَ والهِندِباءَ البرِّيَّة. فابتهجت مارتي بشمس الرَّبيع، مُفكِّرةً قبلَ الأوان في الأيَّام التي ستقضيها وهي تزرعُ حديقتها وتعتني بِزُهورها الصَّيفيَّة.

وابتهجَ الأولاد أيضًا بأن يقضوا وقتًا في الخارج تحت أشِعَّةِ الشَّمس. وقد لازَمَ اكْلار أباه كلارك كُلَّما كان ذلك ممكنًا، واستمتعَت مِسي بإلباس آرني الصَّغير ثيابًا مُدفئة واصطحابه خارجًا كي يلعب. كان كلارك قد صنَعَ عربةً صغيرة من خشَب ذاتَ دَواليب، وكانت مِسي تجولُ بأخيها الدَّارج داخِلَ العرَبة في أنحاءِ الفِناء. وعندما تتعب هي- وآرني- من ذلك أخيرًا، تُعيدُه إلى مارتي وتركُضُ إلى الخارج لِتَنكُشَ هُنا وهُناك في بُقعةِ تُرابٍ مَحميَّة بقُربِ البيت سمَّتها "حديقتي". كانت مارتي قد أعطتها قليلًا من البُزور، وقد طلَعت فعلًا بعضُ النَّباتات الخضراء الصَّغيرة حيثُ كانت لِفتةٌ أو خَسَّةٌ آخِذةً في الظُّهور. فاستصعبَت مِسي ترْكَ النَّباتات وشأنَها، وكثيرًا ما حثَّت نفسَها

على نقبها للاطِّلاع على أحوالها. وكان من شأن "حديقتها" أن تكون أكثرَ تقدُّمًا بكثير لولا العرقلاتُ الدَّوريَّةُ من بُستانيَّتِها المُوَسوَسة كثيرًا.

همَّت مارتي بأن تسأل كلارك هل يقلب التُّربةَ في الحديقة الكبيرة، ولكنَّها عادت فحذَّرت نفسها من التَّورُط في استِعجالٍ مُفرِط. فاللَّيالي ما زالت باردة، وقد يُتلِفُ الصَّقيعُ النَّبتاتِ الباكرة. مع ذلك استصعبَت تقريبًا أن تكون صابِرة، شأنُها شأنُ مِسي.

وفي أثناء ذلك، استغلَّت مارتي كلَّ دقيقة مُتاحة في حبْكِ شالَي أطفال: واحد لطفل وَنْدا الجديد، وواحد لطفل سالي آن. وقد أحبَّت مِسي أن تُشاهِدَ الشَّالَين يتشكَّلان، وترجَّت أن تُضيفَ بِضعَ قُطَبٍ من شُغلها. ولمَّا اضطُرَّت مارتي لأنْ تفُكَّ القُطَبَ الزَّائدة، زوَّدَتِ الطِّفلةَ بصُوفٍ وصنَّارتَين لأجل مشروعها الصَّغير الخاصّ. وأكَّدَت مِسي أنَّه سيكون كنزةً لِهُرَيرتها.

ذاتَ مساء، فيما كانت مارتي تنتظِرَ ريثَما تُسلَقُ البَطاطا لأجل العَشاء، مُستفيدةً من الوقت لإضافة بِضعِ قُطَبٍ إلى الشَّال الأخير، انطلَقَ بوب العجوز مُحدِثًا جلَبةً رهيبة في الخارج. وما كانت مارتي قطُّ قد سمِعَته مُهتاجًا هكذا بسبب شيءٍ ما. فنظرَت إلى الخارج من النَّافذة لِتَرى راكبًا مُقبِلًا، وفَهِمَت لماذا كان الحيوانُ الأليفُ مُنفعِلًا جدًّا. إذ لم يسبِق لها قطُّ أن رأت مِثلَ ذَينِكَ الاهتياجِ والعزم باديَين من مُمتطي حِصان. وكان مُنحَنيًا جيِّدًا فوقَ الحيوان، مستعملًا طرَفَ

العِنان كَكُرباج، وضاخًّا بِساقَيهِ كما لو كان يبتغي أن يبذِلَ الحصانُ مزيدًا من السُّرعة. ولمَّا كان الحِصانُ قد جُلِدَ فعلًا، فإنَّه كان يتنفَّس بصعوبة، وبدا واضحًا أنَّه يندفِعُ إلى الأمام بكُلِّ عضَلةٍ فيه.

وإذِ اندفَعَ الرَّاكِبُ عبْرَ البوَّابة واعتدل، استطاعت مارتي أن ترى أنَّه كان كامِرُن مارشال.

ظهَرَ كلارك من مكانٍ ما، والتقطَ طرَفَ العِنان إذ طرحَهُ الرَّجُلُ له وانزلَق إلى الأرض. لم يكَد يقوى على الوقوف، واستنَدَ على دَرابزون السِّياج. وثبَت أفكارُ مارتي إلى وَنْدا، وغمَرَها القلَقُ فورًا. فاندفعَت إلى خارج البيت، ولاقت كلارك وكام داخِلَين.

نظرَت إلى كلارك بسؤالها غيرِ المُفصَح عنه، ولا بُدَّ أنَّه فهِمَ، فأجابها بسُرعة ليُسكِّنَ مَخاوِفَها، قائلًا: "وَنْدا بخَير. لقد جاءها المَخاض، والطَّبيبُ هُناك، ولكنَّها مُنزعجة قليلًا، وهي تُريدُك. سأشُدُّ لكِ الحِصانَين إلى العرَبة، وفي وُسعكِ أن تصطحِبي كام إلى بيته، وأنا سأُوصِلُ حِصانَه في ما بعد. إنَّ الحصان يحتاج إلى راحةٍ الآن. لقد ذهَبَ إلى المدينة لإحضار الطَّبيب أوَّلًا، والآنَ جاء إلى هُنا".

ألقَت مارتي نظرةً على الحيوان المُنقَّطِ بالزَّبَد، والمنهوكِ جدًّا كما بدا. إذًا، هذا كان حصانَ كام مارشال المُمتاز! لم يبدُ واعِدًا جدًّا تلكَ اللَّحظة، ولكنْ رُبَّما يتمكَّن كلارك من رَدِّ شيءٍ من الحيويَّة إليه بإعطائه عَلفةً وتدليكةً جيِّدة.

وبينَما كلارك يقتادُ الحيوانَ المُتعَبَ المُتَرنِّح مُبتَعِدًا، قال: "سأرجِعُ حالًا مع الحِصانَين".

تكلَّمَت مارتي إلى الرَّجُل الذي كان ما يزالُ مُحاوِلًا أن يلتقِطَ أنفاسَه: "تفضَّلْ إلى الدَّاخل. تُعوِزُني دقيقةٌ واحدة فقط لأجمَعَ أشياءَ قليلة".

فلحِقَ بها، وإن كانت قد تساءلت أهو مُنتبِهٌ حقًّا إلى ما حولَه.

وجَّهَته مارتي قائلةً: "اقعُدْ هُنا". ودفعَتِ البطاطا المسلوقة إلى مؤخَّر الموقد. كان اللَّحمُ في الفُرن طيِّبَ الرائحة، وجعلَها تشعرُ بالجوع. ثُمَّ سكبَت فِنجانَ قهوة وقدَّمَته إلى كامِرُن.

وسألَته: "أتُريد قِشدةً أو تحلية؟"

فهزَّ رأسه نفيًا.

وقالت مارتي: "اشرب هذا ريثَما أستعِدُّ"، مُتسائلةً أكان بالفعل مُعتادًا أن يشرب القهوة صِرفًا أم لم يُكلِّف نفسه التَّفكيرَ في ذلك.

ثُمَّ تركَته يرشُفُ من الفِنجان فيما هُرِعَت إلى غُرفة النَّوم وباشرَت وضْعَ أشياءَ قليلةٍ في حقيبة. ستُضطرُّ إلى اصطحاب آرني، إذ رُبَّما تخطَّت السَّاعاتُ وقتَ إطعامه. أمَّا الصَّغيران الآخران، فستتركُهما في عُهدة أبيهما.

حينما ضبَّت على ما تحتاجُ إليه وألبسَت ابنَهما الصَّغير ثيابًا مُدفئة، كان كلارك قد حضر إلى المطبخ وأخذ يُحادِث كامِرُن. ولاحظت

مارتي أنَّ كام قد تجرَّع القهوة. فعسى أن يُبقيَه ذلك على الأقلِّ واقفًا على قدَمَيه.

ساعدَها كلارك على الصُّعود إلى العربَة، حيثُ حطَّت آرني الصَّغير في صندوقٍ مملوءٍ قشًّا، كانا يحتفظان به في زاوية من العرَبة خصوصًا لأجل توفيرِ مَهدٍ للصِّغار. ثُمَّ احتلَّت مكانها على المقعد، وناولَها كلارك الزِّمام.

لم يعترِض كامِرُن على تَولِّي مارتي قيادةَ الحِصانَين. فشعرَت بالفرَج، إذ علِمَت غريزيًّا أنَّ كلارك، في حالةِ قلَقِ كام الحاضِرة، سيخشى أن يُساقَ الحِصانان بشِدَّةٍ لا داعيَ لها. كان الطبيبُ حاضرًا هناك فعلًا، ولذلك تستطيعُ مارتي أن تسوقَ بتَعقُّل. ولكنَّها- حتَّى رُغمَ معرفتها بذلك- حثَّتِ الحِصانَين على التَّقدُّم، وأبقَتهما سائرَين بسُرعةٍ لا بأسَ بها. لقد طلبَت وَنْدا حضورها، وهي نوَت أن تكونَ هناك بأسرَعِ ما أمكنها.

لمَّا وصلا إلى كوخ آل مارشال ذي الغُرفة الواحدة، كانَ رَوعُ كامِرُن قد هدأ فبدا من جديدٍ مُسيطرًا على نفسه.

ساعَدَ مارتي على النُّزول من العربة، وناوَلَها آرني، ثُمَّ وضع حقيبةَ أمتِعَتها على الأرض، واعدًا أن يَحضِرَها إلَيها في الدَّاخل لدى رجوعه من إراحة الحِصانَين.

أسرعَت مارتي إلى داخل البيت، حيثُ وضعَت آرني على الأرضيَّة

فوقَ معطفها، مُذكِّرةً نفسَها بأن تهتمَّ لاحقًا بأن يُحضَرَ لآرني الصُّندوق، مع حَشيَّةِ القشِّ التي فيه، من العرَبة.

عبرَت إلى السَّرير عندَ الطَّرَف البعيد في الغُرفة الواحدة. وقلَّما انتبه الطَّبيبُ إلى قدومها، لأنَّ وَنْدا كانت تحظى بكامل انتِباهه.

قالت مارتي همسًا: "هل لي أن أتكلَّمَ إلَيها؟"

أجاب: "تقدَّمي. هدِّئيها إذا استطعتِ".

أومأت مارتي برأسِها مُوافقةً. ووجدَت لها مكانًا عند رأسِ السَّرير، ثُمَّ نظرَت من عَلُ إلى وجه وندا المشحوب.

قالت مارتي لصديقتها برِقَّة: "أنا هُنا".

فحاولَت وَنْدا إظهارَ ابتِسامة، وقالت بصوتٍ ضعيف. "جئتِ؟ أنا مسرورة جدًّا. أنا مُرتاعة، مارتي. ماذا لو...".

ولكنَّ مارتي لم تدعْها تُكمل، بل قالت مُطَمئنةً: "كلُّ شيءٍ يجري حسنًا تمامًا. الطَّبيبُ هُنا. لن يطولَ الوقتُ الآنَ حتَّى تلِدي ذلك الابنَ الوسيمَ الذي طالَما انتظَرتِه...أو تلكَ الابنةَ الجميلةَ المُنتظرة. ما عليكِ إلَّا أن تُهَوِّني عليكِ وتُصغي بانتباه إلى ما يطلبُ الطَّبيبُ منكِ أن تفعليه. إنَّه يعرِفُ كلَّ ما يتعلَّقُ بتوليد الأطفال".

بدَت وَنْدا غيرَ مقُتنِعة، ولكنَّها قالت: "سأُحاوِل".

"جيِّد! والآن سأُحضِّرُ لزوجكِ وللطبيب لُقمةَ عشاء. تذكَّري أنَّني هُنا تمامًا في حالِ احتجتِ إليَّ".

أومأت وَنْدا برأسها قليلًا، ثُمَّ أغمضت عينَيها من جديد.

شدَّت مارتي على يدها وتركَتها لترى ماذا يُمكن أن تجد لِيُرافِقَ اللَّحمَ ورغيفَ الخُبز الكبيرَ اللذين أحضرَتهما لِعَشائهم. وكانت شاكرةً لأنَّ آرني استمرَّ في نومه الهنيء. ثُمَّ دخل كامِرُن راجعًا من الحظيرة، ولكنَّه بدا راغبًا في البقاء بعيدًا قدْرَ الإمكان عن زوجته وعن الطَّبيب في طرَفِ الغُرفة الآخر.

حضرَ العشاء، ولكنَّ كام لم يبذل أدنى مُحاوَلة لأكلِ شيءٍ ما. أمَّا الطَّبيب فاستقطعَ لحظةً من مُراقبتهِ لِيَجرعَ فِنجانَ قهوة ويأكُلَ سندويشَ لَحمٍ بارد. وتسنَّى لمارتي أن تقرأ شيئًا من الارتياب في وجهه. فأثارَ ذلك أعصابَها وجعَلَها تشعُرُ بالخَرَق والارتباك في أثناء تنظيفها لِلطَّاولة وغَسلِها لِلصُّحون.

بدَتِ الغُرفة المُفردة مُكتظَّةً بالأشخاص والقلَق. وغادر كامِرُن لِيَمشي ذَهابًا وإيابًا تحت النُّجوم. فتيسَّرَت لمارتي لحظةٌ كي تهمِسَ باستِفسارٍ في أُذن الطَّبيب.

وأجاب الطَّبيبُ بصِدق: "كان ينبغي أن تكونَ قد ولدَتِ الآن. لا يُعجِبُني الأمر. فالطِّفلُ صغيرُ، وهو بالتأكيد لا يحتاج إلى ذلك الجهد المُضاعَف ليأتيَ إلى العالم. وأخشى أن يُضعِفَه الوقتُ الإضافيُّ. إنَّني مُفكِّرٌ في الإتيان بالسَّيِّدة غراهام. آمُلُ أن أكون مُخطئًا، ولكنَّني أخشى أنَّه عندما يَصِلُ الطِّفل سنُضطرُّ إلى بذل كلِّ ما في وسعنا لإبقائه

معنا".

فرفعَت مارتي صلاةً صامتة، وعيناها مُغرَورِقتان.

وهمسَت للطَّبيب: "سأُرسِلُ كام".

ثُمَّ أزالت بانتِباهٍ كلَّ أثَرٍ من دموعها. فما كان من داعٍ لإخافةِ كامِرُن بَعد. وخرجَت إلى قلب اللَّيل البارد، فوجدَته جالسًا، ورأسُه بين يدَيه، على خشَبة التَّهريم.

قالت مارتي: "كام!" فرفعَ نظرَه مذعورًا نوعًا ما.

"يقولُ الطَّبيب إنَّه يودُّ أن تكونَ السَّيِّدة غراهام هُنا، لِتَتوافرَ يدانِ إضافيَّتان فِعلًا، بحيثُ يُتاحُ لشخصٍ تقريبًا أن يهتمَّ بَونْدا وللآخَرِ أن يهتمَّ بالطِّفل عندما يأتي. يحبُّ الأطِبَّاءُ أن يشتغلوا مع مُعاوِنات، وأنا لا أعرِفُ أيَّ شيءٍ عن توليد الأطفال. في وسعك أن تأخُذَ الحِصانين. يقولُ الطَّبيب إنَّ هُناك مُتَّسَعًا من الوقت". وقد حاولَت إبقاءَ نبراتِها واقعيَّةً بقدْر الإمكان.

هبَّ كامِرُن واقفًا، وقد بدا عليه الارتياحُ لوجود شيءٍ مُحدَّد يمكن أن يفعله.

رجَعَت مارتي إلى المنزل وأصغَت إلى الحِصانَين حتَّى يُغادِرا الفِناء.

وفكَّرَت: **جيِّدٌ أنَّه يسوقُ بتعقُّل**، فيما مضَت لإطعام آرني الصَّغير.

لمَّا وصل كامِرُن والسيِّد غراهام، تمكَّنت السيِّد غراهام من إراحة الطَّبيب ريثَما تناول فِنجانَ قهوة، ثُمَّ خرَجَ ليتمشَّى قليلًا حولَ فِناء

المزرعة.

صنعَت مارتي مزيدًا من القهوة، وآسَت وَنْدا، ووضعَت آرني كي ينامَ ليلًا. ثُمَّ نظرَت إليه مُغطًّى بإحكام داخِلَ صُندوقهِ المملوء بالقشّ فحسدَته، إذ لم يتوافر أيُّ مكان لأيِّ شخصٍ آخر كي يستلقي.

بعدَ ليلةِ انتظار طويلة، وبُعَيدَ سكْبِ النَّهارِ الجديد فجرَه فوقَ الأُفُقِ الشَّرقيّ، أبدى الطِّفلُ الجديدُ ظُهورَه. كانت مارتي قد ذهبَت إلى كومة الحطب لِتزوِّدَ النَّارَ بِوَقود جديد، ولدى رجوعها سمِعَت بُكاءً ضعيفًا لمولودٍ جديدٍ.

سمِعَت وَنْدا أيضًا البُكاء، وخرجَت هَمهمةٌ من شفتيَها الشاحبتين.

أعلنَ الطَّبيب: "إنَّه صبيٌّ!" بالنَّبرة الظَّافرة التي يستعمِلُها طبيبٌ في مُناسبات كهذه. ولكنَّ مارتي راقبَت وجهَه بدِقَّة كي تقرأ سيماءه. لقد رأته يمضي إلى كامِرُن، ومع أنَّه أبقى صوته مُنخفِضًا سمِعَته يقولُ للأبِ إنَّ الطِّفلَ لم يكُن قويًّا جدًّا، ولكنَّه سيبذِلُ كلَّ ما في طاقته لإنقاذه. وما كان من كام إلَّا أن هزَّ رأسَه بصمت وتهالك على كُرسيِّه.

أومأ الطَّبيبُ برأسهِ لِما غراهام كي تتولَّى شأنَ وَنْدا، ثُمَّ حمَلَ الصُّرَّةَ الهشَّة إلى الطَّاولة.

وُجِّهَت مارتي أن تُقرِّبَ الطَّاولةَ أكثرَ إلى الموقد وتبسُطَ البَطَّانيَّاتِ الصغيرةَ بحيثُ تتَّسع للطِّفل الصَّغير، وهناك عمَدَ الطَّبيب- وحقيبتُه مفتوحةٌ بجانبه- إلى شنِّ معركةٍ في سبيل الحياة ستستمرُّ ساعاتٍ عدَّة.

عرَفَت مارتي بالفِطرة أنَّ الطَّبيب كان يستَنجِد بكُلِّ جُزءٍ من تَدرُّبه، ومن العِلاج المُتاح، في مُحارَبةِ "حامِل المِنجَل" المُروِّع. وقد أخبرَها مُطْمئنًّا في ما بعد بأنَّه مرَّتينِ حسِبَ أنَّه خَسِرَ حتمًا، إلَّا أنَّ شرارةَ حياةٍ استُجدِيَت بطريقةٍ ما لتنبعِثَ داخِلَ الجسمِ الضئيل.

وهكذا كان أنَّه بعدَ ثمانٍ وأربعين ساعة، حين غادرَت مارتي والطَّبيبُ إلى بيتَيهما، بقيَ لِوَندا طِفلُها الصَّبيّ، وتكلَّمَت عينا كامِرُن بمُجلَّداتٍ عن عرفانه وتقديره. حتَّى إنَّه وعدَ الطَّبيبَ بحِصانهِ أُجرةً لأتعابه.

لبِثَت ما غراهام لقضاءِ بضعة أيَّام عندَ وَندا، حتَّى تمكَّنَت من الوقوف على قدَمَيها مُجدَّدًا. وقد أخَذَ كامِرُن بطَّانيَّتَين إلى مخزن التِّبن، حيثُ فرَشَ لنفسه، كما مدَّ حشيَّةَ رِيشٍ على أرضيَّة الكوخ لأجلِ السيِّدة غراهام.

بدا أنَّ كامِرُن تعافى من المِحنة وباتَ بالفعل يُطلِقُ تَبجُّحاتٍ عن الصَّبي الذي سيَصيرهُ ابنُه، وعنِ العظائم التي سيُنجِزانِها معًا.

رجَعَت مارتي إلى البيت مُنهَكةً جدًّا ، حتَّى لم تكَد تقوى على قِيادة الحِصانَين. فإذ تركَت دان وتشارلي العجوزين الطيِّبَين على راحتِهما، سارا في طريقهما بسُرعتِهما الخاصَّة. وقد استمتعَ آرني مُبتهِجًا بالرِّحلة من مربَضهِ المُريح في الصُّندوق خلْفَ أُمِّه.

هُرِع كلارك بِخُطًى واسعة للتَّرحيب بمارتي حينَ ساقَت إلى داخل

الفِناء، كما جاراه في ذلك ولدانِ مُتحمِّسان وحيوانٌ أليفٌ هائجٌ تقريبًا من فَرطِ الانفِعال.

قالت مارتي بصوتٍ خفيض: "إنَّه صبيٌّ، وهو عائش. يقول الطَّبيبُ إنَّه لا بُدَّ أن ينجوَ ويتعافى الآن".

وصلَت مارتي إلى سريرها مع آرني الصَّغير، حيثُ احتضنته بحنان وراحَت تُرضِعُه. لقد كان طفلًا طيِّبًا جدًّا طَوالَ الوقتِ العسير بكامله. وبعدما قبَّلَت رأسَه الطَّريَّ، استولى عليها النَّوم. فلم تسمع قطُّ كلارك إذ دخَلَ غُرفةَ النَّوم بعد قليل لِيَجِدَ الطِّفلَ الهانئ يلعَبُ بأصابعِ قدَمَيه العارية ويُبَربِرُ لنفسه والأُمَّ المُتعَبةَ نائمةً نومًا عميقًا.

٧

السَّيِّدة لارسون

أتى شهرُ نَيسانَ بحياةٍ جديدة دخلَتِ الجِوار، إلَّا أنَّه- وأسفاه!- اختطفَ حياةً أيضًا. فقد بلَغَ كلارك ومارتي في عَصرِ يوم أربِعاء ماطِر خبَرٌ بأنَّ السَّيِّدة لارسون تُوفِّيَت بهدوء في أثناء نومها.

ساوَرَ مارتي قلَقٌ شديد بسبَبِ حقيقةِ كون كلاي هي التي وجدَتها مُتَوفَّاة. وبدا كأنَّ الفتاةَ المِسكينة كان مُمكِنًا أن تُوَقَّى ذلك على الأقلّ، غير أنَّ أباها، جَد لارسون، لم يكُن في البيت حينَذاك.

تقرَّر أن تُقام الجِنازةُ في اليوم التَّالي. فغسلَت نِساءُ الحيِّ الجُثمانَ بحِرص وأعدَدنه للدَّفن، وصنَعَ رجالُ الجِوارِ التَّابوتَ الخشبيَّ البسيط الذي وُضِعَ فيه. وأخذَت مارتي واحدًا من فساتينها لِتَرقُدَ تينا لارسون فيه، كما تمكَّنَت السَّيِّدة اسْتَرن من توفير بَطَّانيَّة لِتَغشيةِ داخِلِ التَّابوت.

جعَلَ المطَرُ المُنهَمِر حفْرَ القبر مهمَّةً شاقَّة، ولكنَّ كلَّ شيء كان جاهزًا قبلَ الوقت المُحدَّد.

في السَّاعة الثانية بعد الظُّهر، شقَّت عرَباتُ المَزارع طريقها ببُطء إلى

زاوية مسقوفة من أرضِ جَد، حيثُ أُقيمَت خِدمةُ دَفنٍ قصيرة، تولَّى أمرَها كلارك وبَن غراهام.

وجِعَ مارتي قلبُها، وبكَت من أجلِ الفتاتَين اليافِعتَين المُتَلاصقتَين تحتَ المطر وهُما تُشاهِدان مَصدرَهُما الوحيدَ للمحبَّة والعزاء يُدَلَّى داخِلَ التُّراب. وبعدَ حديثٍ مهموسٍ مع كلارك في أعقاب خِدمة الدَّفن، استجمَعت شجاعتها وتجاسرَت على التَّقدُّم إلى جَد باقتراحِ ذهاب الفتاتين معها إلى بيتها لِتَمكُثا بضعةَ أيَّام "ريثَما تنجلي الأُمور".

فأبلغَها: "لا داعي! في البيت أشياءُ كثيرةٌ تُبقي أفكارَهُما وأيديَهُما مشغولة".

أحسَّت مارتي غضبًا يفورُ بحِدَّة في داخلها، وأشاحَت وجهَها بسُرعة منعًا للتَّعبير عنه. ما كانت لِتَنسى وعدها لِتينا لارسون، وستُخطِّط وتعمل ما في وسعها للوفاء به...ولكنْ كيف سيُنجَزُ ذلك، يا تُرى؟ سوف تبدأ المدرسة في الخريف، وهاتان البِنتان يجب أن تكونا هناك بطريقةٍ من الطُّرُق. ستُصلِّي أكثرَ، وقد علِمَت أنَّ كلارك سيُشارِكُها في الدُّعاء. فإنَّ لدى الله طُرُقًا عجيبة لاستجابة الصَّلاة، تفوقُ تصوُّرَ المرء.

عضَّت مارتي شفَتَها لكفِّها عن الارتجاف، ومسحَت الدُّموعَ المُمتزِجة بالمطَر على خدَّيها، ثُمَّ مضَت لتنضمَّ إلى كلارك، حيثُ كان ينتظِرُها في العرَبة.

هَيمنَت وفاةُ السَّيِّدة لارسون على ذِهن مارتي في أثناء الأيَّام والأسابيع التَّالية. ولم تستطع أن تتخلَّصَ من عِبءٍ ثقيل بشأنِ البنتَينِ المتروكتَين الآن بِلا أُمٍّ، والمُرهقتَين بأبٍ لم يعرِف أن يُدبِّر أُمور الحياة في أحسنِ الأوقات. لقد علِمَت أنَّ المِسكينتَين الصَّغيرتَين كانتا تُواجِهانِ خَسارةً أكبرَ من أن يتحمَّلها شخصٌ بالغ.

زارَت مارتي الفتاتَين مرَّاتٍ عدَّة في الأيَّام التي تلَتِ الجِنازة، حامِلةً مخبوزاتٍ طازجةً وخُضَرًا ولحمًا باردًا. وما زال قلبُها يَوجَعُها داخِلَ صَدرِها كُلَّما فكَّرَت فيهما. فقرَّرت أنَّ زيارةً لِما غراهام كانت ما تحتاجُ إليه. إذ كان مُمكِنًا أن تُساعِدَها السيِّدة غراهام على التَّفكير مليًّا في هذا الأمر وتطلُعَ بِما من شأنه أن يُعينَها على إقناعِ جَد العنيد بأن يسمح للفتاتَين بما يحقُّ لهما وتحتاجان إليه من تربيةٍ وتَعلُّم.

باتت مارتي تعرِفُ الفتاتَين على نحوٍ أفضلَ جدًّا ممَّا تيسَّر لها في أثناء أيَّام مرَض السَّيِّدة لارسون. وقد كانت نانْدري، كُبرى الاثنتَين، هادئةً ومُنطويةً على نفسها. فخشِيَت مارتي أنَّه حتَّى الآنَ رُبَّما يكونُ الأوانُ قد فات لمُساعدة نانْدري على الخُروج من عُزلتها وحُزنِها الحديث لِتَتطوَّر إلى آنِسةٍ شابَّة قادرة على التَّعبير عن ذاتها وعلى احترام ذاتها. أمَّا كلاي الصُّغرى فكانت كزهرة صغيرة احتُفِظَ بها بعيدًا عن أشعَّة الشَّمس. وقد خالجَ مارتي يقينٌ بأنَّ كلاي، إذا ما أُتيحت لها فُرصة، يمكن أن تبلُغَ طورَ الإزهار فورًا. فإنَّها بالتدريج فقدَتِ استِحياءها حِيالَ مارتي، ولاحظَت مارتي أنَّ كلاي، رُغمَ كونِها

الصُّغرى، هي التي كانت تتولَّى المُبادرةَ في الحديث أغلبَ الأحيان.

عقَدَت مارتي عزمها بإصرارٍ ثابت. عليها أن تحصُلَ بطريقةٍ ما على تلك الفُرصة الموعودة لهاتَين الفتاتَين. وعندَ الفَطور فاتحَت كلارك بخُطَّتها.

"ما دام النَّهارُ جميلًا اليوم، فكَّرتُ أن أُعطيَ الصِّغارَ بعضَ الهواء وأقومَ بزيارةٍ لسيِّدة غراهام".

فردَّ حالًا: "فِكرةٌ جيِّدة. ليست التُّربةُ جافَّةً كِفايةً للزَّرع اليوم. في وُسعكِ أن تأخُذي الحِصانَين. سأقضي النَّهار في تنظيفِ مزيدٍ من حَبِّ البِذار، حتَّى إذا جفَّ كفايةً نزرَعُ الحقلَ الأسفل في وقتٍ لاحق هذا الرَّبيع. سآتي إليكِ بالحِصانَين عندما تصيرين على استعداد".

أجابت مارتي: "ينبغي أن يكونَ كلُّ شيء قد سُوِّيَ في غضونِ ساعة. سيكون حسنًا بالفِعل أن أجريَ دردشةً مع ما غراهام. لقد عادت إلى بيتها من الاهتمام بِوَندا وطفلها منذُ مُدَّةٍ غير طويلة. سيُتاحُ لي أن أسمعَ كلَّ شيء عن أحوال ذلك الصَّبيِّ الجديد".

فقال كلارك حالًا: "وأيضًا...". ناظِرًا بتركيزٍ إلى وجهها.

"وأيضًا...رُبَّما أُتيحُ لها فُرصةً لِتُحدِّثَني عن طفل سالي آن، ذاك الآتي. يُخيَّلُ إليَّ أنَّها تزدادُ توتُّرًا بالفعل من انتِظارِ ذاك الطِّفل، وقد تأخَّرَ مجيئُه أصلًا".

فبادَرَ كلارك قائلًا من جديد: "وأيضًا...".

نظرَت مارتي إليه. لقد عرَفَ إذًا أنَّ أيًّا من هذين السَّبَبين لم يكُنِ الغرَضَ الفِعليَّ لِتَعريجها على السيِّدة غراهام. فتنهَّدَت، وأجابت بصراحة: "أُريدُ أن أتكلَّم معها عن فتاتَي آل لارسون. كلارك، ينبغي فعلًا أن يُفعَلَ شيءٌ ما بشأنهما، ولكنَّني لستُ ذكيَّةً كِفايةً كي أهتديَ إلى ذلك".

أزاحَ كلارك طاسةَ حسائه الفارغةَ، وقامَ لِيَتناولَ رَكوةَ القهوة. وقد حطَّ يدًا على كتِف مارتي إذ صبَّ لها فِنجانًا ثانيًا، ثُمَّ ملأ من جديد فِنجانَه وأعاد الرَّكوة إلى الموقد.

ذلك هو الأمرُ إذًا، هكذا بدَت عيناه قائلتَين، ولكنَّه رشَفَ القهوة صامتًا.

وأخيرًا تكلَّم. "جَد لارسون عنيدٌ قليلًا. يبدو أنَّه ما لم يقتنِعْ بأنَّ فتاتَيهِ تحتاجان إلى تلك التَّربية، فليس من أمَلٍ كثير بأن يُغيِّرَ رأيَه أحَد".

فقالَت مارتي بِحَسرة: "علِمتُ ذلك. يا لَيتَني كنتُ أملك طريقةً ما لإقناعه. أتعتقِدُ أنتَ، إذا تكلَّمتَ إليه رَجُلًا مع رَجُل، يُمكِنُ أن تُساعِد؟"

هزَّ كلارك رأسَه نفيًا. "لم يُصغِ جَد قطُّ كثيرًا إلى أقوالي".

فقالت مارتي مُستاءَةً: "أمرٌ في غاية الأنانيَّة والدَّناءة. ذلك دنيءٌ حقًّا".

"لا تنسي أنَّ الفتاتَين تُحضِّران طعامَه وتغسِلان ثيابَه".

"ما زالَ الأمرُ مُفتقِرًا إلى الإنصاف".

طرَفَ كلارك بعَينَيه. "لعلَّ كلَّ ما لدَيكِ هو أن تُصلِّي طالبةً أن يبعث الرَّبُّ سيِّدةَ لارسون جديدةً".

لم تحسَب مارتي ذلك مُضحكًا، وردَّت حالًا بارقةَ العينَين: "ما كنتُ لأُصلِّي لأجل ذلك بشأن أيَّة امرأة، مهما كان شعوري تُجاهَها سيِّئًا".

اكتفى كلارك بالابتسام، ووقف على قدمَيه، وقال: "لا أعرِفُ أيَّ سبيلٍ آخر لِلحَلّ. سأُجهِّزُ الحِصانَين. هيا يا اكْلار، لنذهبْ ونُعِدَّ الحِصانَين. وأنتَ أيضًا، يا آرني، تعالَ مع پاپاك".

استجابَ الصَّبيَّان كِلاهُما للعرض بابتهاج، اكْلار بقفزةٍ نحو الباب، وآرني مادًّا ذِراعَيه كي يُحمَل.

سارعت مارتي لتُنظِّفَ الطَّاولة وتغسِلَ الصُّحون. وقرَّرت مِسي أنَّ الدَّورَ كان لها في الغَسْل، فبطَّأتِ العمليَّة، ولكنَّ مارتي علِمَت أنَّ الأمرَ يستحقُّ الوقتَ الإضافيَّ كي تُشجِّعَ البِنتَ الصَّغيرة في استِعدادها للمُساعدَة.

لمَّا اقتربوا من بيت آل غراهام، بدا واضحًا أنَّ السيِّدة غراهام سُرَّت بلقائهم. فقد استعجَلَت إدخالَهُم إلى المنزل، حيثُ رحَّبَ أولادُها بصِغارِ آل ديڤِس واصطحبوهم حالًا كي يلعبوا. وتطوَّعت نَلي لإلهاء

آرني الصَّغير، فقبِلَت مارتي عرْضَها شاكرةً.

قعدَت السيِّدة غراهام ومارتي إلى فِنجانِ قهوة، وكعكٍ بِالجَوز ساخِن، ودردشةٍ طال انتِظارُها.

سألت مارتي: "كيفَ حالُ صبِّي وَنْدا الجديد؟"

"ضئيل، ولكنَّه صغيرٌ مُفعَمٌ بالنَّشاط والحيويَّة. إنَّ لدَيهِ بالحقيقة كثيرًا من الكِفاح".

قالت مارتي مُبتَسِمة: "ماذا سمَّوه أخيرًا؟" وقد تذكَّرَت لائحةَ الأسماءِ الطويلةَ التي منها كان كام ووَنْدا يُحاوِلان أن ينتَقِيا.

"أقرِت كامِرُن دي وِنتُن جان".

"رِزمة كبيرة لِحُزمة صغيرة!"

"هكذا يبدو، ولكنْ رُبَّما يُناسِبُه يومًا ما".

فقالت مارتي بِعَطف: "يَسرُّني أنَّه في حالٍ حسَنة. كان من شأن وَنْدا المسكينة أن تُسحَق لو فقدَت طِفلًا آخر".

وأومأت السيِّدة ما برأسِها مُوافقةً.

"كيف سالي آن؟"

فهزَّت السيِّدة ما رأسَها: "بخير، ولكنَّها مُتعَبةٌ من الانتَظار يقينًا. تعلَمين كيف يمكن أن يبدوَ الأمرُ بلا نهاية. عرَّجتُ عليها لِأراها أمسِ. حتَّى إنَّها فرَشَت بَطَّانيَّاتٍ في المهد الذي صنعه جايسون، وهي تتوقُ حقًّا أن تملأ ذلك السَّريرَ الصَّغير. ومع ذلك، لا أعتقد أنَّ الوقت

ثقيلُ الوطأة عليها كما هو على أُمِّها. ما حلَمتُ قطُّ بأنَّني قد أغدو يومًا ضحيَّةَ كثيرٍ من الارتباك والقلَق بشأنِ مجيءِ طِفلٍ مُنتظَر".

"هل تَنوينَ أن تُوَلِّديها أنتِ؟"

"بحَقِّ السَّماء، لا! سنأتي بالطبيب يقينًا لأجلِ الطِّفل العتيد. أمرٌ مُضحِك أنَّه، بعدَما ولَّدتُ أطفالًا كثيرين جدًّا في أيَّامي، يجعلُني مُجرَّدُ التَّفكير في ذلك الطِّفل أشعُرُ بالارتِعاش كحِصانٍ ابنِ سنَة يُشَدُّ تحتَ نِيرٍ أوَّلَ مرَّة. لقد رتَّبْنا أن نُرسِلَ تومي لإحضار الطَّبيب لدى أوَّلِ إنذار. وسأكون مَسرورةً يقينًا حين ينتهي الأمرُ كلُّه".

أومأت مارتي برأسها مُوافقةً. فهي أيضًا ستكون مسرورة. وسألت نفسَها كيف يكون شعورُ المرأة حين ترى ابنتَها تُوشِكُ أن تَلِد. لا بُدَّ أن يكونَ الأمر مُفزِعًا بعضَ الشَّيء، إذ تُدرِكُ الألَم ولكنَّها لا تستطيعُ أن تُشارِكَ فيه أو تُخفِّفَ منه. وحسَبَت أنَّه حينَ يأتي دَورُ مِسي سوف تكونُ هي أكثرَ توتُّرًا بَعدُ من السيِّدة غراهام. فدفعَتِ الفِكرةَ بعيدًا عنها، وغيَّرَت الموضوع.

"سيِّدة ما، بالحقيقةِ أنَّني جئتُ من أجلِ أمرٍ آخر. أنتِ تعلَمين أنَّني وعدتُ تينا لارسون بأن أبذل كلَّ ما في وسعي لتأمين فرصة لِنانْدري وكلاي كي تتعلَّما في المدرسة. ولكن جَد...حسنًا، أخشى تمامًا أنَّه لن يسمحَ بأمرٍ كهذا. بعدَ أشهُرٍ قليلة فقط من الآن ستَفتحُ المدرسةُ بابها، وجد لارسون يُصرِّح بأنَّ أيَّةَ واحدة منِ ابنتَيه لن تكون

بحاجةٍ إلى التَّعلُّم".

نظرَت مارتي إلى السيِّدة غراهام، وقد أثقلَ العَجزُ كاهِلَها. "ماذا عسانا نفعل كي نجعلَه يُغيِّرُ رأيَه؟"

"تخميني أنَّه لا يوجد أيُّ شيء سيَجعل جَد لارسون يُغيِّر رأيَه، إلَّا إذا أراد هو ذلك. لو كان الأمرُ بيدي، ما كنتُ لِأعلَمَ حتَّى أينَ أبدأُ بالعَمل على ذلك الرَّجُل. ليس له عقلٌ راجح، ولكنَّ ما لديه يجعلُه يقينًا يتشبَّثُ برأيه".

"صحيح!" تنهَّدَت مارتي ولعِبَت بفِنجانِ قهوتها. لا يبدُ أيُّ أمَلٍ كبير لديها بأن تَفِيَ بوعدها. ماذا يُمكِنها أن تفعل؟ لقد صلَّت وصلَّت، ولكنْ لم يبدُ أنَّ جَد لانَ بأدنى قدْرٍ حِيالَ فكرةِ تعلُّمِ بِنتَيه في المدرسة. غيرَ أنَّ مارتي ما كانت مُستسلِمةً بعد. فعسى أن يفتحَ الرَّبُّ بطريقةٍ ما ذِهنَ ذلك الرَّجُل العنيد.

وبينما مارتي تُساعِدُ ما في جَمعِ الصُّحون ورفعِها، وصلَ إلى الباب جايسون مُنفَعِلًا.

اندفَعَ داخِلًا بِلا قَرعٍ ولا تحيَّة، مُناديًا: "ما غراهام! سالي آن تعتقد أنَّ الوقت قد حان".

فقالت له ما بسُرعة، مُضطرِبةً بشِدَّة: "توم في الحقل بقُربِ الحظيرة. أرسِلْه لإحضار الطَّبيب، وارجِع أنتَ معي". ثُمَّ التقطَت حقيبةً من إحدى الزَّوايا، وألقت شالَها حولَ كتِفَيها، وغادرَت المنزل

راكضةً تقريبًا.

أدركَت مارتي أنَّ الحقيبة في الزَّاوية كانت مصرورةً ومُجهَّزة لتؤخذَ لأجل هذه الاحتماليَّة تمامًا.

غادرَ توم الفِناءَ على حِصانٍ يعدو مُسرِعًا، وغادرَت السيِّدة ما مع جايسون في عرَبته بسُرعةٍ ليست أبطأ كثيرًا.

جمَعَت مارتي عائلتها الصَّغيرة وتوَّجهَت نحوَ بيتها. لقد كانت على يقين بأنَّ كلَّ شيءٍ سيَجري حسنًا معَ سالي آن وطفلها. ومع ذلك ألفَت نفسها مُصلِّيةً وهي تسوق العرَبة.

وفي وقتٍ لاحقٍ من عصرِ ذلك النَّهار، وصَلَ توم حاملًا بُشرى بأنَّ سالي آن وُلِّدَت بسلامةٍ ابنةً صغيرة وأنَّ الجدَّ والجدَّةَ مُتماسِكان وداعمانِ جيِّدًا.

وقالَ بفخر: "فكِّري في هذا فحسْب: أنا الخالُ توم الآن. أُخَمِّنُ أنَّ عليَّ أن أخرُجَ الآن وأبنيَ لي كوخًا".

فابتسمَت مارتي.

واستفسرَت مِسي : "ماذا تعني؟ ألا يُمكِنك أن تعيشَ في البيت بعدَما صِرتَ خالًا؟"

فغمَزَ توم مارتي بعينه، وقال: "بلى، أظنُّ أنَّه يُمكِنُني. وتخميني أنَّهم لن يطردوني لمجرَّد كوني خالًا، خصوصًا حين أكون خالًا يقومُ بمُعظَم المَهامّ. لن أكون بحاجة إلى ذلك الكوخ مدَّةً من الزَّمن. على

كُلِّ حال، لستُ في مِزاجِ العَيشِ عِيشةَ عُزَّاب". وتوقَّف، ثُمَّ قالَ مُرتَبِكًا بالأحرى: "سأنتظِرُ حتَّى أجِدَ لي طبَّاخةً قبلَ أن أنتقِلَ إلى كُوخٍ يخُصُّني".

أدركَت مارتي فجأةً أنَّ الفتى تومي كان يكبُرُ فِعلًا، وربَّما كان لِدُعابته عن كوخٍ يخصُّه معنًى أكثَرُ جِدِّيَّةً مِمَّا أبداه. ما أسرعَ ما يكبُرُ هؤلاءِ الفِتيانُ ويتغيَّرون!

تفحَّصَ ذِهنُها فتَياتِ الجوار. أتكونُ أيَّةُ واحدةٍ مِنهنَّ مُناسِبةً تمامًا للشَّابِّ توم غراهام، ذاك الذي حبَّبَ نفسَه إليها كثيرًا لمَّا أدَّى بحماسةٍ مهامَّ كلارك وقضى أمسيَتَهُ قارئًا لمِسي الصَّغيرة؟ وها هو الآنَ واقِفٌ أمامَها على عتَبة الرُّجولة. فرَجَت أنَّه عندما يحينُ أوانُ أخذهِ عروسًا يَجِدُ واحدةً جديرةً به.

جلس توم مُنَطِّطًا آرني على قدَمِه، ثُمَّ رجَعَ إلى موضوع ابنةِ أُخته الجديدة.

"لم يُقرِّرا بَعدُ يقينًا ماذا يُسَمِّيانِها. سالي آن تُريد أن تُسمِّيَها لَورا، ولكنَّ جايسون مُتمسِّكٌ بِاسْمِ أليزابيث. يبدو أنَّه قرأ قِصَّةً عن فتاةٍ تُدعى أليزابيث، وما برِحَ دائمًا يُريدُ ابنةً بذلك الاسم. ثُمَّ إنَّه يُصِرُّ على أنَّ اسمها يجب أن يتضمَّن سالي أو آن أيضًا. يبدو اسمُ أليزابيث سالي مُضحِكًا بعضَ الشيء. أمَّا أنا فأُحبِّذُ أليزابيث آن. ما رأيُكِ؟"

فطمأنَته مارتي: "يُعجِبُني. أظنُّ أنَّه اسمٌ جميلٌ حقًّا".

واشتركت مِسي في الحديث فقالت: "وأنا أيضًا!" توَّاقةً لأنْ تُدليَ برأيها وتُنبِّهَ محبوبَها توم إلى حضورها.

إذ ذاك قال توم: "ينبغي أن يحسِمَ هذا الأمرَ. سأقول لسالي آن تمامًا إنَّ مِسي تقول إنَّه ينبغي أن يكونَ أليزابيث آن، وهكذا يجب أن يكون أليزابيث آن".

فابتسمَت مِسي ابتِسامةً عريضة وصفَّقت بيدَيها مرَحًا. ثُمَّ حطَّ توم آرني الصَّغير على الأرضيَّة وتأهَّب لِلمُغادرة.

"عليَّ أن أذهب. سيُجَنُّ جنونُ نَلي إذا تأخَّرتُ عن العشاء، وما زال عليَّ القيامُ بالمَهامّ. لا أعتقِدُ أنَّني سأحصُلُ على مُساعدة كثيرة من الجدِّ الشَّيخ هذه الليلة". وقدِ استمتعَ بمُغايظته، إلَّا أنَّه قال ذلك وفي صوتهِ محبَّةٌ واحترام.

فتبسمَّت مارتي وقالت له: "بَلِّغِ الجدَّ أنَّنا نبعثُ إليه بمحبَّتنا".

وبإيماءةٍ من رأسه وتلويحةٍ بيَده، انطلَقَ ذاهبًا.

فهمسَت مِسي قائلةً: "يُعجِبُني. أظنُّ أنَّني عندما أكبر سأتزوَّج توم".

وهتفَت مارتي: "بحقِّ السَّماء، يا صغيرة! لم تبلُغي السَّادسةَ بعد، وأنت تتحدَّثين عن الزَّواج. لا نستعجِلِ الأُمورَ كثيرًا، إذا كان لا بأسَ بذلك عندَكِ!"

فشرحَت مِسي بحزم: "لا أعني الآن. لقد قلتُ: عندما أكبر. فأوَّلًا،

عليَّ أن أذهبَ إلى المدرسة".

٨

جوابٌ غريب

أنتجَتِ الحديقةُ غلَّتَها المُرحَّبَ بها، وبدأت شمسُ الصَّيف الحامية تصيرُ أكثرَ حماوةً من أن تُحتمَل. وسُرَّت مارتي بالنَّسَمات الباردة التي هبَّت من التِّلال القريبة، فاختارت ساعاتِ الصَّباح الباكرة للقيام بأيِّ تعشيبٍ ضروريٍّ والاستِعداد لِلحَصاد الآتي. وقد أحبَّت مِسي ثِمارَ البنَدورة التي أنضجَتها الشَّمس، وكانت تملأ بطنها منها عنِ النَّبتاتِ مُباشرةً متى كانت جاهزة لِلقَطف.

ولكنَّ الصَّيف، شأنُه شأنُ الرَّبيع، سوف ينتهي سريعًا هو أيضًا، والخريفُ سوف يُقبِلُ عليهم. ومع الخريف، تأتي التَّحضيراتُ لأجل المدرسة. وقد طمأنَتهُم المُراسَلةُ مع الأُستاذ وِلبُر وِتِل إلى أنَّه لم يُغيِّر رأيه وسيَصِلُ في أواخِرِ شهر آب ليتعرَّف بالأهالي والمنطقة، ويُعِدَّ مبنى المدرسة لمُباشرة الصُّفوف.

اتُّخِذَت ترتيباتٌ لأجل الأُستاذ وِتِل غيرِ المُتزوِّج أن يؤمَّنَ له المسكنُ والمأكل عندَ آل واتْلي، وعُنيَتِ السَّيِّدةُ واتْلي بأن تُلَمِّعَ ابنتاها البالِغتانِ أنفُسَهما فضلًا عن فِضِّيَّات العائلة.

كانت مِسي تعُدُّ الأيَّام. وقد باتت حياتُها بكاملها الآن مُمتلئةً بالتَّفكير في السَّنة المدرسيَّة الجديدة. فماذا عساها أن تلبس، وماذا ستتعلَّم، ومع مَن ستلعب: هذه الأُمور كلُّها كانت بالغة الأهمِّيَّة في تخطيطها اليوميِّ وفي أخبارها الاعتياديَّة لأيِّ شخص راغب في الإصغاء إلَيها.

وكان لدى مِسي أمران أسِفَت عليهما أسَفًا عميقًا. أحَدُهما كان أنَّ مِس پُس سوف تُضطَرُّ إلى قضاء أيَّامٍ طويلةٍ وحيدةً في غِيابها، والثَّاني أنَّ توم غراهام كان قد صرَّح بأنَّه أكبَرُ سِنًّا من أن يرتادَ المدرسة مع فِتيانِ الجِوار كلِّهم. فهي ستفتقِدُ تومي. وقد أرادت كثيرًا جدًّا أن يكون هناك. فمن شأنها أن تشعر بالفخر بأن تقِفَ وتُسمِّعَ درسًا حفِظَته جيِّدًا، إذا كان تومي يُصغي إليها. ومن شأنها أن تبذل مزيدًا من الجهد في قراءتها وحِسابها، إذا كان هو حاضرًا هُناك ليُلاحِظَ مَهاراتِها. غيرَ أنَّ توم لن يكونَ هُناك، ومِن ثُمَّ خابَ أمَلُ مِسي يقينًا، وإن كانت ما تزالُ مُتحمِّسةً حِيالَ مشروع المدرسة.

ومارتي أيضًا خابَ أمَلُها، لا من أجل توم، بل من أجلِ ابنتَي آل لارسون. كان الفصل الدِّراسيُّ سيبدأ بعد أسابيعَ قليلة فقط، ولم يحصل أيُّ تَغيُّر في موقِف جَد لارسون. وكادت مارتي تستنتِج أنَّ صلواتها كانت كلُّها عبثًا.

في وقت صلاتهم المُعتاد قبلَ الفَطور، كانت مارتي تتدبَّر مليًّا في

ذهنها هذه الأفكار، إذ قرأ كلارك آيةَ الصباح: "اسألوا تُعطَوا؛ اطلبوا..."

فعاتبَت ربَّها: **لقد طلبتُ كثيرًا، يا ربُّ، ولم يحدُثْ أيُّ شيء!** وفي الحال شعرَت بالذَّنْب والنَّدَم.

وصلَّت بصَمت: **أبانا، أنا آسِفة. أعتقِدُ أنَّني تقريبًا الأقَلُّ أمانةً وصبرًا بين أولادك. ساعِدني حتَّى أكونَ راضيةً ويظلَّ عندي إيمان.**

وبدا أنَّ كلارك شعَرَ بمِزاجِها، فضمَّنَ صلاتَه الصباحيَّةَ هذه الطَّلِبة: "ويا ربّ، أنت تعلم أنَّه بعدَ مُدَّة قصيرة من الآن سوف تبدأ مدرسَتُنا، وتعلم كيف وعدَت مارتي السَّيِّدة لارسون أن تُحاوِلَ وتهتمَّ بأن تحصُلَ الفتاتان على تعلُّمِهما. فوحدَك، يا ربُّ، تستطيع أن تعمل في قلب جَد كي تتمكَّن مارتي من الوفاء بوعدها. إنَّنا نترُكُ الأمرَ بين يديك لكي تُتمِّمه بطريقتك وتوقيْتِك".

كانت مارتي شاكرةً في الصَّميم من أجل تفُّهم كلارك، وعبَّرت له بهدوء عن شُكرها من أجلِ اهتمامه. لعلَّ الله الآن يأخذُ حرِّيَّته في التَّصرُّف. فهو يفعل ذلك أغلبَ الأحيان عندما يُصلِّي كلارك. وأنَّبَت نفسها في الحال. حقًّا إنَّ كلارك بدا مُبَاركًا بالصَّلَوات المُستجابة، ولكنَّها هي أيضًا من أولاد الله. ويقول الكتاب المُقدَّس إنَّ الله لا يُحابي واحدًا من أولاده على حِسابِ آخَر. إذا كانت صلَواتُ كلارك تُستجابُ أحيانًا أغلب، فذلك لأنَّ لديه إيمانًا أقوى. ومن ثَمَّ عقدَت

عزمها على أن تُمارِسَ إيمانها أكثر.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك النَّهار، أعلَنَ بوب العجوز قُدومَ عرَبة. ولَشَدَّ ما دُهِشت مارتي إذ كانت تلك عرَبةَ جَد لارسون. كانت قد مرَّت بِضعةُ أشهر منذُ زيارة جَد الأخيرة، ولم تستطع مارتي أن تتمالكَ نفسها إذ غمَرَتها موجَةُ تأثُّر لأنَّ هذه الزِّيارة قد تكونُ استجابةً للصَّلاة.

لاقى كلارك جد في الخارج، واستطاعت مارتي أن تراهُما يتكلَّمان بأُسلوبٍ ودِّيٍّ فيما ربَطَ جَد الحِصانَين بالسياج.

وضعَت مارتي بسُرعةٍ ركوةَ القهوة على النَّار، وقطعت شرائحَ من كعك الزَّنجبيل. وقد تساءلت: **تُرى، كيفَ سيُفصِحُ عن الأمر دونَ الاضطِرار إلى أيِّ تنازُل؟**

سُرعانَ ما دخل جَد وكلارك وقعَدا، وحبسَت مارتي نفَسَها جيِّدًا بانتظارِ أن يبوحَ جَد بالخبَر الطَّيِّب. صحيحٌ أنَّه جاء حاملًا خبَرًا ما- خبَرًا جعلَه يبتسِمُ من الأُذُن حتَّى الأُذُن- ولكنْ ما أبعَدَهُ عمَّا كانت مارتي تتوقعه.

"لقد بِعتُ مزرعتي أمس".

فرفع كلارك نظرَه مدهوشًا.

"بِعتَها؟ لِشخصٍ من أهل المِنطقة؟"

"لا، بل لِرَجُل جاء حديثًا. كان مع قافلة العرَبات العابِرة، وقد نوى أن يتوغَّلَ غربًا بَعد، إلَّا أنَّ زوجتَه مرِضَت، فقرَّر أن يمكُثَ هُنا. لقد

أرَيتُه مزرعتي، فعرَضَ عليَّ الثَّمنَ نقدًا...دفعةً واحدة. والسِّعرُ جيِّدٌ أيضًا".

ثم توقَّف جَد وأجالَ نظرَه بينَهما، مُنتظِرًا دون شكٍّ ان تُخلِّفَ ثروَتُه الجيِّدة انطِباعًا حسنًا لدى سامِعَيه. وما لبِثَ أن تابَعَ كلامه: "ستستريحُ القافلةُ يومَين قبلَ استئناف السَّفَر. أنا أُفكِّرُ في الحلولِ محلَّه مع القافلة. لقد أردتُ دائمًا بالفِعل أن أرى ما في أقصى الغرب. لا أستطيعُ الجزمَ أبدًا...قد أجِدُ لي ذهبًا أو شيئًا ما".

أخيرًا شهقَت مارتي نفَسًا مُرتِعشًا.

وإذ حاولَت إبقاءَ نبَرتِها مُستَويةً، سألت: "وماذا عن الفتاتَين؟"

علِمَت أنَّه كان سؤالًا أخرق. فقد بدا الآنَ كلُّ أمَلٍ في الوفاء بوعدها مُتلاشيًا. وإذا كان جَد سيرحلُ إلى مكانٍ بعيد، فلا يُمكن أن تُتاحَ أيَّةُ فُرصةٍ للفتاتين لتلقِّي أيِّ تعليم.

أجاب جَد: "ماذا عنِ الفتاتَين؟ السَّفَرُ في قافلة العرَبات لن يضُرَّهما أبدًا. إنَّه سيُفيدُهما جيِّدًا لِتَرَيا المزيدَ من البَلَد".

"ولكنْ...ولكنَّهما صغيرتانِ جدًّا...". وتوقَّفَت مارتي. لقد أنذرها شيءٌ ما في داخلها بأن تسكُت، ولكنَّها شعرَت فجأةً بالغَثَيان إذ تحطَّمت حَوالَيها جميعُ آمالِها وصلَواتها.

نظر جَد إلَيها بهدوء، ولكنَّه لم يقُل أيَّ شيء. ثُمَّ مدَّ يدَه لِيَتناول قِطعةً أُخرى من كعك الزَّنجبيل، وتابَعَ كلامه كأنَّ مارتي ما تكلَّمَت

قطّ.

"هذا الرَّجُل الجديد...اسمُه زيك لاهاي. يبدو أنَّه أُعجِبَ جِدًّا بأرضي...دفَعَ لي ثمنًا مُمتازًا لِقاءها. لديه ثلاثةُ صِغار...بِنتٌ في طَورِ البُلوغ وصبيَّان صغيران".

فردَّ كلارك: "صحيح؟ أُخَمِّن أنَّه ينبغي لي أن أُعرِّجَ عليهم. لعلَّه يُريد أن يُرسِلَ صِغاره إلى المدرسة".

وشخَرَ جَد. "لا أدري لماذا قد يُقدِمُ على أمرٍ سخيفٍ كهذا. كِلا هذَين الصَّبيَّين كبيران كفايةً للاستفادة منهما في شيءٍ من العمل. لا بُدَّ أنَّهما في الثَّانيةَ عشرة والثَّامنةِ تقريبًا، كما أتصوَّر. وتلك الابنةُ تكادُ أن تكونَ في عُمرٍ يُمكِّنها من تدبيرِ منزِلٍ يخصُّها. وما برِحتُ أُفكِّرُ أنَّها قد تكون في المُتناوَل لاصطحابها في السَّفَر إلى أقصى الغرب".

فقال كلارك على مهل: "يُخيَّلُ إليَّ أنَّ شابًّا مُتأنِّقًا وسيمًا نظيرَك قد يأخذ عروسًا أُخرى قبلَ أن تدري".

وغمَزَ جَد بعينه، فأحسَّت مارتي غضَبًا يفورُ عليه. وفكَّرت بحِدَّة: **فيمَ يُفكِّر كلارك إذ يُمازِحُ هذا الرَّجُلَ الخسيسَ بهذه الطَّريقة؟**

بدا كلارك مُستغرِقًا في التَّفكير، ثُمَّ خرَقَ الصَّمت. "اعلَمْ أنَّني أُفكِّر أنَّه في ما يتعلَّق بالتَّزوُّج من جديد قد تُفكِّرُ المرأةُ الشَّابَّة مرَّتين بشأنِ قُبولِ فتاتين دخلَتا طورَ البلوغ. أمَّا المرأةُ الأكبَرُ سنًّا والأكثرُ وعيًا فرُبَّما لا يهمُّها ذلك بالتأكيد. في وسعك دائمًا أن تفعل ذلك، كما تعلَم:

أن تأخُذَ امراةً أكبرَ سنًّا وأكثرَ استِقرارًا، بدلًا من صبيَّةٍ حسناءَ طائشة. ربَّما لا يكون ذلك مُبهِجًا بهذا المِقدار، ولكن...".

لزِمَ كلارك الصَّمت، وبدا واضحًا من سيماء وجهِ جَد أنَّه كان يُفكِّر في تلك الكلمات.

"في وسعك أن تترُكَ البِنتَين هُنا، كما أعتقِد، حتَّى لا تُعَوِّقاك أبدًا، إمَّا في سفَرِك وإمَّا بأيَّة طريقة أُخرى". ووكَزَ كلارك جَد بمِرفَقه وِكزةَ مُمازحة، فابتسمَ جَد ابتسامةً عريضة.

ثُمَّ قال بِتَرَوٍّ: "ما فكَّرتُ في ذلك، ولكنَّ هؤلاءِ القومَ الجُدُدَ سينتقِلون إلى بيتي، فعليَّ أن أُفرِغه من كلِّ شيءٍ غدًا. ولا أعتقِدُ أنَّهم يريدون أن تبقى البِنتان فيه!"

فقال كلارك: "ذلك صعب". وقد بدا بالحقيقة مُشتغِلًا بحلِّ مُشكلة جَد، ثُمَّ أضاف: "إنَّه نوعًا ما يجعل الرَّجُلَ في وَضعٍ سيِّئ إلى حدٍّ بعيد، أليس كذلك؟"

بدا جَد قلِقًا. وتمنَّت مارتي لو تستطيعُ أن تعتذِرَ بالمرَض وتمضيَ لِتَستريح. فما جعلها كلارك مرَّةً غاضِبةً هكذا، أو مُرتبِكةً إلى هذا الحدّ. وأن تجلِسَ هُناك مُغذِّيةً الأنانيَّةَ وأسوأ النَّزَوات لدى هذا...هذا الشَّخص المُثير للاشمئزاز، والذي يتخلَّص من ابنتَيه كما لو كانتا بضاعةً غيرَ مرغوبٍ فيها، فذلك جعلها مُستاءةً جدًّا بحيثُ خشِيَت أنَّها في أيَّة لحظة قد تستشيط غضَبًا على كِلَيهما.

ثُمَّ بدا أنَّ كلارك فكَّرَ فجأةً في شيءٍ ما.

وما لبِثَ أن قال بِرَباطة جأش: "أعتقِدُ أنَّ في وسعك أن تُبقيَهما هَهُنا. عندَنا غرفةُ نوم إضافيَّة. لَعلَّنا نستطيعُ أن نُفسِحَ لَهُما".

إذًا، ذلك هو المكان الذي سيَصِلُ إليه بهذا كُلِّه! وحالًا بدأ استياءُ مارتي المُتزايدُ ينكفئ. فقد كان كلارك مُستعمِلًا صورةَ جَد الذَّاتيَّةَ كرَجُل ذي صِفاتٍ مُبتغاةٍ كي يُحاوِلَ أن يُكافِحَ من أجل الفتاتَين. إنَّه كان يعرِضُ أن يحتفِظَ بهما، أن ينتزِعَهُما من يَدِ الرَّجُل...إذا جاز التَّعبير. وقد تساءلت مارتي لماذا لم تُدرِك حالًا ما كان كلارك فاعِلَه. ثُمَّ رمَقَت كلارك بنِظرةِ تَوسُّلٍ سريعة لتُبيِّنَ له أنَّها الآن فهِمَت وترجوَ منه بالتأكيد أن يُتابع.

حكَّ ذقنَهُ المُوَخَّط بالشَّيب، وقال: "صحيح؟"

"أعتقِدُ أنَّنا نستطيع أن نُدبِّرَ الوضع...إلى أن تستقرَّ أنت بطريقةٍ ما". وابتسمَ كلارك ابتسامةً عريضة، ثُمَّ وكَزَ مِرفقَ جَد ثانيةً.

بدا جَد مُفكِّرًا بِرَوِيَّة.

ثُمَّ تابَعَ كلارك، وفي صوتِهِ الآن نبرةُ تشكيكٍ إلى حدٍّ ما: "طبعًا، لِمارتي الكلِمةُ الأخيرةُ في البيت وكم تُريدُ لنا أن نكونُ مُحتَشِدين فيه. فالأمرُ لها تقريبًا، كما أُخَمِّن".

همَّت مارتي بأن تصيح: "أُوه، رجاءً، رجاءً يا جَد!" ولكنَّها بالأحرى التقطَت تعليمتَها من كلارك وفاجأت حتَّى نفسَها بصَوتِها

الواقعيِّ اللَّامُبالي.

"أعتقِدُ أنَّنا نستطيعُ ذلك...إلى حين...إذا كان ذلك سيُساعِدُك على تدبيرِ أُمورِكَ نوعًا ما".

أخيرًا قال جَد: "قد يُساعِد. قد يُساعِدُ حقًّا".

لم تجرؤ مارتي على رفع نظَرِها. وهدَّدَتِ الدُّموعُ السَّاخنة في عينَيها بأن تسيلَ على خدَّيها وإلى داخلِ فِنجانِ قهوتها. فغادرَتِ الطَّاولة بسُرعة مُتظاهِرةً بالاعتِناء بالنَّار. ولمَّا استعادَتِ السَّيطرةَ على نفسها قليلًا، صبَّت للرَّجُلَين فِنجانَي قهوة آخرَين، ثُمَّ ذهبَت إلى غُرفةِ النَّوم حيثُ اتَّكأت على إفريز النَّافذة وصلَّت إلى الله مُتوسِّلةً أن يغفِرَ لها قِلَّةَ إيمانها وأن يُنعِمَ بِمُساعدة كلارك في المعركة التي يخوضُها حاليًّا.

وبعدَ لُحَيظاتٍ دخلَ كلارك، وضغَطَ كتِفَها ضغطةً عاجلة، وفتَّشَ في جارور، ثُمَّ مضى.

سمِعَت مارتي الرَّجُلَين يُغادِران المنزِل، وذهبت إلى حُجرة الجلوس بعدَ وقتٍ قصير لتُراقِبَ حِصانَي جَد في طريقهما إلى خارج الفِناء.

ثُمَّ سمِعَت كلارك يدخُلُ البيت ويتقدَّمُ ليَقِفَ وراءها عندَ النَّافذة. وإذ تَوارت عرَبةُ جَد فوقَ التَّلِّ، أدارَ كلارك مارتي برِفقٍ كي تُواجِهَه. فنظرَت عيناها المُغرَورِقتان داخِلَ عينَيه ولم تكد تجرؤ على الجَهرِ بالسُّؤال.

"هل أبدى...؟"

"هل أبدى مُوافقتَه؟ نعَم، أبداها".

فجرَت دموعُها من جديد.

ولمَّا تمكَّنت من التَّكلُّم، قالت: "أُوه كلارك، شُكرًا لك! ما اعتقدتُ قطُّ بالفِعل أنَّني سأتمكَّن من إبقاء الفتاتَين هُنا تمامًا". ثُمَّ مسحَت عينَيها بيدها وتنشَّقَت، فسحبَ كلارك مَحرمتَه، فقالت له ثانيةً: "شُكرًا لك!"

غمرَت وجهها بِمَحرمته الرَّجُليَّةِ الحجم، ثُمَّ قالت رشقًا: "أوَّلَ الأمر جُنَّ جُنوني، إذ تكلَّمتَ بتلك الطَّريقة إلى ذلك...ذلك المغرور...". وما لبِثَت أن توقَّفت مُرتبِكةً، عِلمًا منها بأنَّ عليها ألَّا تجهر بالكلمات التي دارت في فِكرها.

ثُمَّ استأنفت قائلةً: "ما كان في وسعي أن أتصوَّر لماذا تُقدِمُ على قولِ أمورٍ كهذه، حتَّى...حتَّى بدأتُ أعي. وهو صدَّق ذلك كُلَّه، أمَا؟ صدَّقَ أنَّ امرأةً- امرأةً شابَّة- في كاملِ عقلِها تُوافِقُ على الزَّواجِ منه".

بدأت تغضب من جديد لِمُجرَّد التَّفكير في ذلك كلِّه، فقرَّرت أن تُغيِّر الموضوع قبلَ أن يحتَدِمَ غضبُها.

وسألَت: "وهل قال إنَّ في وسعنا أن نأخُذَ الفتاتين؟"

"نعم".

"لِنُبقيَهُما عندنا؟" ولم تستَطِع أن تستُرَ نبرةَ التَّوسُّلِ في صوتِها.

”حسنًا، لم يقُل تمامًا كم من الزَّمَن، ولكنَّني سأكونُ فلَّاحًا مدهوشًا إذا كان جَد لارسون أصلًا يُريدُ استِرجاعَ ابنتَيه. سيجعَلُ نفسَه مُوثَقًا بهذا الأمر أو بذاك، ولن تدخُلَ بِنتاهُ كثيرًا في تفكيره“.

”لم تجعَلْه يدفَعُ لِقاءِ إبقائهما، أجعَلتَه؟“

فابتسمَ كلارك ابتسامةً عريضة، وقال على مهل: ”حسنًا...ليس تمامًا“.

”ماذا تعني؟“

”قال جَد إنَّنا نستطيع أن نُبقيَ الفتاتَين إذا أعطَيناه عشرةَ دولارات عن كلِّ واحدة منهما“.

فأجفلَت مارتي، وأجابت: ”حسنًا، ما كنتُ قطُّ! ما كنتُ قطُّ أحسبُني سأعيش إلى اليوم الذي فيه يُضطَرُّ أحدٌ لأنْ يدفَعَ لِقاءَ امتيازِ إطعامِ صغيرتَي رجُلٍ آخر وإلباسِهما“.

جذَبَها كلارك رجوعًا إليه ومسَّدَ الشَّعرَ البُنِّيَّ الطَّويل. ولعلَّهُ ظنَّ أنَّه بذلك يتمكَّن من تهدئة أعصابها المُجهدَة. إلَّا أنَّه لمَّا تكلَّمَ انضوى صوتُه على دُعابة. إذ قال كمن يُخاطِبُ ولَدًا غاضِبًا: ”مهلًا الآن! أردتِ أن تُستجابَ صلَواتُك، أمَا؟ فمن نحنُ حتَّى نعترِضَ بشأنِ كيفيَّة استجابتها؟“

استرخَت مارتي بين ذِراعَيه. لقد كان على حقٍّ، دونَ شكّ. فينبغي لها أن تكون شاعِرةً بعِرفانِ الجميل، لا بخيبةِ الأمَل.

واستأنفَ قائلًا: "ستكون البِنتان هُنا غدًا. سوف يكونُ الأمر غريبًا علينا كلِّنا في البداية، وسيقتضي شيئًا من التَّعوُّد. يبدو أنَّ طاقتَنا كلَّها ينبغي أن تُوظَّفَ في القيامِ بالتَّعديلات اللازمة لنعيشَ بعضُنا مع بعض".

ثُمَّ رفعَ ذقنها ونظرَ داخِلَ عينَيها.

"لقد جلَبتِ لنفسِكِ مَهمَّةً كبيرة، يا مارتي. يداكِ مشغولتانِ أصلًا بصغارِكِ. فإضافةُ فَردَينِ بَعدُ لن يُخفِّفَ حِملَكِ أبدًا. أرجو ألَّا تكوني حاملةً فوقَ طاقَتِكِ. إنَّ قلبَكِ الرَّقيقَ قد يكسِرُ ظهرَكِ فعلًا، على ما أظنُّ".

فهزَّت رأسها. "لقدِ استجابَ الله صلاتنا، يا كلارك. فإذا كان يحسبُ ما نقومُ به صائبًا، فهو سيُعطينا أيضًا القوَّةَ والحِكمةَ اللَّتَين نحتاجُ إليهما، أَلَن يُعطيَنا؟"

أومأ كلارك برأسه مُوافِقًا، وكان كلُّ ما قالَه: "أعتقِدُ أنَّه سيفعل ذلك".

٩

نانْدري وكلاي

كما سبقَ أن وافقَ جَد، وصَلَ في اليوم التَّالي مع البِنتَين. كانت أمتِعَتُهما القليلة محمولةً في صُندوق، فوُضِعَت في غُرفةِ النَّوم التي ستكون لهما. وتساءَلت مارتي هل يكونُ الفراقُ صعبًا، خصوصًا بُعَيدَ فَقدِهما أُمَّهُما. ولكنَّها لم تستطِع أن تستبينَ أيَّ إظهارٍ للعاطفة من كِلا الجانبَين.

كان جَد توَّاقًا للرَّحيل، كما بدا واضحًا. فقد كانت مُمتلكاتُه مرزومةً في عرَبَته، وإذ كان المالُ الذي ناله من بَيع المزرعة مدسوسًا في جَيبه، بات أكثرَ استِعجالًا من أن يُعوَّق، ولَو لأجلِ فِنجانِ قهوة. غير أنَّه ملأ بطنَه من الخُبز الطَّازج والمُربَّى، وما إنِ بلعَ الطَّعامَ حتَّى أعلَنَ أنَّه يجِبُ أن ينطلِقَ في سبيله. وقد بدا مُتعافيًا تمامًا من وفاة زوجته. فأومأ برأسه لمارتي وابنتَيه إيماءةً عاجلة، افترضَت مارتي أنَّها تكفي لِلقول "شُكرًا ووَداعًا وباركَكم الله!" ثُمَّ خرَجَ من الباب. لقد كان مُفعمًا بالرِّحلة العتيدة إلى أقصى الغرب، وبكُلِّ الثَّروة الجيِّدة التي كان مُتيقِّنًا بأنَّه سيَحوزُها. فما برِحَ جَد كلَّ حين يعتبِرُ الثَّروةَ الجيِّدة

اعتبارًا أعلى من العمل الجِدِّيِّ.

وهكذا كان أنَّه بِلا مَزيدٍ من الجَلَبة ثُبِّتت نانْدري وكلاي كفَردَينِ في أُسرةِ آل ديڤِس.

قرَّرت مارتي أن تُعطيَ الفتاتَين أيَّامَ "استِقرارٍ" قليلةً قبل ترسيخ الرُّوتين والتَّوقُّعات.

وتأمَّلت ملابِسَهُما التي تدعو للرِّثاء، فقرَّرت أنَّه لا بُدَّ من رِحلةٍ إلى المدينة إذا كانتا ستُلبَسانِ ثيابًا لائقة لأجل المدرسة التي ستبدأ قريبًا.

نادرًا ما ذهبَت مارتي إلى المدينة، إذ كانت تبعَثُ بلائحة مُحضَّرة بدقَّة مع كلارك، ولكنَّها شعرَت هذه المرَّة بأنَّه ينبغي لها أن تذهب هي نفسُها. فمن شأن كلارك أن يجِدَ اختيارَ لَوازمِ الفساتين وغيرِها من الموادِّ أمرًا صعبًا ومُستهلِكًا للوقت.

كانت مارتي تدَّخِرُ مالَ البيض والقِشدة على مرِّ الأشهُر، وشعرَت بأنَّ الوقت قد حان للاستفادة من مُدَّخراتها. فلم يكُن من الإنصاف أن تُلقيَ جميعَ النَّفقات على عاتق كلارك، وقدِ اضطُرَّ أصلًا لأنْ يدفعَ لِجَد لقاءَ امتيازِ تربيةِ ابنتَيه. وأحسَّت مارتي أعصابَها تتوتَّرُ مجدَّدًا لِمُجرَّد تلك الفكرة.

حسنًا، لقد مضى ذلك كلُّه وانقضى...فليكُن. من الآن فصاعدًا باتت الفتاتان لها كي تعتنيَ بهما، وحسَبَ أفضَلِ قُدرتها- بمَعونةِ الله وبعض المُساعدة من كلارك أيضًا- نَوَت أن تفعل ذلك بالصَّواب.

بدَت نانْدري على الحالِ ذاتها الانطوائيَّة المُعتادة، لا مُتوقِّعةً أن تكون الحياةُ مُشوِّقةً، ولا واجِدةً إيَّاها كذلك. ولكنَّ كلاي- كما بدا واضحًا- كانت تُراقِبُ كلَّ ما حولها، بل تجرَّأت أحيانًا على الابتهاج بما تكتشفه.

كانت كِلتا الفتاتَين مُساعِدتَين على نحوٍ مُفاجئ، الأمرُ الذي كانت مارتي شاكرةً من أجله. وفضَّلَت نانْدري قضاءَ الوقت مع آرني الصَّغير أكثرَ من سائر أفراد العائلة الآخرين. فلم تستأ مارتي من ذلك، لأنَّ المُساعَدة في مُجاراة الصَّبيِّ الصَّغير المُغامِر، والمُزعِج أغلبَ الأحيان، كان أمرًا مُرحَّبًا به دائمًا.

قرَّرت مارتي أن تقومَ برِحلتها إلى المدينة يومَ السَّبتِ المُقبل. ستُرافِقُ كلارك، وبذلك تُوفِّرُ رِحلةً إضافيَّة.

يومَ الجُمعة، بعدَ الفُروغ من الفَطور، دعَتِ الفتاتَين إليها. لقد قرَّرَت أنَّ الوقتَ قد حان لإيضاح بعض الأُمور.

جلسَتا صامتتَين، وأيديهِما تُفرَكُ بعصبيَّة في حضنَيهما. فهشَّت مارتي لَهُما مُحاوِلةً تخفيفَ تَوتُّرِهما.

وبادَرت قائلةً: "أعتقِدُ أنَّ الوقتَ قد حانَ كي نُدَردِش".

فلم تتحرَّكا ولا تكلَّمتا.

"أتُعجِبُكما غُرفَتُكما؟"

أومأت كلاي برأسها إيجابًا بحماسة، وحذَت نانْدري حذوَها بمزيدٍ

من الهدوء. فغُرفتا النَّوم الإضافيَّتان اللتان زادهما كلارك والجيرانُ على الكوخ برَزَتا الآنَ عمليَّتَين خصوصًا بوجود الفتاتين مع العائلة. وكانت مارتي قدِ اهتمَّت جيِّدًا بجعل الفِراش ليِّنًا بِبَطَّانيَّاتٍ مُدفِّئة وطيِّبة الرَّائحة، ووضعَت على الأرضيَّة بُسُطًا زاهيةَ الألوان، وعلى النَّافذة ستائرَ مُطبَّعة مُكشكَشة، وعلى الجِدار صورتَين مؤطَّرتَين. وجُعِلَ صَفٌّ مُرتَّب من الأوتاد على الجدار وراءَ الباب، وصُندوقٌ خشبيٌّ بقُرب النَّافذة. حتَّى إنَّه وُضِعَ أيضًا مقعد صغير مع وسائدهِ الخاصَّة.

أومأت كلاي برأسها ثانيةً وقالت بارقةَ العينَين: "ما علِمتُ قطُّ أنَّ أيَّ شيء يمكن أن يكونَ حسنًا جدًّا هكذا...". إلَّا أنَّها توقَّفت لمَّا رمَقَتها أُختُها بنظرة طويلة.

ظلَّت مارتي مُبتَسِمةً، وقالت: "فكَّرتُ أنَّه ربَّما يكونُ علينا أن نُوَزِّع عمَلَنا. مِسي تغسِلُ الصُّحون صباحَين في الأُسبوع، وهي تُنظِّف غُرفَتها، وتُرتِّب سريرَها وتُعلِّق ثيابها كلَّ يوم، وهي تُساعِدُ قليلًا في الاهتمام بآرني أيضًا. فالآن، ماذا تعتقِدان أنَّكُما توَدَّان أن تقوما به على سبيل المُشاركة؟"

لم يكُن جواب، وإن بدا كأنَّ شيئًا ما قد يكون في فِكرِ كلاي.

"أعلَمُ أنَّكما تُسَوِّيانِ سريرَكُما فعلًا. ذلك جيِّد، وأنتُما تُحسِنانِ القِيامَ بالأمر أيضًا. ولكنْ هل من شيءٍ تَودَّانِ أن تفعلاه خصوصًا؟ أعني أفضلَ من الأشياء الأُخرى".

وأيضًا لم يكُن جواب.

أحسَّت مارتي أنَّها في وضْعٍ حَرِج. وحينَ ساءلَت نفسها هل تُحدِّدُ المسؤوليَّات كما تَستَنسِب، حينئذٍ تمامًا جاءتها المُساعَدة من ابنَتِها مِسي، وكانت قد أقبلَت للمُشاركة في المُفاوَضات.

أعلنَت مِسي من مكانها مُتَّكئةً على أُمِّها: "تقولُ ماما إنَّني أغسِلُ الصُّحون جيِّدًا، ولكنَّني سأُشارِك. أتُريدين أن تغسِلي الصُّحونَ أحيانًا، يا نانْدري؟"

فأومأت نانْدري برأسها إيجابًا.

فقالت مِسي، كبالِغَةٍ للغاية: "جيِّد! إذًا، لِمَ لا نَتناوَبُ الأدوار؟"

وهكذا حُسِمَ الأمر.

ثُمَّ أضافت مِسي : "ينبغي لنا كلِّنا أن نُرتِّبَ أسِرَّتَنا، ولكنَّ اكْلار ما زالَ أصغَرَ من أن يُرتِّب سريره، وآرني لا يستطيع أن يُرتِّبَ سريرًا بالمرَّة! علينا أن نوقِظَهُما ونُلبِسَهما كلَّ يوم. فمَن تُريد أن تُسَوِّيَ سرير اكْلار، ومَن تُريد أن تُلبِسَ آرني؟"

فأسرَعت نانْدري بالقول: "أنا أهتمُّ بآرني".

وقالت كلاي بابتهاج: "إذًا، أنا سأُرتِّب سريرَ اكْلار".

فمضَت مِسي قائلة: "وهُناكَ أحيانًا مَهامُّ خاصَّة، كالإتيانِ بالمزيد من الحطَب، أو نَشرِ الغسيل خارجًا، أو تقشيرِ الخُضَر".

وقالت نانْدري على مهل: "أنا أُفضِّل إطعامَ الدَّجاج". ثُمَّ أضافت

كفِكرةٍ تِلويَّة: "وجمْعَ البيض".

فأعلَمَت كلاي المجموعة: "إنَّها تحبُّ الدَّجاج. لقد تمنَّت دائمًا لو يكون لَدَيها دجاجاتٌ قليلة. الفَراريجُ والأطفال: ذلك هو ما تُحِبُّه".

إذ ذاك قالت مارتي لِنانْدري: "جيِّد، في وسعكِ أن تُطعِمي الدَّجاجَ وتجمعي البيض، إذا كنت تَودِّين ذلك. ماذا عنكِ، يا كلاي؟ أيَّ شيءٍ آخر تَودِّين؟"

بدَت كلاي مُستَحيِيةً فجأةً. أخيرًا قالت رشقًا: "أتمنَّى أن أتعلَّمَ صُنعَ أشياء". ثُمَّ نظرَت بتدقيق في وجه مارتي، وكأنَّها أرادت أن تُقرِّرَ إذا كانت ستَتورَّط في مُشكِلة من أجل طلَبِها. وإذ لم تجِدِ اعتِراضًا، أضافت: "فساطين جميلة ومآزِر ومحبوكات".

فوبَّخَتها نانْدري: "كُفِّي عن هذا، كلاي. تعرِفينَ أنَّكِ لا تستطيعين أن تفعلي ذلك كلَّه. ستُفسِدين ماكينة الخِياطة بالتأكيد".

وهكذا اتَّضحَ الأمرُ الآن. إذ كانت مارتي قد لاحظت البِنتَ الصُّغرى تنظُرُ إلى مكَنَتها بتِلهُّف. فهي راغِبةٌ إذًا في أن تكونَ خلَّاقة. حسنًا سوفَ تُعطى توجيهًا وفُرصة.

وإذِ اختارت كلمتِها بدقَّة، قالت: "الماكينة لا تُفسَدُ بسهولةٍ تامَّة. عليكُما كِلتَيكُما أن تتعلَّما كيف تخيطان، وعندئذٍ تتمكَّنان من أن تصنعا ما تُريدان. ربَّما يُمكننا أن نبدأ بشيءٍ بسيط، ثُمَّ حين تتمرَّسان قليلًا يُمكنكما أن تصنعا شيئًا ما أكثرَ إتقانًا. لقد تعلَّمتُ الخِياطة لمَّا

كنتُ صغيرةَ السِّنِّ نوعًا ما، وأنا مسرورةٌ دائمًا لأنَّني فعلتُ ذلك. فخِياطَةُ شيءٍ جميل تجعلُني كلَّ حين أشعرُ بحُسنِ الحال داخليًّا".

أشرقَت عينا كلاي بمزيجٍ من الابتهاج والإنكار.

فقالت مارتي: "والآن، غدًا ستكون لكُم مَهمَّتُكم الكبيرةُ الأُولى. سأذهَبُ إلى المدينة مع زوجي لأشتريَ الأشياءَ التي ستحتاجون إليها لأجل المدرسة، وسأترُكُكُم هنُا وحدَكم". ثُمَّ أجالت نظَرَها على الأوجُه المُصطَفَّة أمامها، وتساءلت في سِرِّها هل تكونُ جريئةً كِفاية لِتَترُك أصحابَها عندما يحين الوقت، أم هل تؤهِّبُهم وتصطحِبُهم. لا، إنَّ ذلك لن يُجديَ نفعًا. خمستُ صِغار بين الأقدام، يشدُّون بتَنُّورتها ويتوسَّلون إليها من أجل هذا أو ذاك، وهي تحاوِلُ أن تُعجِّل في خِضَمِّ مِقدارٍ كبير من التَّسوُّق، أمرٌ لن يجريَ حسنًا على الإطلاق. أضِف أنَّ الفتاتَينِ كانتا حقًّا بحاجة إلى هذه الفُرصة لإثباتِ ذاتَيهِما. فقد كانتا كبيرتَينِ كِفايةً لِتَتولَّيا الاعتناءَ بالصَّغار، وعليها أن تُعطِيَهُما الفُرصةَ لِلبَرهنة على ذلك.

إلَّا أنَّ إعلانَها لم يُسبِّبْ أيَّ تغيير في سيماء الأوجُه التي أمامها.

"أتعتقدين، يا نانْدري، أنَّكِ تستطيعين الاعتناء بآرني الصَّغير والمُساعَدة بتحضير غداءٍ ما لكُم كُلِّكُم؟"

فأومأت نانْدري برأسها إيجابًا.

"وكلاي، أنتِ ومِسي سيكون عليكُما أن تُساعِدا بغَسل الصُّحون

وتحضير الغَداء والانتِباه إلى اكْلار. هل تستطيعان ذلك؟"

تبادلَت البِنتان النَّظَرات، ثُمَّ أومأتا برأسَيهما بقُوَّة. وكان واضحًا أنَّ مِسي كانت مسرورةً جدًّا بأن تُشمَلَ مع البِنتَين الكُبريَين في هذا الواجب.

فقالت مارتي: "جيِّد. لقد تقرَّرَ الأمر. فالآن، لدينا أُمورٌ كثيرة يجب أن تُنجَزَ اليوم. أوَّلًا، أُريدُ منكم جميعًا أن تخلعوا أحذيتكم لأستطيع أن أرسُمَ نماذِجَ لأقدامِكُم لشراء أحذية جديدة لأجل المدرسة".

تورَّدَ وجهُ مارتي حالَما أدركت أنَّ فتاتَي آل لارسون كانتا بِلا حذاءَين.

وشرحَت كلاي بواقعيَّة: "أحذيتُنا كلُّها بالية، وما كانت لِتبقى بعد".

علَّمَت مارتي بدِقَّةٍ وعرَّفَت الأقدامَ على قِطَع الورَق الأسمر لدَيها. ففي ما بعد تقومُ بقَصِّها لِتُدَسَّ داخِلَ أحذية للتَحقُّق من القِياس.

ثُمَّ قالت للفتيات: "إذًا، الآنَ على كلاي ومِسي أن تغسِلا الصُّحون. مِسي، دُلِّي كلاي على المكان الذي فيه تُحفَظ المقالي والمناشف. نانْدري، تعالَي معي فأُريَكِ كيفَ تعتنين بالدَّجاج. ثُمَّ نجمَعُ ونُنظِّف البَيضَ لِيتَسنَّى لي أن آخُذَه مع ما سبَقَ أن وضعتُه جانبًا لِآخُذَه إلى المدينة.

وعلى نحوٍ غيرِ مألوف، سألَت نانْدري مُفعَمةً بالنَّشاط: "هل لي أن

أصطحِبَ آرني؟ فهو يحبُّ الدَّجاجَ أيضًا".

وافقَت مارتي، عِلمًا منها بأنَّ آرني يحبُّ الدَّجاج فعلًا، رُغمَ كونِها مُقتنِعةً بأنَّ ما يُحِبُّه أكثرَ الكُلِّ هو قَوقأةُ الفَراريج ورَفرفَتُها المُبهِجان عندما يُطارِدُها في أنحاء الخُمّ.

غادروا المنزل معًا. وكانت البِنتان الصُّغريان مُنصرِفتَين فعلًا إلى عمَلِهما في غسل الصُّحون.

لعلَّ الأمورَ ستُوضَع في نِصابها رُغمَ كلِّ شيء. فقد بدَتِ البناتُ توَّاقاتٍ تقريبًا إلى تأدية مَهامِّهِنَّ الجديدة. وتَنَفَّسَت مارتي الصُّعَداءَ، ثُمَّ تقدَّمت الطَّريقَ إلى مخزن الحَبّ، وفي إثرِها نانْدري وآرني.

١٠

رِحلةٌ إلى المدينة

كانت بعضُ الهواجِس ما تزالُ تُراوِدُ مارتي في الصَّباح التَّالي، إذ ربطَت قُبَّعتها وجمعَتِ البيض والزُّبدة والقِشدة لأجل الرِّحلة إلى المدينة. أينبغي لها فعلًا أن تترُكهم كُلَّهم وحدَهم، أم ينبغي لها على الأقلِّ أن تصطحِبَ آرني؟ قالت لنفسها لا، فهي بحاجةٍ لأنْ تُرسِّخَ شعورًا بالثِّقة والمسؤوليَّة لدى نانْدري وكلاي. ورُغمَ كلِّ شيء، كان أبوهما قد حمَّلَهما مسؤوليّاتِ بالِغينَ طَوالَ سِنين. فما كان في وسعها أن تطلُبَ منهما الرُّجوعَ إلى وضعٍ تُعامَلان فيه مُعاملةَ الصِّغار. وهكذا راجعَت معهما مُجدَّدًا التَّعليماتِ كلَّها، فأكَّدتا لها أنَّهما فهِمَتا وستلتزمان رغَباتِها.

ولكنَّها بِخُطًى مُتردِّدةٍ غادرت لِتَنضمَّ إلى كلارك في العربَة. فلوَّحت بيدها مُودِّعةً مرَّةً أُخرى بعد، وتكلَّفت ابتسامةً جريئة.

ناداها اكْلار قائلًا: "اجلبي لنا أشياءَ طيِّبة!"

وأضافت مِسي : "وبعضَ شرائطِ الشَّعر الجديدة للمدرسة".

فضحِكَ كلارك وقال: "تلك البنتُ تفُكِّرُ أكثر من اللَّازم بكثير في مظهرها!"

تكلَّفَت مارتي ابتِسامة.

وإذ غادرا البوَّابة، قالت: "كلارك، أتَعتَقِدُ أنَّه يحسُنُ بنا أن نترُكَهم على هذه الحال...مع البنتين وحدَهما و...؟"

قاطعها كلارك: "لماذا لا؟ ما برِحَتا تطبخان وتُنظِّفان منذ سنين أصلًا؟"

"ولكنْ لم يكُن لدَيهما صِغارٌ تهتمَّان بهم".

"صحيح، ولكنَّ الاهتمام بالصِّغار خصوصًا يبدو الأمرَ الفريد الذي يُبهج نانْدري".

ردَّت مارتي: "لاحظتُ ذلك أيضًا. إنَّها بالحقيقة تبدو مُستَمتِعةً بآرني. وهو يحبُّها أيضًا. أرجو حقًّا أن يمضيَ كلُّ شيء على خير، ولكنَّني لن أشعُرَ بالرَّاحة تقريبًا حتَّى نرجِعَ إلى البيت من جديد وأتمنَّى يقينًا أن تكونَ هذه رِحلةً سريعة".

"أظُنُّ أنَّكِ تقلقين وتضطربين فوقَ الحدّ، ولكنَّنا سنُحاوِل أن نُعجِّلَ قليلًا. لن يستَغرِقَ اهتمامي بالأُمور التي أحتاج إليها وقتًا طويلًا. فماذا بشأنكِ؟"

"لا ينبغي أن يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا. أحتاجُ إلى لَوازِمِ المدرسة للفتاتَين، وإلى البقالة العاديَّة".

"أنتِ بحاجة إلى مالٍ إذًا".

"لدَيَّ مُدَّخَراتُ بَيع البيض".

"لا داعيَ لصرف مُدَّخَراتكِ كلِّها على كِسوَة الفتاتين. أنا على استعداد للمُشاركة في الاعتناء بهما".

دسَّ كلارك الزِّمامَ بين رُكبتَيه وسحَبَ مِحفظتَه. ثُمَّ أخرَجَ ورقَتَين نقديَّتين.

"أتعتقدين أنَّ هذا كافٍ؟"

أجابت: "سيكون ذلك حسَنًا. إنَّني أُقدِّرُه. سيحتاجُ الأمرُ إلى القليل كي أُعِدَّهما للمدرسة على نحوٍ لائقٍ إلى حدٍّ بعيد. إنَّهما بالحقيقة لا تملكان الآن أيَّ شيء يُناسِبُ ارتداؤه".

فأومأ كلارك برأسه مُوافِقًا. "حسَنًا، علِمنا عندما أخذناهُما أنَّهما ستُكلِّفان شيئًا ما. فلا مُشكِلةَ هُنا".

ساقا إلى داخل المدينة لِيَجِدا الشَّوارِعَ مملوءة بالجَلَبة. كانت قافِلةُ عرَبات تتأهَّب للتَّحرُّك. وكانت الكِلاب تنبح، والأحصِنة تُراوِح، والأولاد يركضون في الشَّوارع زاعِقين. وقد تجادل الرِّجالُ في الأسعار، وتسارعت النِّساء في الأنحاء، راكضاتٍ إلى المتجر لأجل شَروةٍ في آخِر دقيقة، أو مُفتِّشاتٍ عن أولادٍ طُلِبَ منهم أن يبقَوا في أماكنهم ولكنَّهم لم يبقَوا. فهزَّت مارتي رأسَها وقرَّرَت أنَّها اختارت يومًا سيِّئًا للمجيء إلى المدينة، إذ إنَّ تبضُّعَها سيُبطَّأ إلى حدٍّ بعيد.

دخلَت متجرَ مكدونَلْد العامَّ بشيءٍ من الخَشية. إذ كانت تَرهَبُ دائمًا أن تُواجِهَ عينَيِ المالكة الفاحِصتَين ولِسانَها الحادّ.

وقد سبق أن قالت مارتي لكلارك ذاتَ مرَّة: "أُوَكِّد أنَّ لِسانَ تلك المرأة يفتقِرُ إلى أدنى حسٍّ منَ اللِّياقة".

فإذ سمِعَت مِسي الكلِمةَ وشُغِفَت بها، أخذَت مُنذ ذلك الحين تُصرِّح دونَ سائر الأشياء- خصوصًا حين تُخاطِبُ اكْلار الصَّغير- قائلة: "أنت تفتقِرُ إلى أدنى حِسٍّ منَ اللياقة".

بعد ذلك قرَّرت مارتي أنَّه خَيرٌ لها أن تضبِطَ لسانها بمزيدٍ من الانتباه في حضور مِسي.

فالآنَ قوَّمت مارتي كتِفَيها لمساعدِتها على استِجماع شجاعتها قبلَ فَتحِ بابِ مكدونَلْد. ولإراحتها، كانت السَّيِّدة مكدونَلد مشغولة مع ثلاثِ نِسوة من القافلة. فرمقت مارتي بنظرة وفتحَت فمها لِتُنادي بشيءٍ ما، ولكنْ لا بُدَّ أنَّها غيَّرت رأيَها لِتَصرِفَ كامِلَ انتِباهها إلى زَبوناتها. فابتسمَت مارتي باختِصار وعبَرَت إلى لفائف القُماش. يا لها من إراحة أن تُتركَ وحدها للقيام بخِياراتها! وحسَبَت ذِهنيًّا إذ رفعت ثوبَ قُماشٍ بعد آخَر. ينبغي أن تكون الفساتينُ الجديدة متينةً، ولكنْ كم أرادت أن تجعلَها جميلةً أيضًا! والأقمشةُ الجميلة رفعَتِ الثَّمن بسُرعة زائدة. من شأن الأزرق الدَّاكن أن يدومَ طويلًا، ولكنْ كيف يستطيع الشَّخص، يا تُرى، أن يجعله يبدو جذَّابًا لفتاةٍ يافعة؟ والفَوالُ

القَرَنفُليُّ النَّاعم كان جميلًا، إلَّا أنَّه بدا كما لو كان مُمكِنًا أن ترتشِفَ الشَّايَ من خلاله دونَ أن يُغيِّرَ حتَّى الطَّعم. فقلَّما كان مُناسِبًا لِفَتاةِ مزرعة.

كانت السَّيِّدة مكدونَلد الآن تستمتع بأخبارِ القِيلِ والقالِ التي أمكَنَ أن تُوفِّرَها المُسافِرات، مُتطفِّلةً بطريقةٍ شفَّافة تقريبًا على أسبابِ مجيئِهِنَّ أو ذَهابِهِنَّ. ورازَت مارتي خِياراتِها بحِرص، فلم تَنتَقِ الأزرقَ الدَّاكن ولا القَرَنفُليَّ. وقد حلَّلَت وعلَّلَت: **لا نفعَ في أخذِ قُماشةٍ تلبِسانِها أطولَ ممَّا ينبغي. ولكنَّكِ لا تدرين أبدًا...لعلَّ فُستانَ نانْدري يؤول إلى كلاي، ثُمَّ إلى مِسي...**أخيرًا انتقَت قطعةً من القُماش الأزرق السَّماويِّ، وقطعةً رماديَّة لؤلؤيَّة ستُكمِّلُ بها ياقةً وطوقَي كُمَّين بِيضًا، وبعضَ القُماش البُنِّيِّ المُدَفِّئ، وقطعتَين مُطبَّعتَين، إحداهما بخلفيَّة خضراء والأُخرى بخلفيَّة حمراء. ثُمَّ انتقَت لوازِمَ لِثيابٍ تحتانيَّة ومناماتٍ وقُبَّعات، وانتقلت لِتختارَ جواربَ وجزماتٍ وبعضَ القُماشِ الأثخن لأجلِ معطفَين. وإلى أن يحلَّ الطَّقسُ الأبرَد، تستطيعُ الفتاتانِ أن ترتديا كابَينِ تَخيطُهما من قُماشٍ لديها أصلًا.

وإذ أضافت ثوبًا بعدَ ثوب فوقَ الكُدس على النُّضُد لِتُقاسَ أطوالُها، تبيَّنَ لها أيَّةُ مَهمَّةِ خِياطةٍ هائلة تنتظِرُها. فكانت شاكرةً أنَّها اشتغلَت أصلًا في ثياب مِسي المدرسيَّة.

مِسي! لقد طلبَت شرائطَ شعرٍ جديدة. وتحرَّكت مارتي مُسرِعةً لتختارَ بعضًا لنانْدري وكلاي أيضًا.

جرى تَبضُّعُها حسنًا، بفَضلِ نِسوةِ قافلة العرَبات، إذ أبقَين السَّيِّدة مكدونَلد مشغولة. فوضعَت آخِرَ قِطَع القُماش على النُّضُد وراجعت لائحتها ثانيةً. حتَّى بوجود المال الذي أعطاها كلارك إيَّاه، سيَنفِدُ مُعظَمُ المال المُدَّخَر من بيع البيض والقِشدة. حسنًا، ما كانَ في وسعها أن تحولَ دون ذلك. لقد وعدَت تينا لارسون بأن تُعطيَ الفتاتَين فُرصة، وهي نَوَت أن تفعل ذلك تمامًا.

ثُمَّ انتقلَت إلى لائحة بِقالَتِها، واضعةً الموادَّ على النُّضُد لدى اختيارها. وقبلما انتهَت، دخَلَ كلارك المتجر. فارتفعَ حاجِباه حِيالَ الكُدس الكبير على النُّضُد، ولكنَّه لم يُدلِ بأيِّ تعليق.

بادرت مارتي قائلةً: "كدتُ أنتهي. هل حصلتَ على الأشياء التي كنتَ بحاجةٍ إليها؟"

"على كلِّ شيءٍ ما عدا قِطعةً للمِحراث. على الحدَّاد أن يطلُبَها، ولكنِّي توقَّعتُ ذلك. لهذا بعثتُ بالطَّلَب الآن بدَلَ الانتِظار إلى وقتٍ لاحق". وابتسمَ ابتسامةً عريضةً مُتشبِّثًا بالأمل. "توجد فُرصة كافية لوصول القطعة قبل حِراثةِ الرَّبيع".

جمَعَت النِّسوَةُ الأُخَر صُرَرَهُنَّ، وغادرنَ المتجَر، فتوجَّهَت السَّيِّدة مكدونَلد مُسرِعةً إلى كلارك ومارتي.

شرَعَت تتكلَّم، ولكنَّها لم تترُك أيَّ وقتٍ للإجابة: "حسنًا، حسنًا، كيفَ آلُ ديفِس؟ سمِعتُ أنَّكُما أخذتُما بِنتَي آل لارسون". وتحدَّتهُما

عيناها أن يُنكرا ذلك، مُعلِنتَين في الوقت نفسِه أنَّهما فقَدا عقلَيهما من أجل القِيام بذلك.

انتظرَتِ الآن مجرَّدَ لحظة، ولكنْ لم يُعلِّقْ لا كلارك ولا مارتي.

وقالت مارتي بهدوء: "وضعتُ مُشترَياتي هُناك، سيِّدةُ مكدونَلْد. أعتقد أنَّ ذلك هو كلُّ ما أحتاجُ إليه اليوم".

مضَتِ السَّيِّدةُ مكدونَلد لِتَقومَ بِجَمع ثمَنِ البقالة، ولكنَّ عينَيها الحادَّتَين وعَدَتا مارتي بأنَّها لم تفرغ منها بَعد. ولمَّا حسَبَت المرأةُ المجموع، تقدَّم كلارك ليدفَعَ تلك الفاتورة، ثُمَّ بدأ يجمَعُ المُشترَيات.

وأعلَمَ مارتي: "سآخُذُ موادَّ البِقالة خارجًا إلى العرَبة، ثُمَّ أرجِعُ لأُساعِدَكِ في الأشياء الأُخرى".

فطمأنَته مارتي: "أستطيعُ أن أحمِلَهنَّ. إنَّما انتظِرني في العربة فحسْب. أينَ الحِصانان؟"

"في جِهَةِ الشَّارع المُقابِلة تمامًا".

"جيِّد. سأكونُ هناك بسُرعةٍ كافية".

مشَت مارتي معه إلى الباب وفتحَته له إذ خرَجَ وكِلتا ذِراعَيه مُحمَّلتان. ثُمَّ شالت الصُّندوقَ الذي كانت قد تركته بقرب المدخل ووضعَته على النُّضُد.

وقالت للسَّيِّدة مكدونَلد: "ما أحضرتُه اليومَ من بيضٍ وزُبدة وقِشدة. أُريد أن يذهب الثَّمَنُ إلى هذه الأشياء، من فضلِك". وقد أشارت

بيدها إلى كُومة الأغراض على المنضدة.

لمَّا حسَبَت مارتي ثمَنَ مُنتَجاتِ المزرعة، بدأت تدفَعُ أثوابَ القُماش إلى الأمام، مُحدِّدةً اليارداتِ التي تُريدُها من كُلٍّ منها. وبينَ ضرَباتِ المِقَصِّ، استطاعت السَّيِّدة مكدونَلد أن تتطفَّلَ طلبًا للمعلومات المُشوِّقة التي كانت مارتي على يقين بأنَّ المرأة ستتمكَّن لاحقًا من نقلها إلى زَبوناتها التاليات.

"قالَ جَد إنَّكِ كنتِ مُتحمِّسة جدًّا للاحتفاظ بالفتاتَين". فهزَّت مارتي رأسها إيجابًا.

"النَّاسُ هُنا يُخمِّنونَ أسبابَ ذلك. ويقولُ بعضُهم إنَّكِ بوجودِ صِغارِكِ الثَّلاثة فكَّرتِ أنَّكِ تحتاجين إلى المُساعدة احتياجًا ماسًّا. إنَّما قلتُ أنا: «ما كانت السَّيِّدة ديفِس لِتنحطَّ إلى مُستوى استِغلال الأولاد تقريبًا»، ولكنْ...". ثُمَّ توقَّفَت وهزَّت كتِفَيها لِتُبيِّنَ أنَّها قد تكون مُخطئة.

"أنا قلتُ: يبدو لي أمرًا مفهومًا أكثرَ الاحتِفاظُ بهما لأجلِ أُجرةِ إيوائهما وإطعامِهما. فالبنات في عُمرِهما لا ينفعنَ كثيرًا في الشُّغل، ولكنْ بوجودِ كلِّ ذلك المالِ النَّقديِّ مُخَشخِشًا في جَيبِ جَد لا سبَبَ يحولُ دونَ استِحواذِ آل ديفِس على شيءٍ منه!"

استطاعت مارتي أن تُحِسَّ خدَّيها يتورَّدان غضبًا. كيف أمكن أن تَنخُسَها هذه المرأة!

”على كلِّ حال، قلتُ للنَّاس إنَّني، إذ أعرِفُكِ جيِّدًا، على يقينٍ حقًّا بأنَّ السَّيِّدة ديفِس لن تُرهِقَ بالعمَل هاتَين الاثنتَين، وقد يكونُ قليلٌ من العمَل الشَّاقِّ أحسَنَ شيءٍ لهما. ما اهتممَتُ كثيرًا قطُّ بهاتَين الفتاتين...صاحِبتَي الأعيُنِ المُراوِغة حقًّا. لقد نشأتا عديمتَي الجدوى مِثلَ أبيهما. أُراهِنُ على أنَّكِ لن تحصُلي منهما على كثيرٍ من الشُّغل، ولكنْ إذا تقاضيتِ بدَلًا نقديًّا لا بأسَ به...“.

لم تعُد مارتي قادرةً على احتمالِ المزيد.

وإذ حاولَت جاهدةً ألَّا تدَعَ غضَبها يظهر بواسطة كلماتها- وإن كانت قد علِمَت أنَّها ربَّما لم تكُن تنجَحُ في ذلك- قالت: ”سيِّدةُ مكدونَلد، لقد أخذنا الفتاتَين لأنَّ والِدتَهما أرادت لهما أن تَحظَيا بفُرصة، وأنا قطعتُ لها وعدًا قبلَ وفاتِها. وأنا أهدِفُ أن أفيَ بذلك الوعد إذا استطعتُ...ثُمَّ لم يكُن هُناك أيُّ مال، سيِّدةُ مكدونَلد. فالحقيقة هي أنَّ زوجي دفَعَ مالًا لِجَد لارسون حتَّى يُسمَحَ له بأن يحتفِظَ بابنتَيه“.

”فهِمتُ...“. ولكنَّ السَّيِّدةَ مكدونَلد استعادت وعيَها بسُرعة. ”ذلك هو ما أردتُ أن أعرِفَه. لماذا لم تقولي هكذا دونَ الجلَبةِ غير الضَّروريَّة كلِّها؟ بعضُ النَّاس مُتكتِّمون للغاية تقريبًا على المعلومات“.

ثمَّ أضافت: ”ذلك تمامًا هو ما كنتُ أتصوَّرُه. لقد فكَّرتُ أنَّ النَّاس كانوا مُخطئينَ في تخمينِهم“.

ها قد سجَّلَت السَّيِّدة مكدونَلد هدَفًا مرَّةً أُخرى. واستشاطت مارتي غضبًا. **لماذا تحصُلُ دائمًا على ما تُريدُه منِّي؟** لم تكُن قد أخبرَت أحدًا بوعدها لِتينا لارسون ما عدا ما غراهام، وما تحفظُ الأسرار بحِرص. والآنَ ستعلَمُ البلدةُ كلُّها، وستتغيَّرُ القِصَّةُ إذ تنتَقِلُ من فم إلى فم.

كافحَت مارتي للحفاظ على رباطةِ جأشِها، ودفعَت ثمَنَ المُشترَيات، وجمَعَت رِزَمها بسُرعة. فكانت الأشياء حِملًا لا بأس به، وتمنَّت مارتي لو قبِلَت عرْضَ كلارك أن يرجِعَ ليُساعِدَها.

"كلُّ هذه الأشياء الفاخرة ليست للفتاتَين، أهيَ لهُما؟ يبدو لي أنَّهما ستُطيلانِ المكوثَ في مزرعتكم، وكان في وسعكِ فعلًا أن تُرَقِّعي لهما ثيابَهُما العتيقة".

"ستُباشِرُ الفتاتان الذَّهابَ إلى المدرسة في أيلول المُقبِل". هذه الكلماتُ قالتها مارتي بحزم. وقد ميَّزَت في صوتها أثَرًا من الفخر. حسنًا، فليكُن. وقبلَ أن يُتاحَ للسَّيِّدة مكدونَلد أن تقولَ أيَّ شيءٍ بعد، توجَّهَت مارتي مُوطَّدةَ العزم إلى الباب بِخُطًى سريعة.

وإذ دخلَتِ الشَّارع كان الضَّجيج الصَّادرُ من قافلة العرَبات أكثرَ حدَّةً بَعد. كانت العربات قد أُوقِفَت في صفٍّ الآن، على أُهبة المُغادرة في غضونِ دقائقَ قليلة. وما زالَتِ الأحصِنةُ تُراوِح، والكلاب تنبح، والأولاد يزعقون، ولكنَّ مُقايَضاتِ الرِّجال كانت قدِ انتهت ومُشترَيات النِّساءِ الأخيرةُ قد تمَّت. وقد وقف النَّاسُ جماعاتٍ بقُرب

العرَبات مُودِّعين ومُقدِّمين رسائلَ الدَّقيقة الأخيرة لِتُنقل إلى شخصٍ ما في النَّاحية الأُخرى من الرِّحلة.

لا بُدَّ أنَّ العرَبة الثالثة في المؤخَّر كانت عرَبةَ مُسافِرين فحسْب، كما استنتجَت مارتي، لأنَّ مجموعةً شتَّى من النَّاس بدَت على مَتنها. كان شادِرُ العرَبة مفتوحًا بشكلٍ مُوَقَّت، وقد وُضِعَت مقاعِدُ من ألواحٍ عبْرَ صندوق العرَبة. وبدا أنَّ مُعظَم الرُّكَّاب قائمون برِحلة قصيرة الأمَد، رُبَّما إلى مركزٍ قريبٍ أكبر، لأنَّه كان واضحًا أنَّهم سافروا مُتَخفِّفين. فلعلَّهم رِجالٌ في مهمَّة تجاريَّة، ونِساءٌ ذاهباتٌ لِتَسوُّقٍ أو زيارة. وقدِ اصطحبَت بعضُهنَّ أولادًا صغارًا، ونمَّت أوجهُهُنَّ عن تَرقُّبٍ حِيالَ الرِّحلة العتيدة.

في خِضَمِّ الصَّخَب والحماسة، قعدَت امرأةٌ شاحِبةُ الوجه، كئيبةُ العينين، معها ثلاثةُ أولادٍ صِغار. كان أحَدُهم يبكي، وآخَرُ مُتشبِّثًا بأُمِّه في خوف، فيما قعَدَ الثَّالث والأكبر، وهو صبيٌّ، غائرَ الخَدَّين وساهيًا، مُحدِّقًا أمامه بصَمتٍ فحسْب.

قالَ صوتٌ عندَ كتِف مارتي: "تلك هي السَّيِّدة تالْبوت من طرَفِ البلدة الآخر". فالتفتَت قليلًا لترى أنَّ السَّيِّدة مكدونَلد قد خرجَت من المتجر، لِتَستوعِبَ كامِلَ الحماسة والتأثُّر، دونَ شكّ. وما لبِثَت أن أفادت: "ما كان عليها قطُّ أن تجيءَ إلى الغرب. إنَّها غيرُ مصنوعة من المادَّة الصَّحيحة. فهي مُغادِرة، راجِعة إلى ديارها". وقد كانت

كلماتُها مُرَخَّمة، وبدَت بالأحرى لاذعة.

نظرَت مارتي إلى الشَّابَّة المِسكينة، وتمنَّت من كلِّ قلبها لو أُتيحت لها فُرصةٌ كي تتكلَّمَ معها.

وفجأةً اندفَعَ عبْرَ الحشْد شابٌّ شِبه راكض. فهبَّ الولَدُ الأكبَرُ واقفًا، فاتحًا ذِراعَيه واسِعتَين، وهتَفَ مُبتهِجًا. وبدَتِ المرأةُ مرعوبةً. لم تستطِع مارتي أن تسمع الكَلِمات، ولكنَّها أدركت أنَّ الرَّجُلَ كان يُجادِلُ ويتوسَّلُ إلى المرأة لِتَبقى. غيرَ أنَّ المرأةُ اكتفَت بأن أطبقَت شفتَيها بإحكام، وهزَّت رأسها نفيًا. وأخيرًا أدارت له ظهرَها تمامًا، مُبقيةً كتِفَيها مُتصلِّبتَين ومُعانِدتَين.

ثُمَّ صدَرَ الأمرُ أنْ "ترحَّلُوا"، فبدأت العَرَباتُ البطيئة تتحرَّك إلى الأمام بِصَريرٍ وصريف. واضطُرَّ الرَّجُل لأنْ يُحرِّرَ نفسَه من ذِراعَي الولَد الباكي ويدفعَه برِفقٍ رجوعًا إلى داخل العرَبة. فصاحَ الولَدُ وزعَّقَ وراءه، وإلى لحظةٍ مُروِّعة خُيِّلَ إلى مارتي أنَّه سيقفزُ من العرَبة.

حدَّثت مارتي نفسها مُنتَحِبةً: **سوف يتمنَّى طَوالَ حياته لو ترَكَ هاتَين الذِّراعَين الصَّغيرتين حولَ عُنقه وأبقى الصَّبيَّ الصَّغيرَ معه.**

عبَرَتِ العرَبةُ مُجاوِزةً مارتي، فلم تستطِع أن ترى وجهَ المرأة، ولكنَّها لاحظَت أنَّ كتِفَيها قد فقدَتا تحدِّيَهُما وباتتا الآن ترتجفان بِتَشنُّج.

صاح قلبُ مارتي: **آه، أيَّتُها الآلةُ العنيدة، ارجِعي...ارجِعي!** ولكنَّ العرَبةَ واصلَت سيرَها.

دارت مارتي لِتَرى الرَّجُل، فإذا يداهُ على وجهه، وهو مُستنِدٌ إلى دَرابزين لربْط الخَيل، طلبًا للدَّعم، والبُكاءُ المُتقطِّعُ يعتَصِرُ جِسمَه.

غمَرَ غَثيانٌ كِيانَها كُلَّه. لقد كان أمرًا خاطئًا، بل شِرِّيرًا وقاسيًا جدًّا، أن تُشَقَّ عائلةٌ على ذلك النَّحو!

قال الصَّوتُ بجانب مارتي: "أقولُ إنَّها راحت وأراحت!" فالْتفتَت بسُرعة ومشَت باضطِرابٍ عبْرَ الشَّارع إلى العرَبة المنتظِرة.

وضع كلارك صُرَرَها في صندوق العرَبة، وساعدها على الصُّعود. ثُمَّ تحرَّك الحِصانانِ إلى خارج المدينة، امتِثالًا لأمره.

قطَعا بعض المسافة صامتين. وقد ألقَت شمسُ الصَّيفِ الحارَّةُ أشِعَّتَها على الزُّهور الحديثة المُتحرِّكة عند جانبَي الطَّريق، وغطَّت العصافير إيابًا وذَهابًا في طريق الحِصانَين. كان غضَبُ مارتي وألَمُها قد بدأا يسكنان، ولكنَّ أفكارَها المُشوَّشة ما بَرِحَت تُكافِح لاستِجلاء الأُمور كلِها.

وفجأةً شعرَت بيدها ممسوكةً بإحكام، فرفعَت نظرَها إلى داخل عينَي كلارك المُتفحِّصتَين.

سألها: "إذًا، رأيتِ ذلك أيضًا، هَه؟"

فأومأت برأسِها إيجابًا بِصَمت، وعيناها مُغرَورِقتان.

وضغطَ على يدها ثانيةً.

ولمَّا شعرَت أخيرًا بما يكفي من السَّيطرة لِتَتكلَّم، قالت: "آهِ

كلارك!" ثُمَّ أكملت بتدفُّقٍ عاطفيّ: "لقد كان الأمرُ خاطئًا جدًّا، ومُروِّعًا جدًّا، و...و...كان ممكنًا أن أكونَ أنا مكانَ تلك المرأة".

فأجاب بحزم: "ولكنْ لم يكُن ذلك. لم يكُن حقًّا. وبطريقةٍ ما...بطريقة ما، لا أعتقِدُ حقًّا أنَّ ذلك كان ممكنًا أن يكون".

رفعَت مارتي نظرَها مدهوشةً لِتَلتقيَ حَملقتَهُ الهادئة. وقد طمأنَها تواصُلُهُما الصَّامت.

أخيرًا قالت، باقتناعٍ مُماثِل: "لا، لا، ربَّما لم يكُن ممكنًا أن يكونَ ذلك أبدًا".

لقد كان كلارك صالحًا لها...صالحًا تمامًا. وكان حبُّهما قويًّا ومتينًا. فالرَّبُّ الصَّالِحُ قد هيَّأهُما الواحِدَ للآخر...حتَّى حينَ لم تكُن مارتي قد تعرَّفت به، بل كرِهَت أيضًا فكرةَ البقاء مع كلارك. نعم، لقد كان لِحُبِّهما وَعدٌ...وعدٌ ثابت.

١١

عائلة ومُعلِّم

لَدى رجوعِ مارتي وكلارك إلى المزرعة كان كلُّ شيءٍ مُرتَّبًا، فلم تستطِع إلَّا أن تتنفَّسَ الصُّعَداء. وقد سُرَّ آرني كثيرًا بأن يرى أُمَّه، إلَّا أنَّه سرعانَ ما نسيَ أنَّها كانت غائبة فاستمرَّ في لَعِبه.

فضلًا عن مَهامِّ مارتي اليوميَّة المُعتادة والاهتمام بالحديقة، كان لَدَيها أسابيعُ قليلةٌ فقط لإنجاز الخِياطة التي نَوَت أن تقومَ بها لأجل فتاتَي آلِ لارسون. وبدا أنَّ نانْدري قبِلَت الأشياءَ الجديدة باعتبارها غيرَ ذاتِ شأن، أمَّا عينا كلاي فقد اكتسبَتا بريقًا إذ أخرجت مارتي كلَّ شيء ووزَّعت على كِلتا الفتاتَين ما يخصُّهما. وفي الحال تقريبًا باشرت مارتي دروسَ الخِياطة مع كلاي، فتبيَّن لها أنَّ الفتاة تلميذة جيِّدة. وقد سَرَّ ذلك كِلتَيهما، وتمكَّنت كلاي فِعلًا من أن تكونَ مُساعِدة وتقومَ بأُمورٍ أكثرَ فأكثر. كذلك نانْدري أيضًا عُلِّمَت كيف تَخيط، ولكنَّها لم تبدُ مُهتمَّةً قطُّ، رُغمَ قِيامها بحرَكات العمل على نحوٍ جيِّد إلى حدٍّ كافٍ. إنَّما كانت أكثرَ انهِماكًا بكثير في الاعتناء بآرني وتسليةِ اكْلار. وكان إسهامُ نانْدري في شؤون أهلِ البيت مُقدَّرًا جدًّا. فإذ أُبعِدَ الصَّبيَّانِ

الصَّغيران من بينِ الأقدام، تقدَّمت خِياطةُ مارتي وكلاي بِلا عراقيلَ كثيرة، كما تقدَّمت أيضًا المَهامُّ الأُخرى التي وجَبَ القيامُ بها.

نظر كلارك إلى الملابس المُنجَزة وابتسم إبداءً لاستِحسانه. وأكَّد: "ستبدو بناتي كلُّهن جميلاتٍ تمامًا إذ يجلِسنَ في غُرفة الدَّرس الجديدة تلك". فتورَّدَ وجه نانْدري وأشرقت أساريرُ كلاي لِكَونهما شُمِلتا في قوله "بناتي".

بدأت مارتي تُلاحِظ أشياءَ صغيرة، وتساءلت هل كانت نانْدري مُعجَبةً قليلًا بِالمُحسِنِ إليها. إذ كان ظهورُ كلارك هو الأمرَ الوحيد الذي يُحدِثُ في الأساس تغييرًا في سيماء وجه نانْدري، وغالبًا ما لمحَتها مارتي تُراقِب كلارك وهو يتحرَّك في أنحاء الفِناء. وقد لاحظَت، فيما تُرتِّب نانْدري المائدةَ، أنَّ صحنَ كلارك وأدَواتِ طعامهِ تُرتَّب بعنايةٍ خاصَّة.

فكَّرَت مُتنهِّدةً: **أظنُّ أنَّني سأكون مسرورةً جدًّا عندما تذهب تلك الفتاةُ إلى المدرسة.** ولكنَّها ما لبِثَت أن أنَّبَت نفسها. إذ قالت في سرِّها لائمةً- وقد تورَّدت رُغمَ إرادتها- **يا لكِ من مُغفَّلة ساذَجة! ها أنتِ تُعانينَ وخزاتِ غَيرةٍ من أجلِ فتاةٍ صغيرة.**

فاجأها قليلًا أن تكتشِفَ هذا الشُّعور. ولم تكُن قطُّ مِن قبل في وضعٍ يجعلُها تشعر بأنَّها مُهدَّدة، إذ لم تُضطرَّ قطُّ إلى مُشارَكة أحَدٍ لها في كلارك، ما عدا أولادها.

فصلَّت: "أللهُمَّ، سامِحني وساعدني حتَّى لا أكونَ أنانيَّةً حِيالَ الرَّجُل الذي أُحِبُّه. إنَّ نانْدري في طَور البُلوغ، ولعلَّها تكبر بسُرعة زائدة، ولكنْ دونَ أيِّ خِيارٍ لها في ذلك. لم يكُن لدَيها كثيرٌ ترفَعُ نظرَها إليه في والدها، والآنَ إذ ترى رجُلًا كثيرَ الاهتمام وعطوفًا، يشتغِلُ باجتهادٍ، وفي عينيه لُطفٌ ومُراعاة، فلا عجَبَ أن يروقَها تقريبًا. على كلِّ حال، يا ربّ، ساعِدني كي أكونَ حكيمة، وكي أكونَ مُنصِفة. ساعِدني كي أُحِبَّ نانْدري وكي أُساعِدَها على اجتياز سِني البلوغ المؤلِمة تلك. وساعِد كلارك أيضًا. أعطِه حِكمةً في اهتمامه".

لم تأتِ مارتي على ذِكرِ مُلاحظاتِها أمامَ كلارك. فما كان مِن نَفعٍ في لَفتِ انتِباهه إلى شيءٍ بدا أنَّه غيرُ مُتنبِّهٍ إلَيه كلِّيًّا. وما كان ذلك ليُنجِزَ أيَّ خير، بل ربَّما كان سيؤدِّي فقط إلى وضعِ عائقٍ غير طبيعيٍّ بين الرَّجُل والفتاة، وقد كانت نانْدري بحاجة ماسَّة لأنْ تتمكَّن من الانفِتاح والتَّواصُل، حيثُ تُحِبُّ وتُحَبُّ. ورَجَت مارتي في سِرِّها ألَّا يُدرِك كلارك أبدًا أنَّ الصَّبيَّةَ كانت ترعى افتِتانًا شَبابيًّا.

في أغلب الأحيان، كان كلارك بعيدًا في الحقول. ومع أنَّ نانْدري كانت تعتني بالدَّجاج والصِّغار في صمتٍ نِسبيٍّ، فقد لاحظَت مارتي أنَّها كانت تنظُرُ بعيدًا باتِّجاه المكان الذي يشتغل كلارك فيه، كما لاحظت تَورُّدَ وَجهِها عندَ دخوله إلى المنزلِ. إنَّما لم يبدُ قطُّ أنَّ كلارك يُلاحِظ ذلك، وكان يُغايِظُ كلَّ واحدة من بناته بالتَّساوي.

لمَّا كانت مِسي ستُكمِلُ السَّادِسَةَ من عُمرِها، كان ما يزالُ في وسعها أن تتسلَّقَ وتقعُدَ على رُكبة أبيها، أو تُصِرَّ على تمشيط شعرِه، أو تُكَنكِن بجانبه تحتَ سِترِ ذِراعه.

وكان اكْلار "مُعاوِنَ" أبيه، يتبَعُه أينما استطاعت خطواتُه الصَّغيرةُ أن تحمِلَه. وغالبًا ما عنى ذلك أن يعود على كتِفَي كلارك وظهرِه، لأنَّ الصَّبيَّ الصَّغيرَ كان يُرهَقُ بِسُرعة.

كذلك صمَّمَت خُطى آرني الدَّارِجةُ أن تتبعَ پا أيضًا، وكثيرًا ما كانت مارتي تنظُرُ خارجًا من النَّافذة فتهزُّ رأسَها حِيالَ كلارك الصَّبور مُحاوِلًا أن يُنجِزَ مَهامَّه وصبيَّانِ صغيرانِ "يُعاوِنانِه"، ممَّا يجعَلُ أشغالَه أصعَبَ ما يكون. غير أنَّ مارتي علِمَت تمامًا أنَّ كلارك أيضًا وجد ذلك مُمتِعًا.

ومع أنَّ كلارك كان صبورًا ومُحِبًّا مع عائلته، فقد كان حازمًا جدًّا، وكان على مارتي أحيانًا أن تعضَّ لِسانَها حين تشعُرُ أنَّ كلارك يتوقَّعُ أكثرَ قليلًا ممَّا ينبغي بالنِّسبة إلى سِني الأولاد الغضَّة. لقد كان من شأنها أن تُدلِّلَهُم، أمَّا كلارك فما كان لِيَفعلَ ذلك، إذ كان لديه اقتِناعٌ راسخ بأنَّ ما يتمُّ تَعلُّمُه من طريق التأديب في السِّنينَ الباكرة لن تدعوَ الحاجةُ إلى تَعلُّمهِ مُجدَّدًا من طريق دُروسٍ أشدَّ إيلامًا في ما بعد.

بدا أنَّ كلاي نسِيَت تقريبًا أنَّها عاشت أصلًا في مكانٍ آخر معَ سِوى آل ديڤِس. ومع أنَّ كِلتا الفتاتَين لم تُنادِهما بابا وماما، فقد

شعرَت مارتي بأنَّ كلاي نظرَت إليهما حقًّا بتِلك الصِّفة. وهي أُعجِبَت بكلارك صراحةً واستمتعت بمُغايَظته لها، بل مُغايِظةً إيَّاه أيضًا في المقابِل، وعيناها تبرُقانِ ابتِهاجًا.

وهكذا تكيَّفوا بعضُهم مع بعض، وبدأ يسودُ شعورٌ بأنَّهم عائلةٌ واحدة. وقد كان التَّعبُّدُ الصَّباحيُّ إلى مائدةِ الفَطور وقتًا مُميَّزًا. إذ أصغَتِ البِنتانِ الكُبرَيانِ بانتِباهٍ إلى أشياءَ ما سمِعَتاها قَطُّ مِن قبل، فيما توسَّلَ مِسي واكْلار لأجل قِصَصِ الكتاب المقدَّس المُفضَّلة عندَهما.

أخيرًا، أُنجِزَ من الخِياطة ما يكفي لِتَتمكَّن البناتُ على الأقلِّ من مُباشرة التَّعلُّم في المدرسة وهُنَّ مُرتدياتٌ ثيابًا لائقة. أمَّا ما تبقَّى فستتولَّى مارتي إكمالَه حسْبَما يتيسَّر لها الوقت.

ازدادت حماسة مِسي مع كلِّ يومٍ يمرُّ. وأرادت كلَّ صباح أن تعرِفَ كم يومًا بقيَ قبلَ بدءِ المدرسة. فأحسَّت مارتي أنَّ الفتاةَ الصغيرة كانت على شَفير الهِستيريا، وحاولَت أن تُهدِّئَها. واكتفى كلارك بالضَّحِك ونُصح مارتي أن تدَعَ مِسي تستمتِعُ بالتَّرقُّب. وقد غيَّرَت مِسي رأيَها كلَّ يوم بشأنِ ما ستَلبسه في أوَّلِ يومٍ لها، مُنتقِلةً من النَّقش المُربَّع، إلى الرَّماديِّ، فإلى الأزرق، ثُمَّ إلى المُربَّع ثانيةً، مِرارًا وتكرارًا. أخيرًا استقرَّت على الأزرق، لأنَّها أحبَّت شرائطَ شعرِها الزَّرقاءَ أكثرَ الكُلِّ. أمَّا حُزنُها الوحيد الباقي فكان أنَّ تومي لن يكونَ هُناك.

قالت لِكْلاي: "سوف أتزوَّج تومي".

فأجابت كلاي: "عُمرُكِ خَمسٌ فقط".

وردَّت مِسي : "أنا في السَّادسة تقريبًا".

"ولكنَّ تومي في العِشرين تقريبًا".

فقالت مِسي : "صحيح!" وقد هزَّت كتِفَيها هِزَّةً قويَّة، فحسَمَ ذلك الأمر.

سيكونُ جيِّدًا لمِسي بالحقيقة أن تحتكَّ أكثرَ بأولادٍ آخرين. ولَسَوف تكون مارتي مسرورةً حقًّا حين تنطلِقُ المدرسةُ أخيرًا.

كان يومُ السَّبتِ السابقُ لبدء المدرسة يومَ آمالٍ عظيمة في بيت آل ديڤِس. فقد دُعيَ أهلُ الحيِّ كلُّهم إلى اجتماعٍ في مبنى المدرسة، حيثُ أُتيحَت فُرصةٌ للأهالي والأولاد كي يُقابِلوا الأُستاذ وِلبُر وِتِل، ولَهُ كي يُقدَّم إلى التَّلاميذ. وافترضَت مارتي أنَّه لم يكُن في المِنطقة كُلِّها بيتٌ لم تؤثِّر فيه الحماسة.

ضُرِبَ مَوعِدُ الاجتماع عند السَّاعة الثَّانية بعدَ الظُّهر، وقد قرَّرت نِساءُ الحيِّ أن يُقدِّمنَ القهوةَ والكعك في خِتامه. وقد علَّقت السَّيِّدة اسْتِرن بحكمة: "الأكلُ معًا يكسِرُ جليد الخجل دائمًا، إن جازَ التَّعبير".

في بيت آل ديڤِس، كانت وجبةُ الظُّهر شأنًا مُعجَّلًا إلى حدٍّ بعيد، وقد غُسِلَت الصُّحونُ في الحال، رُغمَ ثرثرة مِسي المسُتمرَّة، وهي تُخبِر

كلاي بجميع الأشياء التي ستراها وتعمَلُها عندما يحلُّ صباحُ الاثنَين. وقد أولَت مارتي هِندامَ كلِّ فردٍ في العائلة عِنايةً خاصَّة. فما كانت نانْدري وكلاي قد بَدَتا قطُّ أحسنَ منهما الآن. ما زالت نانْدري غامضةً بشأن فُرصةِ تَعَلُّمِها الآتية، وإن كانت مارتي قد رأتها تنظُرُ إلى كلارْك لأجل تقييم مظهرها. أمَّا كلاي، في المُقابل، فقد أشرقت حماسةً وانفعالًا بشأن هذه الفُرصة، راكضةً ذَهابًا وإيابًا بين مارتي والمرآة لترى يقينًا كيف تبدو. وهي بِخَدَّيها المتورِّدين، والشَّريطةِ الجديدة رابِطةً شعرَها إلى الوراء، بدَت جميلةً تمامًا. وحقيقةُ كونِ كلاي قد ساعدَت في خِياطة الفُستان الذي ترتديه ملأتها بالفخر الصَّادق. وقد مدَحَتها مارتي، جاعلةً خدَّيها الورديَّين يصيران أزهى بعد. كذلك علَّقَت مارتي على فُستان نانْدري، فومَضَت عينا الفتاة لحظةً، إلَّا أنَّها لم تسمح لنفسها بأيَّة استِجابةٍ إضافيَّة.

وثَبَت مِسي مرحًا في أنحاء المنزِل، راقِصةً ومُغنِّية. وأشركَت اكْلار وآرني الصَّغير في القِيام بالشَّقلبة والهَزهزة معها. وهزَّت مارتي رأسَها ساخِطةً إذ حاولت أن تربِطَ شريطةً في حُلَيقاتِ شعرها. أخيرًا تمكَّن كلارك ومارتي من مُواكبَة صِغارِهما إلى خارجِ الباب، بشَيءٍ يسيرٍ من النِّظام.

كان ذلك يومًا جميلًا لاجتماع التَّرحيب هذا الذي ضمَّ الجيران، وبدا أنَّ الجميع قد حضروا لأجل هذا الحدَث المُهِمّ. وقد رُبِطَت العرَبات والأحصِنة في الطَّرَف البعيد من ساحة المدرسة، وتجمَّعَ

الأهالي خارِجَ مبنى المدرسة وداخِلَه، إذ لم يكُن مُتَّسَعٌ كافٍ كي يدخُلَ الجميعُ في وقتٍ واحد.

حيَّا الجيرانُ بعضُهم بعضًا، وفاضَ الحديثُ الودِّيُّ في كلِّ ناحية. وكان طِفلا الرَّبيع هُناك، يُعرَضان ويحظيان بالإعجاب. فكانت أليزابيث آن الصَّغيرة مُتألِّقَةً بالبَسَمات والهَديل المُتكرِّر. وقد أصرَّت على أن تُحمَل عاليًا حتَّى لا يفوتَها شيء، وحاولَت حتَّى الجلوسَ وحدَها. وكما سمَّتها جدَّتُها الفَخور، كانت "صُرَّةَ طاقةٍ هزَّازةٍ". وأخذَت مارتي دَورًا كي تحمِلَها، فكان عليها أن تُوافِقَ على هذه التَّسمية، سواءٌ أكانت مُنحازةً أم لم تكُن.

وقد كان هُناك أيضًا وَنْدا وكام، مع ابنِهما الجديد، أقَرَت دي ونتُن جان. وكانت مارتي قد حسِبَت ذلك اسمًا طويلًا بالأحرى لِصَبيٍّ صغير، إلَّا أنَّها فوجئَت إذ علِمَت أنَّ أباه- بعد جميع أفكاره العظيمة بشأن ابنه- قد اختصره لِيَصير "رَت" فحسْب. وكانت صحَّةُ الطِّفل رَت قد تحسَّنت بسُرعة بعد ولادته العسيرة نوعًا ما، حتَّى بات الآن صبِّيًّا كبيرًا بالنِّسبة إلى عُمره.

وقد علَّق أبوه قائلًا: "انظُروا ذاك، هُه، انظروا ذاك الصَّبيَّ، وهو لم يبلغ بَعدُ خمسةَ أشهُر. سيكون فتَى كبيرًا، ذاكَ الولد". وابتسمَ ابتسامةً عريضة جدًّا، فيما ابتسمت وَنْدا بقُربه في هدوء.

وافقت مارتي وأخذت الطِّفلَ رَت، فحملَته بعضَ الوقت، مُتمشِّيةً به

حولَ الفِناء. أخيرًا كان عليها أن تُقِرَّ بإشارات الإنذار اليَسيرة التي ارتعشَت في ذِراعَيها صعودًا إلى قلبها. فالطِّفلُ لم يكُن يتحرَّك كما ينبغي لأيِّ صغيرٍ في عُمره. ولمَّا رفعَته إلى كتِفها، لم تحصُلِ الرِّفعةُ الصَّحيحة لرأسه. وبكى قلبُها: "بهذا الطِّفلِ خَطبٌ ما!" فنظرَت إلى أُمِّه المُبتَهِجة، وأبيهِ الفَخور، وصلَّت طالبةً ألَّا تكون عيناها قد خدعت أفكارها، وأن يتبيَّن أنَّها مُخطئة. غيرَ أنَّها لم تستطِع أن تُبدِّد من قلبها شعورًا ثقيلًا.

في الثَّانية وعشر دقائق، دخلَت عرَبةُ آل واتلي الفناء أخيرًا، والمُعلِّمُ الجديد جالسٌ في المُقدَّم بقُرب السَّيِّد واتلي. فشخصَت جميعُ العيون إلى ذلك الرَّجُل. لم تكُن مارتي مُتَيقِّنةً ماذا توقَّع أيٌّ من الجيران على وجه الاحتمال، ولكنَّها كانت مُقتنِعةً تقريبًا بأنَّ أحَدًا لم يُصوِّرِ الرَّجُلَ أمامَهم. فقد كانوا مُعتادينَ أن يرَوا مُزارِعين أقوياءَ مفتولي العضَل هُنا على الحُدود في العَراء، وهذا الرَّجُلُ المُحترم بدا في غير محلِّه نوعًا ما. فهو لم يكُن فقط قصيرَ القامة، بل كان ضعيفَ البِنية أيضًا. وما افتقرَ إليه في الحجم بدا أنَّه عوَّض عنه بشارِبَين ضخمَين. ومع أنَّهما كانا مُرتَّبَين بدِقَّة ومُشمَّعَين عندَ الطَّرَفَين، فقد أخفَيا تقريبًا نِصفَ وجههِ الأسفَل.

كانت صُدرَتُه من قُماشٍ مُتصالِب لمَّاع، وقد لبِسَ طِماقَي كاحِلٍ أبيضَين، الأمرُ غيرُ المألوفِ في هذا الجزء النَّائي من الغرب. واضطُرَّت مارتي إلى إسكات مِسي بسُرعة إذ سألت بهَمسٍ عال: "ماذا يلبَسُ

فوقَ قدَمَيه؟" كذلك غطَّت رأسَه الصَّغيرَ قُبعَّة مُستديرة سوداء، كثيرًا ما مدَّ يدَه لِيَنزعَها وينفُضَ الغُبارَ عنها ثُمَّ يعتَمِرها من جديد.

أراحَ مارتي أن تُلاحِظَ اشتِمالَ سيمائه على مودَّةٍ وفضول في آنٍ معًا.

كان كلارك قد كُلِّفَ أن يُديرَ الاجتماع، فعبَّرَ عن ترحيبه بالأُستاذ وِلبُر وِتِل بألطَفِ أُسلوب، وقدَّمه باسمه إلى الجُمهور. واستجابَ الحُضورُ بالابتسامات والتَّصفيق، حتَّى أُولئك المُستمعون من خارج. ثُمَّ أعلن كلارك اسمَ كلِّ عائلةٍ في الحيّ، طالبًا أن يقِفَ أفرادُها معًا لكي يُقدَّموا ويُعرَفوا على نحوٍ صحيح. وكان الأُستاذ وِتِل يحني رأسه ويبتسِمُ لهم تِباعًا.

بعدَ التَّعريف بالجميع، طُلِبَ إلى المعلِّم الجديد أن يقولَ كلِمة. وتوقَّعَت مارتي أن تسمع صوتًا ضعيفًا يُناسِبُ الرَّجُلَ الضَّئيل، إلَّا أنَّها فوجئت لمَّا سمِعَت صوتًا عميقًا يبرُز.

ففكَّرت مذهولةً: **عجبًا! لا بُدَّ أنَّه تمرَّس سنينَ كثيرة لِيَتمكَّن من القِيام بذلك.**

ولكنَّ صوتَ الأُستاذ وِتِل لم يكُن عاليًا، وكان على مُستمعيه أن يُصغوا بانتِباه لِيَسمعوا كلماته. وقد عبَّر عن سروره بكونه قدِ انتُقِيَ لِيَكون المُعلِّمَ في مدرستهم.

أجابت مارتي في سرِّها: **أنت كلُّ ما استطعنا الحصول عليه.**

وقال لهم إنَّه فُتِنَ بالمكان الجيِّد الذي أعدُّوه باهتمامٍ كي ينزِلَ فيه.

فأضافت مارتي عقليًا: **كانت هي المرأةَ الوحيدة التي لدَيها مُتَّسَع.**

وعبَّر عن سروره برؤية التِّسهيلات الحسَنة والاختيار الدَّقيق للأدوات التعليميَّة المُساعِدة.

لم تكُن مارتي مُتيقِّنة تمامًا بما كان يُشير إليه، فتركت ذلك التَّعليق يمرّ.

كان يتطلَّع إلى علاقةٍ حُبِّيَّة بكلِّ فردٍ في الحيّ، الكبار والصِّغار على السَّواء. وسيتطلَّع إلى التعرُّف بهم بعد، لأنَّه يعلم أنَّ ذلك سيكون مُنبِّهًا ومُكافئًا فكريًّا في آنٍ واحد.

حسنًا، نعَم أستاذ! شعرت مارتي بمَيلٍ إلى قولِ ذلك مع تقديمِ تحيَّة، ولكنَّها لم تفعل.

ستبدأ الصُّفوف يومَ الاثنين التَّالي في السَّاعة التَّاسعة تمامًا، ويُقرَع الجرَس قبلَ خمسِ دقائق من السَّاعة. وعلى كلِّ ولد أن يكون قاعدًا ومُستعدًّا لِمُباشرة تمارين الافتتاح عند تمام السَّاعة. فلن يُقبَلَ أيُّ تلكُّؤ. ستُعطى استراحتان، مُدَّةُ كُلٍّ منهما خمسَ عشرةَ دقيقة، في أثناء النَّهار، وساعةٌ عندَ الظُّهر لِتَناوُل الغداء، وإتاحةِ وقتٍ للتَّلاميذ لأجل التَّنشيط البدَنيّ. ثُمَّ تنتهي الصُّفوف عند السَّاعة الثالثة من كلِّ يوم.

سيستفيد الأولاد من انتِباه المعلِّم المُركَّز وثقافته المُتقدِّمة، إذ تلقَّى التَّدريب في واحدةٍ من أعرَقِ مؤسَّسات البلد، وهي مُعتبرَة عالميًّا من

أجل أساتذتها المُمتازين ومُقرَّراتها الشَّامِلَة والكاملة.

استمرَّ على الخطِّ نفسه بِضعَ دقائقَ أُخرى، ولكنَّ انتباهَ مارتي تشتَّتَ على يد السَّيِّدة ڤِكَرز إذ مالت نحوَ السَّيِّدة اسْتِرن وهمست بصوتٍ عالٍ تقريبًا: "آمُلُ أن يعنيَ أنَّه ما زال ناوِيًا أن يُعلِّم".

فأومأت السَّيِّدة اسْتِرن برأسها بقوَّة تأكيدًا لكونه عازمًا على ذلك.

أخيرًا انتهى الاجتماع بإعطاءِ جُمهور الحيِّ المُعلِّمَ جولةَ تصفيقٍ حادَّة، فابتسمَ للحشد مُبتهِجًا وانكفأ.

قدَّمت مارتي والنِّساءُ الأُخَرُ القهوةَ والكعك، واستؤنفت الأحاديثُ المُفعَمةُ بالحيويَّة بين الجيران. ولمَّا فرِغَت مارتي، أحضرَها كلارك كي يُقدِّمَها إلى الجيران الجُدد في مكان آل لارسون.

بدا آلُ لاهاي زوجَين لطيفَين. وكانت السَّيِّدة لاهاي ما تزال تبدو نحيلةً ومُتعبَة، إلَّا أنَّها أكَّدَت لمارتي أنَّها مُتيقِّنة بكونها ستستعيد كاملَ قوَّتها سريعًا. وبعد تبادُلِ نظراتٍ بِلا كلام بين مارتي وكلارك، دُعيَ آل لاهاي للانضِمام إلى آل ديڤِس على الغداء في اليوم التَّالي.

قال السَّيِّد لاهاي إنَّ أملَه قد خاب لأنَّ رِحلتَه إلى الغرب قُطِعَت أقصَرَ ممَّا كان قد خطَّط، ولكنَّه مُزارِعٌ إلى حدٍّ يكفي لجعله يرى الإمكانيَّات في أراضي مزرعة جَد لارسون الجيِّدة. وكان لديه خُطَطٌ لبناء بيت مزرعة جديد ومبانٍ إضافيَّة، وهو قد باشرَ فعلًا بعضَ الإصلاحات التي تدعو إليها الحاجةُ الماسَّة ريثما يُتاح له أن يستبدِلَ

الأبنية.

أمَّا ابنتُهما الوحيدة، تَسِّي، فكانت بسيطةً بعضَ الشيء، لكنْ مَرِحة. وقد شُغِفَت بها مارتي في الحال. وبدا ناثانِ، الصَّبيُّ الأكبر، شاعِرًا بأنَّه واثقٌ بفِطنته وقدرته، مع شيءٍ من الاعتِداد بالنَّفس. وأمَّا وِلِي، الصَّبيُّ الأصغَر، فقد كان في عينيه البُنِّيَّتين تلألؤٌ مُحبَّب. وفي الوقت نفسه، نبَّه أثَرٌ من الأذى مارتي إلى عدم وجود أيِّ مؤشِّر إلى ما قد يُفكِّرُ هذا الصَّبيُّ بتجريبه تاليًا.

سألته مارتي: "كم عمرك؟"

فأجابها طلقَ المُحيَّا: "تِسع، وقد ذهبتُ إلى المدرسة من قبل. أكملتُ ثلاثةَ صفوف أصلًا".

تساءلت مارتي هل ظنَّ أنَّ ذلك يجعلُه نسيجَ وَحدِه، لأنَّها كانت حقيقةً معروفةً جيِّدًا أنَّ أيًّا من الأولاد في المنطقة لم يتلقَّ أيَّ تعليمٍ نظاميّ.

قالت مارتي: "تخميني أنَّك ستكون قادرًا إذًا على مُساعدة الصِّغار الآخرين، هُنا قليلًا". وارتقبَت بانتباهٍ استجابةَ وِلِي.

فقال بِلامُبالاة: "بعضٍ منهم. إذا أردتُ ذلك. بعضٍ...". ثُمَّ أضافَ بعدَ تَردُّد، مُبتسِمًا ابتسامةً عريضة ومُشيرًا بإصبعه: "يمكن أن أُساعِدَ تلك!"

نظرَت مارتي إلى حيثُ أشار، فلاحظت بشيءٍ من الفزَع أنَّ "تلك"

المُشارَ إليها عند الطَّرَف الآخر لم تكُن إلَّا مِسي.

فقالت مارتي بحزم: "لا تتوقَّعْ أن تكون بحاجة إلى مُساعدة فوقَ ما يستطيع المُعلِّم أن يُعطيَها. ستبدأ الصَّفَّ الأوَّل، وهي أصلًا تعرِفُ حروفَها وأعدادها".

فهزَّ وِلِي كتِفَيه ثانيةً وظلَّ مُبتسِمًا بخُبث، وقال: "ربَّما أُساعِدُها على كلِّ حال". ثُمَّ أطلقَ ساقَيهِ للرِّيح كي يلحقَ بباقي الأولاد.

كان آلُ لاهاي مُزمِعين أن يُغادِروا باكرًا. وقد قال الرَّجُل لآل ديقِس إنَّ مهامَّ كثيرة تنتظِرُ القيام بها. ما كان ينبغي له بالحقيقة أن يستقطِعَ الوقتَ لحضور الاجتماع، ولكنَّ زوجتَه اهتمَّت فوقَ الحدِّ بإرسال الصَّبيَّين إلى المدرسة. فخيرٌ لهم أن يذهبوا إلى البيت عاجلًا. إذ لدَيه مَرعًى يُسيِّجُه كي يوفِّرَ لِمَاشيَتِهِ رَعيًا أفضل. وعبَّر عن سروره بالتَّعارُف، وعن تطلُّعِهم إلى الغداء معًا يوم الأحَد. وما لَبِثَ أن نادى صِغاره، ثُمَّ مضَوا حالًا.

١٢

أيَّام المدرسة

بدَلَ أن يكون يومُ الاثنين صاحيًا ومُشمِسًا حسَبَ المطلوب، طلَعَ صَباحُه مُلبَّدًا بِالغُيوم ومُمطِرًا. ولم تستطِع مِسي أن تكبحَ انتِحابةَ يأسٍ إذ نظرَت خارِجَ النَّافذة.

قالت باكيةً: "سيتبلَّلُ فُستاني الأزرقُ الجديد كلُّه. وهكذا أيضًا شرائطُ شعري الجديدة تمامًا".

وهَبَّ كلارك للنَّجدة، عارِضًا أن يُطقِمَ الحِصانَين لِيُقِلَّ البناتِ إلى المدرسة. فلَقِيَت هذه الفِكرةُ استِحسانًا إجماعيًّا، ورجَعَ مِزاجُ مِسي المَرِح، وإن كانت الشَّمس قد بقِيَت مُتَوارية.

صرَّت مارتي أكياسَ غَداء، وأشرفت على تمشيط الشَّعر وتنظيف الأظفار. لم تكُن مُتيقِّنةً مَن كان الأكثرَ حماسةً وانفعالًا، غير أنَّ السِّباق، دون شكٍّ، كان مُتقارِبًا بينها وبين مِسي.

وقرَّرَ كلارك أنَّه يُمكِن لِكْلار وآرني أن يُرافِقاه في الرِّحلة على الرُّغم من النَّهار الكثيرِ الرَّذاذ.

وقد طمأنَ مارتي: "سيكونان بخير، وسيكونُ حسَنًا لهما أن يشعُرا بأنَّهما جُزءٌ من العمليَّة".

اشتملت صلاةُ الفَطور في ذلك الصَّباح على التِّلميذات الثَّلاث الجديدات: حتَّى يدرُسنَ جيِّدًا، ويُبدينَ لِمُعَلِّمهنَ الاحترام، ويستخدمن ما سيتعلَّمنه لتحسين النفس ومنفعة كلِّ مَن يُقابِلنه، الآنَ وفي المستقبل.

وبعدَ تناوُل الطَّعام، غادرَتِ المجموعةُ المُتحمِّسةُ المنزِل، وغطَّى كلارك العرَبة بالشَّادِر ليُبعِدَ المطَرَ عن ثِياب الفتَيات الجديدة. أمَّا اكْلار وآرني، وهُما يشعُران بالفخر والأهمِّيَّة، فاحتلَّا مكانيهما إلى جانب كلارك على مقعد العرَبة. وأحسَّت مارتي انسِدادًا في حَنجرتها إذ شاهدَتِ الأوجُهَ التَّوَّاقة، ملاحظةً على وجه الخصوص عينَي مِسي المُتألِّقتَين. ثُمَّ انطلقَت بهم العرَبة.

فقالت برِقَّة: "أوَّلًا المدرسة، ثُمَّ الخِطبةُ والزَّواج، ومُغادرةُ المنزل على الدَّوام. فقبلَ أن ندري، يكونُ الجميعُ قد مضَوا، واحدًا بعدَ آخر".

طرَفَت عيناها بسُرعة، ثُمَّ رجعَت إلى غسل الصُّحون. سيرجِعُ كلارك عاجلًا مع اكْلار وآرني، وسيقَع عليها الآن كامِلُ العمَل الذي يخصُّ الاعتِناء بهما وتربيتَهما، ما دامت البنات سيَكُنَّ غائباتٍ قِسمًا كبيرًا من كلِّ نهار. فعليها أن تُعجِّل في مَهامِّها كي تستعدَّ لقضاء

وقتٍ طويل من هذا اليوم الماطر داخِلَ المنزل مُسَلِّيةً صبيَّين صغيرين مُتَملمِلَين.

لمَّا رجَعَ كلارك بالصَّبيَّين إلى البيت، بدَّلت مارتي بثيابِهما ثِيابًا جافَّة وقدَّمَت لهما مُقترَحاتٍ بشأن ما قد يودَّانِ القِيامَ به. وكانت قد ظنَّت أنَّها مُهيَّاةٌ لما ينتظِرُها، إلَّا أنَّها وجدَت أنَّ ذلك كان أصعبَ بَعدُ ممَّا تصوَّرَت.

اهتاجَ آرني ورفضَ أن يتسلَّى باللُّعَب. وانتحَبَ اكْلار وبوَّز، مُصِرًّا على أنَّه ينبغي له أيضًا أن يتمكَّن من الذَّهاب إلى المدرسة. ولمَّا أخفق في إقناع أُمِّه، عذَّبَها لِتَسمحَ له بأن يخرُجَ لِيَلعب. فأشارَت عبْرَ النَّافذة إلى الطَّبيعة المُبلَّلة، ولكنَّ اكْلار ما زاد إلَّا تذمُّرًا، قاصدًا ضِمنيًّا أنَّ في وسع مارتي أن تفعل شيئًا ما بشأن الطَّقس إن هي نَوَت ذلك فحسْب.

أخيرًا أعطَت مارتي كُلًّا منهما كُعَيكةً مُحَلَّاة. فأشرك آرني مِس پُس في كُعَيكته، ثُمَّ ما لَبِثَ أن ألغى كلَّ سخائه بشَدِّ ذنَب الهُرَيرة عمدًا. واستجابت بخَمشٍ في يده استحقَّه جدًّا. وإذا بِوَلْولات آرني تجعل اكْلار يركُضُ مُطارِدًا الهرَّة وراءَ موقد المطبخ ويتقدَّم لِيَكبِحَها بمَسكة المِكنِسة. ثُمَّ أرسلَت مارتي اكْلار لِيَقعُدَ على كُرسيٍّ، فيما غسَلَت الخُدوشَ على يد آرني.

في ضُحى النَّهار، انقشعَت الغيوم ورجعَت الشَّمس. فسُرَّت مارتي

بأن تبعث اكْلار إلى الخارج. وتصوَّرته باقيًا في الخارج فقط وقتًا كافيًا لأنْ يتبلَّل تمامًا، ولكنْ حتَّى ذلك من شأنه أن يُعطيَها مِقدارًا ما من التأجيل.

ومِثلَما ظنَّت، اجتذبَت البُرَيكاتُ اكْلار كنحلةٍ إلى الزُّهور، إلَّا أنَّه لَعِبَ فيها فقط وقتًا كفى طولُه أن يجعله مُبلَّلًا ومُوحَّلًا. ثُمَّ وقف عند الباب مُتشكِّيًا من عدم وجود شيءٍ يقوم به. واعترى اليأسُ مارتي إذ نظَّفته. تُرى، ما عساها تفعَلُ بالولَدَين في أثناء هذا النَّهار الطَّويل الطَّويل؟ وماذا لو أمطرَت غدًا...؟

عندَ حُلولِ الظُّهر، دخل كلارك لأجل الغداء. فأطلق الصَّبيَّانِ صرخةً حادَّة طويلة ابتهاجًا، وتنفَّسَت مارتي الصُّعَداء. في وسعه أن يتحدَّثَ ويلعب معهما قليلًا، وبعد الغَداء تُغطِّيهما في الفِراش لِيَناما نومةً قصيرة.

غير أنَّ وقتَ القَيلولةِ المُعتادَ لم يمضِ على خيرٍ أيضًا. فقد اهتاجَ آرني واضطرب، محاولًا أن يتسلَّق إلى خارج مَهدِه، ولم ينَم اكْلار قطُّ. ومن ثَمَّ كانا سيِّئَي الطِّباع لمَّا أنهضَتهُما أخيرًا.

أخيرًا اعتدلَ النَّهارُ الذي بدا أنَّه لن ينتهيَ، إذ رجعَتِ الفتَياتُ الثَّلاث إلى البيت. فركضَ آرني إلى نانْدري بصرخة فرَح، وبدأ اكْلار طرْحَ لائحةِ أسئلة على مِسي لِيَرى هل تعلَّمت أيَّ شيءٍ حقًّا. ووقفت كلاي جانبًا مُبتَسِمةً باحتِشام.

اضطُرَّت مارتي إلى رَفعِ صوتها حتَّى تُسمَعَ فوقَ الثَّرثرة، إذ سألت: "كيف جرَت الأُمور؟"

فهتفَت مِسي : "أُوه، ماما، كان كلُّ شيءٍ عظيمًا تمامًا! احزُري ماذا تعلَّمتُ...احزري فحسْب. هاكِ، سأُريكِ".

وقالت لها مارتي: "أُريدُ أن أرى، ولا أكادُ أُطيق الانتِظار. ولكنْ هلَّا تُبدِّلنَ كلُّكنَّ ثيابَ المدرسة أوَّلًا وتُعلِّقنَها بترتيب!" وعلى وجه السُّرعة شرعَتِ الفتياتُ في التَّنفيذ، توَّاقاتٍ أن يتمكَّنَّ من سرد أخبارهِنّ.

قُضِيَ الوقت حتَّى العشاء في التَّخبير عن أنشِطة النَّهار الكثيرة. إنَّما نانْدري وحدَها لم يكُن عندَها ما تُقدِّمُه. وقد أطالت مِسي الثَّرثرةَ عن المعلِّم، وباقي الأولاد، والعمَل الجديد، ومكتَبها، والنَّار الضعيفة في الموقد النَّاتئ البطَن.

"أتعلمين ماذا؟ لا أعتقِدُ أنَّ الأُستاذ وِتِل قد أوقد نارًا مرَّةً واحدة من قبل. من الآن فصاعدًا سيُوقِدُها سَيلاس اسْتِرن. لقد أطلقَت دُخانًا على نحوٍ شنيع".

ثُمَّ توقفَّت لحظةً لِتُربِّتَ الهرَّة. "تُعجِبُني ماري لُو كُفِنز. إنَّها صديقتي الفُضلى...ما عدا فايْث غراهام".

كانت مارتي تعلَم أنَّ آل كُفِنز قد جاءُوا حديثًا إلى المِنطقة.

وتابعَت مِسي، غامِزةً بعينها ومُتكلِّمةً همسًا: "احزري ماذا؟ ناثان لاهاي يحبُّ كلاي".

فتورَّدَ وجه كلاي واحتجَّت، لكنْ ليس بمزيدٍ من الصَّخَب.

وأكَّدت مِسي : "إنَّه يُحبُّها فعلًا. فقد شدَّ بجدائلها وفعَلَ كلَّ شيء".

لم يكن لدى مارتي أدنى فكرة عمَّا أمكن "كلَّ شيء" أن يكون.

ثُمَّ اتَّخذَت سيماءُ مِسي مظهرًا ناريًّا. "ولكنَّني أكره وِلِي لاهاي ذاك. إنَّه مُتفاخِر".

فقالت مارتي مؤنِّبةً: "مِسي، عيبٌ عليكِ! لا ينبغي لنا أن نكره أحدًا".

وردَّت مِسي مؤكِّدةً: "ولكنَّ الله ما كان يعلَم بأمر وِلِي لاهاي لمَّا وضعَ تلك القاعدة. لا أحدَ يمكن أن يحبَّه!"

"أيَّ أمرٍ فعَلَ فكانَ رهيبًا جدًّا؟"

"إنَّه يقرأ...يقرأ بصوتٍ عالٍ فِعلًا، وهو يقرأ كلَّ شيء...حتَّى الكتابَ التَّمهيديَّ الثَّامن. إنَّه يعتقد أنَّه ذكيّ. وهو يُغايِظُ أيضًا. قالَ إنَّني أذكى من أن أكون مُغفَّلة، وقال إنَّه سيُساعِدُني. قلتُ: «لا، لن تُساعِدَني»، فما كان منه إلَّا أن ضحِكَ وقال: «انتَظِري تَرَي!» عجبًا! يظنُّ أنَّه ذكيّ. يا ليتَ تومي كان معي في المدرسة".

رفعَت مِسي رأسها بحركة مُفاجئة على طريقةِ البالِغات، وتساءلت مارتي أين باتت بِنتُها الصَّغيرة، وقد حلَّت محلَّها فجأةً تمامًا هذه الصَّبيَّةُ الشَّابَّة الرَّافضة.

صلَّت مارتي: **رجاءً، ربِّ، لا تدَعِ المدرسةَ تُغيِّرُها هكذا كثيرًا وسريعًا!** ولكنْ في اللَّحظة التَّالية رجَعتَ البِنتُ الصَّغيرة من جديد.

"هل لي أن ألعقَ ذلك الصَّحن، ماما؟ لقد جِعتُ كثيرًا اليوم، واحزُري ماذا، ماما؟ عندَ ماري لُو دَلوٌ أحمَرُ لمَّاعٌ تحمِلُ فيه غَداءها. هل لي أن أحظى بواحِدٍ مثلِهِ أيضًا؟ له مسكةٌ تحمِلُه بِها، والحروفُ عليه بيضاء".

"دَلوٌ مِن أيِّ نوعٍ هو؟"

"لا أعرِفُ بعد. لستُ أعلَمُ الكلمات، ولكنَّه جميلٌ جدًّا، أليس كذلك يا كلاي؟"

فوافقَت كلاي على كونهِ جميلًا.

وتوسَّلَت مِسي : "هل لي أن أحظى بواحِد، ماما، رجاءً؟"

"لستُ أدري، حبيبتي...سيكونُ علَينا أن نرى".

فقالت مِسي مُبَوِّزةً: لا أُحِبُّ حمْلَ غَدائي في ذلك الشَّيء العتيق. فالذي عندَ ماري لُو أجمَلُ بكثيرٍ جدًّا".

"سنرى". إلى هذا الحدِّ قبِلَت مارتي أن تذهب.

أُسقِطَ موضوعُ المدرسة حاليًّا، ولكنَّ مِسي التقطَته ثانيةً بعدَ العشاء إذ حظِيَت بانتباهِ أبيها.

"وعندَ ماري لُو دَلوٌ أحمَرُ لمَّاعُ لِغَدائها، عليه حروفٌ حُمرٌ وله مسكة. فهل لي أن أحظى بواحِدٍ أنا أيضًا، يا، رجاءً؟"

فسأل كلارك: "هل دِلاءُ الغَداءِ الحُمرُ اللَّمَّاعة ضَروريَّةٌ لِلتَّعلُّم؟"

أجابت مِسي : "ليس للتَّعلُّم...بل لأجل المنظَر الجميل". وقد كان صوتُها حازِمًا وعازِمًا.

ففكَّرت مارتي بسُخرية مُرَّة: **على الأقلّ، هي صادقة!**

وقال أبوها: "سوف نرى".

فاعترضَت مِسي : "ذلك هو ما قالته ماما".

وقال لها كلارك بابتسامةٍ عريضة: "لدَيكِ ماما حكيمة!"

فغضَّنت مِسي أنفَها، ولكنَّها لم تقُل كلمةً أُخرى، مُتصوِّرةً دونَ شكٍّ أنَّ أحسَنَ شيءٍ لها هو ألَّا تُلِحَّ على الأمرِ بعد...في الوقت الرَّاهن.

اتَّخذَتِ الأيَّامُ خطًّا روتينيًّا. وبالتدريج، قبِلَ الصَّبيَّانِ الصَّغيران حقيقةَ غِياب البنات، وعدَّلا لَعِبَهُما بحيثُ يتشاركان فيه.

واستقرَّت الفتَياتُ على نمَطِ تَعلُّم. فسرعانَ ما غدَت مِسي، وهي نشيطةٌ وتوَّاقة، مُتقدِّمةً في صفِّها، حتَّى دونَ مُساعَدةٍ من وِلِي لاهاي، كما أخبرَت أُمَّها. كذلك تعوَّدت كلاي أيضًا المدرسة، ففاجأت وأبهجَتِ المُعلِّمَ وآلَ ديڤِس على السَّواء بمقدرتها. لقد أحبَّتِ الكُتُب، وكان من شأنها أن تقضيَ كامِلَ وقتِها مُخفِيةً أنفَها في واحِدٍ أو آخَرَ مِنها، لو سُمِحَ لها بذلك. إنَّما نانْدري وحدَها بدا أنَّها تجرُّ قدَمَيها كلَّ

صباح عندَ فِكرةِ قضاء يومٍ آخر في المدرسة. وقد لاحظَت مارتي ذلك وتمنَّت وجودَ طريقةٍ ما بها تستطيعُ أن تُساعِدَ الفتاة. فهي علِمَت أنَّ مُعظمَ المُبتدئين في المدرسة كانوا أصغر سنًّا بكثير من نانْدري، وهذا بحدِّ ذاته يُشكِّلُ تثبيطًا لها. ومِن ثَمَّ سعَت مارتي إلى تشجيعها دون أن تُضايِقَها.

كانت مِسي هي الفُضوليَّةَ التي زوَّدت أهل البيت بجميع الأخبار. وذاتَ يومٍ جاءت إلى البيت مُقَهقِهةً، وقدِ انضمَّت إليها كلاي.

أخبرَت مِسي قائلةً: "احزُروا ماذا؟ عندما يُريد الأُستاذ وِتِل أن يصرُخَ عاليًا، ينتقِلُ صوتُه من درجة عميقة جدًّا إلى صريرٍ مُضحِك". وقد قلَّدته إذ قالت هذه الكلمات.

فأخفَت مارتي ابتسامتها، مُحاوِلةً تعزيزَ موقِفٍ داخليٍّ يتَّسِم باحتِرام المُعلِّم.

وتابعَت مِسي : "الأولادُ الكِبار يحبُّون أن يجعلوه يصرُخُ لكي يحدُثَ ذلك. فالأمرُ يبدو مُضحِكًا جدًّا، ماما، ثُمَّ يَحمَرُّ وجهُه كثيرًا ويهدِرُ بصوتٍ خفيضٍ فعلًا...هكذا". وقد كان هَدْرُ مِسي، ابنةِ السَّادسة، فُكاهيًّا إلى حدٍّ بعيد.

فحذَّرتها مارتي بِحَزمٍ قدْرَ استِطاعَتِها، قائلةً: "آمُلُ ألَّا تضحكي على مُعلِّمِك".

بدَت مِسي مُرتبِكةً، ولكنَّها ما لَبِثَت أن رفعَت رأسها لتقول: "أُوَكِّدُ

أنَّكِ أنت أيضًا ستضحكين، ولكنَّني ضحِكتُ قليلًا فحسْب".

وغالبًا ما كان لدى مِسي أيضًا أخبارٌ عن "وِلِي لاهاي ذاك".

فَوِلِي لاهاي غمَسَ شريطةَ شعرها في مَحبرة.

ووِلِي لاهاي طاردها حاملًا جُرَذًا مَيتًا.

ووِلِي لاهاي وضعَ جُندُبًا في عُلبَةِ غَدائها.

ووِلِي لاهاي حفَرَ حرفَي اسمِها الأوَّلين مع حرفَي اسمِه الأوَّلين على شجرة بقُرب النَّهر، وهيَ أزالت الأحرُف بِالحَكّ.

ثُمَّ إنَّها كرِهَت وِلِي لاهاي ذاك، وكانت على يقين بأنَّ الله لا يهمُّه ذلك أدنى هَمّ.

وِلِي لاهاي ذاك مُغفَّل كبير!

١٣

شيءٌ جديد

لمَّا قام كلارك برِحلته التَّالية إلى المدينة، سُرَّت مارتي بعدَم وجود سبَبٍ وجيهٍ لِمُرافقته. ربَّما كانت ستَستمتِعُ بالنُّزهة، لِكَونها الآن على يقين بأنَّ البنات بِتنَ قادراتٍ تمامًا على رِعاية الصَّغيرين في أثناء غِيابها. ولكنَّ الذَّهابَ إلى المدينة عنى الاضطِرارَ إلى مُقابلة السَّيِّدة مكدونَلد. وتلك المرأةُ ما أخفقَت قطُّ في حَشْرِ مارتي في زاويةٍ عاطفيَّة. وقد صرَّحت مارتي بأنَّها تُفضِّلُ بالأحرى مُقابلَةَ ذئبٍ أو دُبّ.

كانت مارتي مسرورةً لأنَّه لم يكُن لدَيها قطُّ أيُّ سبَب يدعوها إلى القلَق بشأن مُواجَهةِ دُبٍّ ما. فقد كانت الحيواناتُ قانعةً بأن تبقى في جِبالها الأصليَّة، بعيدةً عن رائحة المُستَوطِنين وبُندقيَّاتهم. أحيانًا، كان رجلٌ من الجيران يرى أنَّ عليه أن يُغامِرَ بالتَّوغُّلِ داخلَ الجِبال ليَعودَ بجِلدِ دُبٍّ كي يَبسُطَه على أرضيَّة الكوخ، أو يُعلِّقَه فوقَ الموقِد. وقد كان ذلك رمزًا إلى الصَّيَّاد القاهِر أكثرَ من كونهِ حاجةً ضروريَّة.

حتَّى عندَ التَّحديق إلى إهابِ الفَروِ الضَّخم في بَيتٍ مُجاوِر، حيثُ يبقى الرأسُ حاملًا العينَينِ الخرَزِيَّتين الشَّرِستَين والأسنانَ الصَّفراء

الطويلة، كانت مارتي على يقين بأنَّ مُواجَهةَ الدُّبِّ أفضَلُ من مُواجهة السَّيِّدة مكدونَلد. ومن ثَمَّ تجنَّبت مارتي المدينة متى استطاعت، مُستَحِيةً من نَفسِها لقِيامها بذلك، لكنْ قانِعةً بضَعفِها أيضًا.

منذُ أن بدأت المدرسة، تطلَّعَت مارتي دائمًا إلى أيَّام السَّبت. إذ أتاح لها ذلك فُرصةً لاستِدراكِ كثيرٍ من المَهامِّ الإضافيَّة، لأنَّ الفتياتِ أبقَينَ الصَّبيَّين الصَّغيرَين بعيدَين عن مَواطئ قدَمَيها.

وهذهِ المرَّةَ كانَ لدَيها مَهامُّ خصوصيَّةٌ لأنَّ يومَ غَدٍ سيكون أحَدًا مُميَّزًا. فإنَّ مُعلِّمَ المدرسةِ الجديدَ سيأتي لِيَتناولَ طعامَ الغداء عندَهُم. وكانت مارتي مُرتقِبةً الزِّيارة ومُرتعِبةً منها في آنٍ معًا. ماذا كانت حقيقةُ هذا الرَّجُلِ الغريب المنظر؟ لقد جاءت مِسي إلى البيت بأخبارٍ حسنة وسيِّئة على السَّواءِ...مادحةً المُعلِّمَ حينًا، ومُنتقِدةً تصرُّفًا غير مألوفٍ حينًا آخَر، ثُمَّ مُنفَجِرةً بعد ذلك بقَهقهات لا تُضبَط من أجلِ ما حسبتْه سلوكًا سخيفًا.

كانت مارتي قد وضعَت حلوياتِها المخبوزةَ توًّا على الرَّفِّ، لكي تَبرُد، وكانت تُنظِّف دِيكَين فَتِيَّين، إذ دخل كلارك بالعرَبة إلى الفِناء.

وكالعادة، جعلَت عودَتُه الأولادَ يركضون لِمُلاقاته. وفيما مارتي تُراقِب من النَّافذة، رأت كلارك يترجَّلُ على مَهلٍ وبانتِباه من العرَبة. فأوَّلَ الأمر، قلِقَت مارتي مُتسائلةً إن كان كلارك قد تأذَّى بطريقةٍ ما أو كان مُتَوعِّكًا، إلَّا أنَّه ما لبِثَ أنِ استقام ومشى على نحوٍ طبيعيٍّ إذ توجَّهَ إلى

البيت، والصَّغيران في أعقابه. وقد لاحظَت مارتي أنَّه كان حاملًا شيئًا ما داخِلَ سِترَته، إذ بدا انتِفاخٌ هُناك، وظهَرَ أنَّه يحميه بحِرصٍ وهو ماشٍ. كان الأولاد أيضًا قد لمحوا ذلك، فأخذوا يصطخبون ليعرفوا ما كان كلارك حاملًا، ولكنَّه اكتفى بأنِ ابتسمَ ابتسامةً عريضة وأومأ لهم أن يتقدَّموا إلى البيت.

استغرقَت مارتي في التَّفكير: **ماذا يَنوي الآن؟** وقد هزَّت رأسها إذ شاهدَتِ الموكِبَ الصَّغير يدخل من الباب.

"ما هذا، يا؟"

"ماذا أحضرتَ، هُه؟"

"أرِنا يا!"

أخيرًا سحَبَ كلارك سِترتَه إلى الوراء، وإذا برأسٍ جَعْدِ الشَّعر تِبنيِّ اللَّون ينتأ حالًا. وطرَفَت عينانِ صغيرتان حادَّتان أمامَ النُّور المُباغِت، ثُمَّ استدرَّ الهرجُ والمرجُ حولَ الجسم الضَّئيل اختِلاجةَ ابتِهاج مِنه. كما ملأتِ الهُتافاتُ الحادَّةُ الهواءَ وتوسَّلَ كلٌّ من الأولاد ليكونَ أوَّلَ مَن يحمِلَ الجَروَ الحريريَّ الشَّعرِ والمُسترخيَ الأُذُنين.

قال كلارك: "نبدأ بالأصغر أوَّلًا!" مُناوِلًا آرني الصُرَّةَ المُتَلوِّية. فقهقه آرني إذ ضمَّ الجروَ إلى صدره. وكانت تلك أوَّلَ مرَّة على الإطلاق يحظى فيها آرني بغَسلِ وَجهٍ من لسانِ جَروٍ دافئ، فضَحِكَ بصوتٍ عالٍ.

فكَّرَت مارتي: **الصِّبيانُ الصِّغار والجِراء ينتمي بعضُهم إلى بعض!** ولا بُدَّ أن يكون آرني قد فكَّرَ هكذا أيضًا، لأنَّه كان مُتباطئًا جدًّا في إمرار الجرو إلى اكْلار.

وفيما الأولاد مُتحمِّسون بشأن الجرو الجديد، تيسَّرت لمارتي الفُرصة لِمُحادثة كلارك.

"مِن أينَ حصلتَ عليه؟"

"وضعَت كلبةُ الحدَّاد بطنًا من الجِراء. والجميعُ الآنَ كِبارٌ كفايةً حتَّى تُفطَم. وقد بدا هذا الجَروُ لي كأنَّه أفضَلُها".

"يقينًا أنَّه مُميَّز".

"نعم! وانظُري إلى العينَين، والرأس...يبدو جَروًا ذكيًّا أيضًا".

أخيرًا اتَّفقَ الأولاد على وَضع الجَروِ أرضًا ليتسنَّى لهم أن يُشاهِدوه يتهادى ويقفِزُ على أرضيَّة المطبخ.

فهتَفوا: "انظروا إليه! انظروا إليه!" مُقَهقِهين ومُصفِّقين حِيالَ تصرُّفاته المُضحِكة.

وقال كلارك: "حسنًا، لنأخُذْهُ إلى الخارج ونَرَ رأيَ بوب العجوز فيه".

كان بوب العجوزُ صائرًا عجوزًا حقًّا. فقد باتت قوائمُه مُتصلِّبةً وغيرَ طيِّعة، وأخذَت عيناهُ تزدادانِ قَتامًا، وصارت حرَكاتُهُ بطيئة. وقد أدرك كلارك ومارتي أنَّ أيَّامَه باتت معدودة، ولكنْ مع العناية رُبَّما أمكن أن

يبقى معهم مُدَّة من الزَّمَن بعد.

تبِعَتِ العائلةُ اكْلار وهو يحمِلُ الجروَ إلى بيت الكلب في الخارج. وخرَجَ بوب بِبُطء، مُمَدِّدًا عضَلاتهِ المُتصلِّبة، ثُمَّ هزَّ ذنَبَه تحيَّةً لهم أجمَعين.

لمَّا وُضِعَ الجَروُ على الأرض، خفَضَ بوب رأسه بِبُطء وتَشمَّم. لم يبدُ مُتأثِّرًا، ولكنَّه لم ينفُرْ من الوافِدِ الجديد أيضًا. ولَدى رؤية الجَروِ واحدًا من جِنسه، دبَّت فيه الحماسةُ وازدادَ اهتِياجًا، واثبًا ومُرتقِصًا دائريًّا على أقدامٍ غير ثابتة، كدُميةٍ مُعبَّأة يأبى زُنبَرُكها أن يهدأ. فاحتملَ بوب العجوزُ هذا الاستِعراضَ المُضحكَ لَحظاتٍ قليلةً، ثُمَّ مشى مُبتعِدًا وتمدَّد على الأرض. ومشى الجَروُ مُضطَرِبًا وراءه، ثُمَّ أخَذَ يشُدُّ بذنَبهِ الطَّويلِ المنفوش. فاختارَ بوب أن يتجاهلَه، وصرَّخ الأولاد مُعبِّرين عن بهجتهم.

أخيرًا تُرِكَ الجَروُ مع بوب العجوز. ومضى كلارك مع الصَّبيَّين لإيواء الحِصانين وإفراغِ حُمولةِ العرَبة. أمَّا البنات، بعدَما ملأنَ بطنَ الجَروِ الصَّغيرَ بالحليب الدافئ، رجَعنَ إلى المَهامِّ التي كانت قد حُدِّدَت لهنَّ. وكان على العائلة أن تختار اسمًا لِلحَيوان الأليف الجديد. فهذا سيُبحثُ فيه ويُتَّفَق عليه إلى مائدة العشاء.

مضَت مارتي لإكمال غَسلِ الفَرُّوجَين، ومَسحِ الغُبار عن ظهر الخزانة حتَّى يتمكَّنَ كلارك والصَّبيَّانِ من وضع مُشترَيات البقالة لكي

تخزِنَها هي في أماكنها.

وفيما هي تتفحَّصُ الأكياسَ والعُلَب، توقَّفَت فجأةً، يتدلَّى من يَدِها دَلوٌ مكتوبٌ عليه بخطٍّ كبير شَحْم. فسألت: "ما هذا؟ لم أُضَمِّن لائحتي شَحمًا، أضَمَّنتُها؟ وها أنت قد أحضرتَ ثلاثةَ دِلاءٍ منه. عندي شحمٌ مُكدَّسٌ عاليًا من آخِرِ ذَبحٍ قُمنا به!"

ثمَّ التقطَت مارتي لائحتَها مُتحيِّرةً وأجالَت نظرَها عليها لِتَرى ما أمكن أن تكونَ قد طلبَته حتَّى قرأه كلارك على أنَّه "شَحْم".

فردَّ بهدوء: "لا، لم يُذكَرِ الشَّحمُ في لائحتكِ".

"إذًا لماذا...؟" وتركَتِ السؤالَ مُعلَّقًا.

فبدا على كلارك شيءٌ من الارتِباك، وقال: "إنَّها دِلاءٌ حمراء، أليسَت كذلك؟ وهي لمَّاعة، ولها مَسكات، وعليها أحرُفٌ بيضاء!"

عندئذٍ اتَّضح الأمر: **إنَّه دَلْوُ مِسي، أحمَرُ ولمَّاع وعليه أحرُفٌ بيضاء: شَحْم.**

وسارعَ كلارك شارحًا: "لا أقولُ الآن إنَّه ينبغي لِمِسي أن تحوزَ ذاك لِمُجرَّد طلَبِها إيَّاه. لا داعيَ لها لأنْ تُفكِّر أنَّها ستحصُلُ دائمًا على ما تُريدُه بمُجرَّد الطَّلَب، ولكنْ إذا رأيتِ أنَّه لن يؤذيَها أن تحوزَه، كما في هذه المرَّة، فعِندَئذٍ سيكونُ لها. ثُمَّ إنَّه فِعلًا شَقَّ عليَّ تقريبًا أن أُحضِرَ لها واحدًا دونَ الفتاتَينِ الأُخريَين، أكان ذلك سهلًا؟"

"لا، لم يكُن سهلًا كما أعتقد".

ودارَ كلارك لِيُغادِرَ المطبخ، ثُمَّ قال ثانيةً وهو يخرُج: "لكِ أن

تُقَرِّري".

التفتَت مارتي من جديد إلى الدِّلاءِ الثَّلاثة الحُمر اللَّماعة. ثلاثةُ دِلاءٍ من الشَّحم، وعِندَها أصلًا شحمٌ أكثرُ من أن يتسنَّى لهمُ استِعمالُه، وذَبحٌ خريفيٌّ آخَرُ آتٍ عاجلًا! ماذا، يا تُرى، تفعل بذلك كلِّه؟

فهَمهَمَت: " يا لك من رَجُل رقيق القلب!" ولكنَّها اضطُرَّت إلى ابتِلاع الغُصَّة في حَنجرتها. ففِكرةُ الأوجُهِ السَّعيدة وعينَي مِسي المُتَلألئتين، عندما تُعطيهنَّ غداءَهُنَّ صباحَ الاثنين، جعلَت الانتِظارَ صعبًا.

ᔓ

أُنجِزَتِ المَهامُّ، ووُضِعَ ماءُ استِحمامِ مساءِ السَّبت على الموقد كي يسخُنَ في الغَلَّاية النُّحاسيَّة الكبيرة، ثُمَّ اجتمعَتِ العائلة حول الطَّاولة لِتَناوُل العشاء.

وبينَما مارتي تضَعُ البَطاطا في الصُّحون، أسَرَّ إلَيها كلارك: "فكَّرتُ أنَّه إذا حدَثَ شيءٌ ما لِبوب العجوز، فسيكونُ الأمرُ أخفَّ إيلامًا إن كان لدى الأولاد جَروٌ جديد يشغَلُ أذهانَهُم". فأومأت مارتي برأسها مُوافقةً.

ثُمَّ تقدَّم كلارك إلى المائدة واهتمَّ بإجلاس عائلته.

وقال اكْلار: "أتعلمينَ ماذا، ماما؟ توقَّفتُ لأرى الجَرْو، فوجدتُه

مُلتفًّا ونائمًا بِلِزق بوب العجوز. هل يظنُّ بوب العجوز أنَّه أُمُّ الجَرو؟"

فابتسمَت مارتي. "لا! أشُكُّ أنَّ بوب العجوز مُغفَّلٌ إلى ذلك الحدّ، ولكنْ ما دام الجَروُ لا يُعذِّبُه كثيرًا، ماضغًا ومُطاردًا، فهو سيرضى بأن يُشارِكه في سريره".

وقالت مِسي مُتحمِّسةً: "إنَّه جميلٌ جدًّا. أتمنَّى لو يُشارِكُني في سريري".

فردَّت مارتي بحزم: "أُوه، لا! الحيوانات تنتمي إلى الخارج، لا الدَّاخل".

وبدأت مِسي : "مِس پُس...". فارتفعَ حاجِبا مارتي مُنتظِرةً أن تعترِفَ مِسي بأنَّ الهُرَيرة كانت بالفعل تصعَدُ إلى السّرير معها. ولكنْ لا بُدَّ أن تكونَ مِسي قد فكَّرَت في الأمر تفكيرًا أفضل.

ثمَّ قال كلارك: "حسنًا، هل فكَّرتُم في أيَّة أسماءٍ جيِّدة فعلًا؟"

فقال اكْلار: "أعتقد أنَّ علينا أن ندعوَه بِاسْمِ شِبْل".

وردَّت مِسي بطريقةٍ نمَّت عن عدَمِ تأثُّرِها: "شِبْل لِجَروٍ كلب!"

فحاجَّ اكْلار: "لونُه كلونِ أسَدٍ صغير".

فقالت مِسي : "أُحِبُّ اسْمَ مَلِك أو أمير أو ما شابه".

"لِجَروٍ صغير؟" لقد كان اكْلار شكَّاكًا بالمِثل.

فقالت مِسي بتَحَدٍّ: "سوف يكبر!"

وسألَ اكْلار آرني: "ما قولُك، يا رفيق؟" فدفع آرني داخِلَ فَمِه ملءَ مِلعَقة كبيرة من البطاطا وصلصةِ المَرَق مُستعمِلًا يدَه الطَّليقة. ثُمَّ مضغ اللُّقمة وابتلَعَ قسمًا منها، وقال: "بوب العجوز".

"ولكنْ ماذا تُريد أن تُسمِّيَ الجروَ الجديد".

"بوب العجوز".

فأكملَ اكْلار مُتردِّدًا: "ولكنْ بوب العجوز هو اسمُ... بوب العجوز".

وقال آرني: "أنا أعرف. أُحِبُّ الاسم".

فكرَّر اكْلار: "أنت تُريد بوب العجوز وبوب العجوز". وكان واضحًا أنَّه يحسَبُ نفسَه وحدَه قادرًا بالحقيقة على فهمِ رغَباتِ آرني الصَّغير وتفسيرها.

قال آرني، مُومِئًا برأسِهِ: "نعم! الآنَ عندَنا...".- وقد جاهَدَت إصبَعانِ يُغطِّي البطاطا مُعظمَهُما أن ترتفِعا مُستقيمتَين فيما بقِيَت الأصابعُ الثَّلاثُ الأُخرى مَطويَّة- "الآنَ عندَنا بوبانِ عجوزان!"

ضحِكَت العائلة، ولكنَّ الجميعَ اتَّفقوا أخيرًا على أنَّ الجَروَ الجديد سيحمِلُ اسمَ بوب العجوز أيضًا.

وقالت مِسي بتَعقُّل: "سوف يكبر".

فقال اكْلار: "نعم، وسوف يشيخُ ذاتَ يومٍ أيضًا. ثُمَّ إنَّه عندما نُناديهما سيكونُ علينا أن نقول اسمًا واحدًا فقط فيأتيان كِلاهما".

وابتسم كلارك: "وبذلك نُوفِّر على أنفُسِنا كثيرًا من الوقت والبلاء،

صحيح؟"

فابتسمَ آرني ابتسامةً عريضة وقال: "عندنا الآن بوب عجوز صغير وبوب عجوز كبير!"

وكما جرى، لم يبقَ بوب العجوز الكبيرُ معهم مُدَّةً طويلة. ومِثلَما كان كلارك قد توقَّع، كان فقدانُ الكلبِ المُسِنِّ أسهَلَ تقبُّلًا على الأولاد بوجود الجَروِ النَّامي راكضًا ومُعَضِّضًا عندَ أعقابِهم.

١٤

صديقةُ تومي

قبلَما بدا الأمرُ مُمكِنًا، باتَ العامُ الدِّراسيُّ يقترِبُ من نهايته وآنَ أوانُ العُطلة الصَّيفيَّة. وكان بعضُ الصِّبيانِ الأكبرِ سنًّا قد غادروا المدرسة باكرًا ليُساعِدوا في زرعِ الرَّبيع. أمَّا الباقون فظلُّوا في المدرسة حتَّى حَزيران. واحتفلَت مِسي بإكمال الصَّفِّ الأوَّل، فأحضرَت إلى البيت باقاتِ زهر وفريزًا أحمرَ ناضجًا في الدَّلو الأحمر المحبوب الذي كان قد فقَدَ شيئًا من لَمَعانه، على مرِّ أشهُرِ الشِّتاء.

كان الصَّيف حافلًا بالشُّغل في الحديقة والتَّمتُّع بنِتاجها. وكثيرًا ما نظرَت مارتي حَوالَيها وهي تجني مع الأولاد خَيراتِها. وشكرَت الرَّبَّ على بركاته. فالآن باتت مِسي وكلاي ونانْدري يستعمِلنَ دِلاءهُنَّ عندَ قَطفِ الفاصوليا والذُّرَة والبنَدورة. وكان الصَّيفُ بالطَّبع حافلًا بالعمَل خُصوصًا بالنِّسبة إلى كلارك، إذ ساعَدَ هو والجِيرانُ بعضُهم بعضًا في جَني غِلالهم.

ثُمَّ حلَّ الخريفُ ثانيةً، فدبَّت حماسةُ التَّحضيرات للمدرسة. وكان اكْلار المِسكين ما يزالُ أقلَّ بِسَنةٍ واحدة من عُمر المدرسة، فتشكَّى

بشأن الاضطِرار "إلى البقاء في البيت مع الأولاد الصِّغار". ولم تكُن مارتي تمامًا على يقين بشأن جميع الذين كان يُشير إليهم، ما دام هُناك آرني وحدَه، إلَّا أنَّ اكْلار على الأقلِّ لم يستمرَّ طويلًا جدًّا في الدمدمة بشأن الأمر.

كانت كلاي ومِسي كِلتاهُما توَّاقتين للرُّجوع إلى الصَّفّ. وقد قضَت كلاي الصَّيف مُستغرِقةً في قراءة الكُتُب التي كان الأُستاذ وِتِل قد أمدَّها بها، وكانت آخِذةً في رَدمِ الهُوَّة إلى حيثُ كان ينبغي لها أن تكون. فسُرَّ الأُستاذُ وِتِل، وعبَّر لها عن سروره.

ابتهجَت مِسي بالتَّعلُّم، وأحبَّت أن تقرأ لآرني واكْلار كلَّما تيسَّرَ لها أن تُجلِسَهُما هادئَينِ وقتًا قصيرًا.

إنَّما نانْدري وحدَها بقيَت مُنحَرِفةَ المِزاج حِيالَ فِكرة التَّعلُّم في المدرسة بِمُجملها. ولم تُصرِّح بالكثير عن الموضوع حتَّى باتت أيَّامٌ قليلةٌ فقط تَفصِلُها عن فتح المدرسة.

قالت بلهجةٍ لا تنمُّ عن مُجادَلة: "لستُ راجِعة، لا سيَّما بوجود أُولئك الأولاد الصِّغار كلِّهم".

تباحثَ كلارك ومارتي في الأمرِ على انفِراد، وأخيرًا قرَّرا أن يسمحا لها بالكفِّ عن الذَّهاب إلى المدرسة، رُغمَ مُمانَعتِهما المبدئيَّة.

وقالت مارتي: "سيكون علينا فقط أن نُركِّز على التَّدبير المنزليِّ والاعتِناء بالصَّغيرَين. لدى نانْدري مُقدَّراتُ زوجةٍ وأُمٍّ صالحة. فربَّما

كان ذلك كثيرًا جدًّا. على الأقلّ، هي قادرةٌ الآنَ على القراءة والكتابة قليلًا. ويُمكِنني أن أشتغِلَ معها كي تتعلَّمَ هُنا في البيت".

أومأ كلارك برأسه مُوافِقًا. ففي الخامسةَ عشرة، بدَت نانْدري قادرةً إلى حدٍّ بعيد على الاعتِناء بمنزِل. ولا بُدَّ أنَّ شابًّا ما في المِنطقة سوف يُرحِّبُ بها أخيرًا لِتكونَ مُعينتَه في الحياة.

كان أسهلَ هذه المرَّةَ أن تُشاهَدَ مِسي خارجةً من الباب صباحَ ذلك الاثنَين. وكان أسهلَ بالفعل أن تُدبَّرَ أُمورُ الصَّبيَّين لأنَّ نانْدري كانت حاضرةً لتوفير الرِّعاية. وقد سُرَّت مارتي كثيرًا بأن ترى الصَّبيَّة المُنطَوية على نفسِها تقريبًا إذ بدأت تنتعِش في جوٍّ من المحبَّة والعِناية.

رحَّبت مارتي أيضًا بِيَدَي نانْدري الإضافيَّتَين، بسبَب حقيقةِ كونِ آل ديڤِس سيزدادون فَردًا من جديد بعدَ نحوِ شهرَين فقط. فبِقَليلٍ من التَّوجيه، أخذَت نانْدري على عاتقِها حِصَّةَ الأسَد في الاهتِمام بالصَّغيرَين، مُصطحِبةً إيَّاهُما لإطعام الدَّجاج، وواضعةً آرني في السَّرير لأجلِ قيلولاته- بعدَما صرَّح اكْلار أنَّه هو أكبَرُ من أن يُعامَل "مُعاملةَ أطفالٍ" من هذا القبيل- ومُعاوِنةً عمومًا في الواجِبات البيتيَّة. وقد قدَّرَتها مارتي كثيرًا من أجل مُساعدِتها، وغالبًا ما عبَّرَت لها عن ذلك.

كانت مارتي، عصرَ ذاتِ نَهار، قاعِدةً في بُرودة الكوخ المعتدلة، وأمامَها كومةٌ من الثِّياب المُحتاجة إلى إصلاح، إذ سمِعَت حصانًا

يقترِب. فألقَتِ الجَورَبَ الذي كانت تَرتُقه وذهبَت إلى النَّافذة.

قالَت من فَوقِ كتِفِها لِنانْدري- وكانت هذه تلُفُّ غِلافَ فطيرة- "عجبًا، إنَّه تومي. ماذا جاء به إلَينا هكذا؟". ثُمَّ انتقلَت بِسُرعة إلى الباب.

نادت مارتي: "تومي، تفضَّلْ ادخُل. لم نرَكَ منذُ دَهرٍ فحسْب!"

دخل توم المطبخ وأومأ بتحيَّة لنانْدري. أمَّا نانْدري، فاحمرَّت خجلًا وحوَّلت ناظريها إلى شُغلِها بسرعة.

"كيفَ أهلُك؟" هذا ما أرادت مارتي أن تعرِفَه.

"بِخَير، جميعُنا بخير. ما زالت لِزِي الصغيرة تكبر كَعُشبة سريعةِ النُّموِّ".

فقالت مارتي: "أليست محبوبة؟" كانت آخِرُ مرَّة فيها رأت أليزابيث آن الصَّغيرة حين كانت تتمرَّنُ على مهارة المَشيِ المُكتسَبة حديثًا. وقد كوفئت خطواتُها المُترنِّحة بكثيرٍ من الإطراء والعِناق والتَّقبيل، من قِبَلِ جَدَّينِ مشغوفَين وأخوالِها وخالاتها الصِّغار.

وتذكَّرت مارتي بِوَخزةِ ألم أنَّ رَت مارشال الصَّغير كانَ ما يزالُ غير قادرٍ على الجلوس جيِّدًا وحدَه. فأخذَت نفَسًا طويلًا، وحوَّلَتِ انتِباهَها من جديدٍ إلى تومي. "سمِعتُ أنَّك امتلكتَ أرضك الخاصَّة".

فأجابَ بِفَخر: "صحيح. حتَّى إنِّي أنشأتُ كوخًا صغيرًا عليها. ليس كبيرًا جدًّا، ولكنَّه سيُلبِّي الحاجة مُدَّةً من الزَّمن".

"وهل زرعتَها فعلًا؟"

"لا. سأتولَّى الأمرَ عندما يأتي الرَّبيع".

أيُعقَلُ أن يكونُ توم الشَّابُّ مُبديًا اهتمامَه بنانْدري فَتاتِهِم؟ ثُمَّ قاطعَ أفكارَها صوتُ توم.

"هل تُمانعين القِيامَ بجِولةٍ قصيرة خارجًا؟ يبدو النَّهارُ مُمتازًا، ومن الخَسارةِ تقريبًا أن يُبدَّد".

قالت: "يسرُّني ذلك. ما بَرِحتُ راغبةً في إلقاء نظرة قصيرة على النَّبع قبل التَّجمُّد. نانْدري، هلَّا تُبقِينَ عينَيكِ على الصَّبيَّين؟"

لدى إيماءة الفتاة السَّريعة برأسها، تقدَّمَت مارتي الطَّريقَ إلى الخارج. واستمرَّت مُحادثتُهما، في أثناء سَيرِهما، بأخبارٍ عن الحالة الجوِّيَّة والمحاصيل والعائلة. ثُمَّ وصلا إلى النَّبع، فقعد توم على العُشب البارد، مُسنِدًا ظهرَه إلى جِذعِ شجَرة. وراقَبَته مارتي، فأدركت من سِيمائه أنَّ شيئًا ما كان يُزعِجه. إلَّا أنَّه لم يقُل شيئًا بعد، وراقبَته يلتقِطُ قِشرةَ شجَر ويكسِرُها بأصابعه.

"الأمرُ يخصُّ فتاةً، صحيح؟"

فرفَعَ نظَرَه بسُرعة، وسأل: "كيفَ عرَفتِ؟"

فقالت مارتي بابتسامة: "هكذا يظهر".

"نعم، تخميني أنَّه يظهر".

وانتظرَ لحظةً، ثُمَّ قال: "إنَّها مُميَّزة، مارتي...رائعةٌ حقًّا. كان

عليَّ...كان عليَّ أن أُكلِّمَ شخصًا ما. ما كانت ماما لِتَتفهَّم...أنا على يقينٍ بأنَّها ما كانت".

تحيَّرت مارتي. ماذا عنَى؟

وقالت مُتسائلةً: "لعلَّك تتخلَّى عن ماماكَ سريعًا!"

"لا، لسُت أعتقِدُ ذلك. لو أعطَت نفسَها فُرصةً للتَّعرُّف بها...لَفَهِمَت عندئذٍ. ولكنَّني أخشى أوَّلَ الأمر...وذلك هو السَّبب الذي من أجله جئتُ إليك، يا مارتي أنتِ تعرِفين ما غراهام. أفي وسعكِ...أفي وسعكِ أن تُكلِّميها و...؟"

"هل هي- هل الفتاةُ من مكانٍ قريبٍ إلى هُنا؟"

"لا، في الواقع. إنَّها...إنَّها مِن فوق، من الجبالِ وراءنا. وهي تعيشُ هُناك مع جدِّها".

"واسمُها؟"

"إنَّه أُواهْتيكا".

"أُو-واه-تي-كا...عجبًا، يبدو كأنَّه...". قطعَت مارتي جُملتها فجأةً إذ أدركَت ما كان تومي يُخبِرُها به. "إنَّها...". ثُمَّ أكملَت بهدوء: "فتاةٌ من السُّكَّان الأصليِّين".

فما كان من توم إلَّا أن أومأ برأسه إيجابًا.

وأخيرًا قالت مارتي: "نعم، تومي، فهِمتُ". وإذ نظرَت إلى وجه الشَّابِّ المَكروب، لم تدرِ ماذا تقول بعد.

مشَت مُبتعِدةً بِضعَ خطوات، إذ حاولَت أن تجعَلَ الأُمورَ تقَعُ تحتَ مَنظورٍ ما، ولكنَّها بطريقةٍ ما لم تستطِع أن تُفكِّرَ بِجَلاء في خِضَمِّ أفكارها وعواطفها المُشوَّشة.

وصلَّت بصَمت، لكنْ بحرارة: **أيُّها الآبُ المُبارَك، رجاءً، ساعدنا على حلِّ هذه المسألة!**

لمَّا رجَعَت إلى توم، اختارت جِذلَ شجرَة بقُربه وقعدَت عليه.

قالَت: "لا بأس. أودُّ أن أسمَعَ عن الفتاة". ثُمَّ سألت: "أينَ التقَيتَ أُواهْتيكا؟" وقد لفظَتِ الاسمَ غير المألوف بانتِباه.

أخذ توم نفَسًا عميقًا، وبدأ يتكلَّم: "التقَيتُها في الخريف الماضي. أوَّلَ مرَّة رأيتُها، كنتُ في العَراء أُفتِّشُ عن بقَرَتين ضالَّتين. تسلَّلَتا عبْرَ السِّياج وتوغَّلَتا في الرِّيف الجبَليّ، وذهبتُ وراءَهُما على ظهرِ حِصان. لم أعثُرْ عليهِما ذلك النَّهار، ولكنْ في طريق رجوعي إلى الدِّيار، وجدتُ أيْكَةَ تُوتٍ كُحليٍّ، ثِمارُها كبيرةٌ جدًّا وكثيرةُ العُصارة، فتوقَّفتُ وأكلتُ قليلًا منها. ثُمَّ قرَّرتُ أن آخُذَ شيئًا منها لِماما لأجلِ فطيرةِ حلوى، فنزعتُ قُبَّعتي وبدأتُ أملأُها بِالتُّوت.

بينما كنتُ أقطِف، استطعتُ فجأةً أن أُحِسَّ عينَين تنظُران إليَّ، ورفعتُ نظَري، متوقِّعًا تقريبًا أن أرى دُبًّا أسود أو أسَدًا، فإذا تلك الفتاة واقفةٌ هُناك، وقد كان شعرُها وعيناها سُودًا كجناحِ غُراب. كانت مُرتديةً ثوبًا من جِلدِ غزالٍ مع خرَز، ولكنْ ما فاجأني حقًّا هو أنَّها كانت تضحكُ عليَّ. نعم، كانت تُحاوِل ألَّا تضحك، إلَّا أنَّها ضحِكَت رُغمَ

ذلك. ثُمَّ أنَّ عينَيها...تأجَّجتا تقريبًا في الواقع، وأخفَت فمَها وراءَ يدِها.

لمَّا سألتُها عنِ المُضحِك في الأمرِ، فهِمَت لُغَتي، وقالت إنَّها ما رأت قطُّ من قَبلُ شُجاعًا يقطِفُ التُّوتَ كامرأة. وقد جعلني ذلك ساخطًا نوعًا ما، فقُلتُ لها إنَّ شُجعانَها رُبَّما لم يكونوا أذكياءَ كفايةً لِيَعرِفوا كم هو طَعمُ فَطيرةِ التُّوتِ الكُحليِّ طيِّب.

كفَّت عن الضَّحِك، وهدأتُ أنا قليلًا. ثُمَّ تحدَّثنا قليلًا، فقالت لي اسمَها: أُواهْتيكا، ومعناه زهرةٌ صغيرة. وفي كِلتا الحالَين، بدا وَقعُه جميلًا.

حسنًا، على كُلِّ حال، تلاقَينا من جديد...مرَّاتٍ كثيرةً. في أشهُر الشِّتاء، كنتُ أترُكُ لها لحمَ غزالٍ أو غيرِه من الطَّرائد. وهي تُقيمُ وحدَها مع جدِّها المُسِن! لم يُطِقِ المَحميَّة الحُكوميَّة، ومِن ثَمَّ انتقلَ وحدَه إلى الجِبال. وأُواهْتيكا تكتفي بهَزِّ رأسِها عندما أسألُها هل أستطيعُ أن أذهَبَ إلى بيتِها لأُقابِلَ جدَّها. إنَّه كبيرُ السِّنِّ...كبيرُ السِّنِّ جدًّا. وهو بالحقيقة أبو جدِّها. وعندما يرحل، لَن يبقى لها أيُّ شخصٍ أبدًا. تقولُ إنَّها سوف ترجِعُ إلى المَحميَّة...وإنَّ شخصًا ما سيؤويها، أو شُجاعًا ما سيجَعلُها زوجته. ولكنَّني لا أُريدُ ذلك".

والآنَ نظَرَ مباشرةً إلى مارتي. "مارتي، أُريدُ أن أتزوَّجها. إنَّني أُحِبُّها. أنا..." ثُمَّ تأوَّه. "تُرى، كيف سأُخبِرُ بابا وماما؟"

هزَّت مارتي رأسها. مِسكينٌ تومي. مِسكينةٌ السيِّدة ما. وماذا سيفعل بَن...

وما لبِثَت مارتي أن وقفت وتلفَّعت بِشالها، إذ أحسَّت بُرودةً مُفاجئة في الهواء.

ثُمَّ قالت، هازَّةً رأسها: "آه، تومي! لستُ أدري...لستُ أدري تمامًا".

ووقف تومي أيضًا على قدَمَيه.

"ولكنَّك ستتكلَّمين إليهما؟ ستُحاوِلين...أليس كذلك، يا مارتي؟"

فوعدَت: "سأُحاوِل...ولكنْ، تومي، أنت تعرِف...أنت تعرِف أنَّ الأمر لن يكون سهلًا...لا على أهلك، ولا على جَدِّها أيضًا".

وبلَعَ ريقه بصعوبة، قائلًا: "أعرِف. أنا أعرِف، ولكنَّني فكَّرتُ في الأمرِ مليًّا. فعِندي أرضي الخاصَّة، وكوخي الخاصّ. ليس كبيرًا، ولكنَّها عاشَتِ الشِّتاء في خيمةٍ من جُلود. فينبغي أن يبدو الكوخُ جيِّدًا بعد ذلك. لن نُضطرَّ إلى الاختِلاط كثيرًا بالآخرين. فأرضُنا مُستقلَّةٌ بذاتها تقريبًا. ولن نُزعِجَ أحدًا أبدًا. سوف تكون على مقربة من الرِّيف الجبَليّ...إنَّها تحبُّ الجِبال. وفي وسعها أن ترى بني قومها قليلًا...".

قاطعَته مارتي: "أنت لا تُفكِّر في ما ينتظِرُك، تومي. أنتَ لا تُفكِّر تفكيرًا قويمًا. الأطفال...العائلة...ماذا بشأنهم؟ ليس في وسعك فعلًا

أن تُخفيَ صِغارَك بعيدًا عن عائلتَيكُما. فكِّر في أُمِّك...كم تُحِبُّك، وكم تُحِبُّ حُفَداءها الصِّغار".

سقَطَ وجهُ تومي إلى داخِلِ راحتَيه. وقال بصوت خفيضٍ جدًّا بحيثُ لم تَكَد مارتي تسمَعُ كلماته: "ذلك هو الجوابُ الوحيد الذي لا أملِكُه...الجوابُ الوحيد. ولكنَّ...سوف...سوف نحلُّ المسألة عندما يحينُ الوقت". وقد رفعَ وجهَه لِينظُرَ وجهَها.

لم تدرِ مارتي ما تقول.

وتوسَّلَ توم: "رجاءً، مارتي. رجاءً، حاوِلي أن تُكلِّمي ماما. وإذا استطاعت هي أن تُدرك الأمر، فلا بُدَّ أن تُقنِعَ بابا. رجاءً...".

تنهَّدت مارتي، ووعدَت قائلةً: "سأُحاوِل". إلَّا أنَّ عينيها اغرَورقتا. "صِدقًا، سأُحاوِل، ولكنَّني لستُ على يقينٍ بمدى نجاحي في مَسعاي".

تقدَّمَ تومي إلى الأمام، وعانَقَها عِناقًا جريئًا وبريئًا.

وقالَ بصوتٍ خفيض. "شُكرًا، مارتي. ذلك هو كلُّ ما أطلبُه. ثُمَّ...ثُمَّ...يومًا ما سأصطَحِبُك لِمُلاقاة أُواهْتيكا. وعندما ترَينَها، ستعرفين لماذا...لماذا أشعُرُ هذا الشُّعور. والآن، عليَّ أن أمضيَ مُسرِعًا".

ودارَ لِيَذهب.

وإذ شاهدَته مارتي يمشي مُبتعِدًا، همَسَت: "يا ربّ، رجاءً، بارِك

تومي...وأُواهْتيكا...".

10

البَحثُ عن واعِظ

عُقِدَ اجتِماعٌ لأهل الحيِّ عصرَ يومِ سبتٍ في أوائل تشرين الأوَّل، بعدَ الفُروغ من حَصادِ الخريف. وقد دُعي إلى الحُضور جميعُ الجيران، وقد فوَّتَ قليلون جدًّا فُرصةَ الاجتِماع معًا مرَّةً أُخرى.

أرسَلَ زيك لاهاي خبَرًا بأنَّه رُغمَ كونِ الاجتماع مُهِمًّا فقد كان هو مشغولًا جدًّا بإنجاز الأعمال في مزرعته، وليس في وسعه فعلًا أن يوفِّرَ الوقتَ اللَّازم.

كان الجيرانُ أصلًا قد اكتشفوا أنَّ زيك لاهاي لم يستطِع أن يوفِّرَ أيَّ وقتٍ بعيدًا عن مَهامِّ مزرعته، لا لإكرامِ يوم الرَّبِّ، ولا لمُساعدةِ جار، ولا لأيِّ سبب آخر. ومع أنَّ كلارك نادرًا ما كان يُعلِّق على سلوكِ جارٍ ما، فقد أسرَّ إلى مارتي: "لا بُدَّ أن تكونَ تلك المزرعةُ المنكودةُ مُضطرِبةً تقريبًا. فالمالِكُ الأوَّل، جَد لارسون، يُقنِعُ نفسَه بتركِ كلِّ شيء على حاله؛ والمالِكُ التَّالي يدفعُ كلَّ شيءٍ إلى أقصى حدّ. إنَّ هذا يجعلُني أتوقَّفُ قليلًا وأنظُرُ إلى داخِلِ ذاتي. فأرجو ألَّا أكون مُتعطِّشًا إلى الأرض ومُتلهِّفًا إلى المال فوقَ الحدّ، بحيثُ لا يعودُ

عندي وقتٌ لله أو العائلة أو الأصدِقاء".

أومأت مارتي برأسها في صمت، مُبديةً مُوافقةً حماسيَّة.

جرى الاجتماع في مبنى المدرسة يومَ السبت المُحدَّد. وكُلِّف بَن غراهام أن يتولَّى إدارةَ الاجتماع. فلمَّا هدأت جلَبةُ الأحاديث، وقفَ على قدَمَيه، وشرَعَ يتكلَّم:

"أيُّها الأصدِقاء والجِيران، أنا على يقين بأنَّكم جميعًا تعلمون لماذا تمَّت الدَّعوةُ إلى هذا الاجتماع. لقد مضى الآنَ زمانٌ على مِنطقتنا وهي بِلا قِسِّيس. كان لنا مرَّتين في السَّنة حظٌّ طيِّب بواعظٍ زائر يجتاز عبْرَ المناطِق المُجاوِرة ويتوقَّف عندنا مُدَّة كافية لإلقاء عِظَةٍ وتزويج شُبَّانِنا وشابَّاتِنا.

يُقلِقُنا ألَّا يكونَ هذا كافيًا لإعطاء صغارِنا التَّهذيبَ الوافيَ حسَبَ حقائقِ الكتاب المقدَّس. ونحنُ الأكبرَ سِنًّا نحتاجُ لأن نُعَلَّم كلِمةَ ربِّنا أيضًا ونُذكَّرَ بما هو مُهِمٌّ في الحياة.

اجتمَعَ عدَدٌ قليلٌ منَّا منذُ مدَّة، ونرى أنَّ الوقتَ قد حان للقيامِ بتحرُّكٍ ما. لدَينا الآنَ مبنى مدرسة. وهذا المبنى الجميلُ هُنا بُرهانٌ على ما يمكن أن نُنجِزَه حين نعمَلُ معًا. فالآنَ هو الوقتُ لنا كي نعمَلَ معًا من جديد".

بدأ بعضُ النَّاس يصفِّقون، وهتَفَ آخرون مُشجِّعين. فبدا بَن مُرتبِكًا قليلًا حِيالَ ذلك كُلِّه، ولكنَّه ما لبِثَ أن عاد إلى الاتِّزان فنظَّفَ

حَنجرتَه مُتَنحنِحًا، واستأنفَ كلامه.

"ما يُعوِزُنا أن نفعله عندَ هذه النُّقطة هو أن نختارَ لنا رجُلَين أو ثلاثة لتشكيل لجنة للنَّظَر في الإتيانِ بِواعِظ: واعظٍ يبقى هُنا تمامًا للقيام بالخِدمات النِّظاميَّة تقريبًا، ولأداءِ مَراسِم الدَّفن والزَّواج في أيِّ وقتٍ من السَّنة، ولأجلِ الوعظ بكلمة الله".

ومن جديد صفَّق الحاضرون. فتطلَّعَ بَن إلى زوجته ما طلَبًا للدَّعم. ولا بُدَّ أنَّه تشجَّع بما رآه في سِيمائها، إذ رفَعَ يده لأجل السُّكوت كي يُكمِل.

"سنأخُذُ الآنَ الأسماء بشأنِ مَن تَودُّون أن يكونوا في اللَّجنة. يمكن أن تتشكَّل اللَّجنة من رَجُلَين، أو ثلاثة إذا أحببتُم. فأيُّ عدَد يتخطَّى ذلك يجعلُ الأمر مُرهِقًا بعضَ الشَّيءِ".

وقف رجُل بقُرب الصَّفِّ الخَلفيِّ ودعا كلارك ديقِس ليكون في اللَّجنة. وسمِعَت مارتي بعضًا يقولون نعم للمُرشَّح.

ثُمَّ سمَّى تود استِرن بن غراهام، ومن جديد أبدى كثيرون موافقتهم وهُزَّت رؤوسٌ إشارةً إلى التَّأييد.

بعدئذٍ وقفَ السَّيِّدُ كُفِنز واقترحَ بصوتٍ عالٍ انضمامَ الأُستاذ وِلبُر وِتِل إلى اللَّجنة. فسادَ صَمتٌ حَرِج. وحزرَت مارتي أنَّ أحَدًا في الغُرفة لم يكن يعلَمُ أيُّ مَيلٍ دينيٍّ قد يكونُ لدى المُعلِّم الجديد. أخيرًا بدأت الأقدامُ تُجَرجَر والحناجِرُ تُنظَّفُ بِالتَّنَحنُح.

فتقدَّم بَن إلى الأمام وقال: "سمِعتُم جميعًا اختيارَ السَّيِّد كُفِنز. أُستاذُ وِتِل، أأنت راغبٌ أن تدَعَ اسمَك يُشمَل لِلمُساعدة في اختيارِ واعظٍ جديد؟"

وقفَ الأُستاذ وِتِل على قدمَيه بمَهابةٍ بادِيَة، وقدَّم عرضًا بصوتهِ المُرخَّمِ بانتباه: "أعتقِدُ أنَّ ليَ معارفَ كثيرين في الشَّرق يُمكِنُ حقًّا أن يكونوا ذَوي عَونٍ عظيم للرِّجال الذين في اللَّجنة".

فسأله بَن: "أوَأنتَ على استِعدادٍ لأنْ تخدِم؟"

ووافقَ الأُستاذُ وِتِل: "بالتَّأكيد، بالتَّاكيد. أعتقِدُ أنَّ خادمًا مُقيمًا سيكونُ مصدرَ قُوَّةٍ عظيمًا في مُجتمعنا".

"شُكرًا لك، أُستاذ وِتِل". وأجالَ بَن نظَرَه في الحُضور. "سمِعتُم كلُّكم الأسماءَ الثَّلاثة المقدَّمة: كلارك ديقِس، وأنا، والأستاذ وِتِل. فما رغبتُكم؟"

نادى صوتٌ من آخِر الغُرفة: "فليكُن هكذا!"

وأعلَنَ بَن: "سنُصوِّت. المُحبِّذون يقولون نعم، والمُعارَضون يقولون لا". فلم يَقل أحَدٌ لا.

بعدَ الاجتماع، طلَبَ الأُستاذُ وِتِل الانفرادَ بكلارك وبَن، حانيًا رأسَه بتحيَّةٍ لطيفة لِما غراهام ومارتي إذ كانتا تتحدَّثان على مقربة.

وبدأ كلامه بطريقةٍ رسميَّة تقريبًا: "والآن، سيِّديَّ، أنا شخصيًّا أعرِفُ خِرِّيجي معاهِد لاهوتيَّة كثيرين يُمكِن أن يُلَبُّوا احتياجَنا على نحوٍ وافٍ

تمامًا. هل ترغبَانِ أن أتصرَّفَ بصفتي مُراسِلًا بالنِّيابة عن اللَّجنة؟"

بدا بَن غَير مُتيقِّن، ولكنَّ كلارك أجاب: "أحسُبُ أنَّ في وسعك أن تكتبَ الرِّسالة إذا رغِبتَ. إنَّما نودُّ أوَّلًا أن نعرِفَ قليلًا عن أُولئك الأشخاص الذين ستكتب إليهم".

فقال الأُستاذ وِتِل: "سأُنشئُ خُلاصةً وصفيَّة عن كُلِّ مُرشَّح للتَّعريف به، وفي وسعِكُما أن تَنتقِيا الأفرادَ الذين تودَّان أن أكتُبَ إليهم".

وسأل بَن: "هذه الخُلاصةُ الوصفيَّة هل تكونُ شبيهة بتقديمِ أحَدِ المعارف؟"

فاستفسَرَ الأُستاذُ وِتِل: "تقديمُ أحَدِ المعارف؟" ثُمَّ هزَّ رأسَه، تقريبًا بقوَّة، إبداءً للموافقة، قائلًا: "تمامًا...تمامًا".

وقال كلارك: "امضِ قُدُمًا، أُستاذُ وِتِل. ثُمَّ بَن وأنا نُراجِعُ تلك اللائحةَ معك".

فقال الأُستاذُ وِتِل: "حسَنُ، سيِّديَّ، حسَن!" ثُمَّ مشى مُبتَعِدًا وهو يتبختر، راضيًا تمامًا عن نفسه.

كان المُعلِّم الجديد قد سمِعَ كثيرًا جدًّا، وهو في الشَّرق، عن عدَم سماح أهل الغرب لِلشرَّقيِّ بدخول الدَّائرة الجوَّانيَّة كي يصيرَ جُزءًا من حياتهمِ التُّخوميَّة. ومع ذلك فها هو هُنا، بعدَ سنةٍ واحدة فقط في عَراء الغرب، يخدِمُ الآن في لَجنة مُهِمَّة...لَجنة مُهِمَّة جدًّا. فبعدَ إسهامه هُهُنا، كان على يقين بأنَّ مكانتَهُ ستَصير مُعزَّزة.

سيذهبُ إلى مكان سكَنهِ في منزِلِ آلِ واتلي، إلى غُرفةِ نومه، ويُغلِقُ الباب، ويُمشِّطُ ذاكِرتَه طلَبًا لأفضل المُرَشَّحين المُمكِنين الذين يستطيعُ أن يتذكَّرَهم. فإنَّ بعضَ العُلَماء- وهو يعرِفُ كثيرين منهم- قد يكونون أيضًا على استِعداد، كما كان هو نفسُه، للقيام بمُغامرة إلى الغرب لكي يختبِروا مِتعةَ فَتحِ تَخمٍ جديد.

كان مُستعدًّا أن يعترِفَ بأنَّ لِلغَرب عوائقَهُ، ولكنْ تُوجد تعويضاتٌ. وأحَدُ هذه، في حالته، الآنِسةُ تَسِّي لاهاي. هُناك، بعيدًا في الشَّرق، كانت لِلصَّبايا العادةُ المُفتقِرةُ إلى شيءٍ من المَودَّة في إشاحةِ وجوهِهنَّ لدى رؤيته مُقترِبًا. أمَّا تَسِّي فما كانت تُضمِرُ حَياءً من هذا النَّوع. صحيحٌ أنَّها ناهزَت الثامنةَ عشَرة وهو في الثانيَّة والثَّلاثين، ولكنَّ النَّاس في الغرب على ما يظهر قلَّما تماحكوا بشأنِ لَطائفَ اجتماعيَّة من هذا القبيل. فقد كان راغبًا في قبولها كسيِّدة شابَّة سارَّة جدًّا، وبدَت هي راغِبةً بالتَّساوي في قبوله كرَجُلٍ مؤهَّل. وبالحقيقة أنَّها كانت بالأحرى مُعجَبةً بقُبَّعته السَّوداء المستديرة وطِماقَيهِ الأبيضَين. وقد نوى أن يُعرِّجَ على منزل الآنِسة تَسِّي، سريعًا جدًّا كما تمنَّى، لأنَّه كان توَّاقًا أن يكتشِفَ أينَ يقِفُ تمامًا. ثُمَّ إنَّ هذا الاجتماعَ وعُضويَّتَه في اللَّجنة للعُثور على واعِظ قد أعطَياهُ الثِّقةَ المُضافةَ التي يحتاجُ إلَيها. لا شكَّ أنَّه سيكونُ مُضطرًّا لأنْ يدوسَ بِحَذَر، ما دامَ واضِحًا أنَّ عينَ السَّيِّدة واتلي كانت عليه لأجل ابنتِها الكُبرى، ولكنَّه يقينًا سيُبقي نفسَه خارِجَ ذلك المُستنقَع، كما طمأنَ نفسَه لمَّا جلسَ إلى مكتَبهِ ليبدأ لائحتَه.

١٦

مارتي تُحادِثُ ما غراهام

أجَّلَت مارتي زيارتَها لرؤيةِ السيِّدة ما أطولَ مُدَّةٍ استطاعَتها، ولكنَّها أخيرًا علِمَت أنَّ عليها القِيامَ بتلك الزِّيارة الصَّعبة. فقَدِ اعتمَدَ تومي عليها، وهي أعطته وعْدَها. وعاجلًا سيجعَلُ الشِّتاءُ ببَرْده وثلجه من جديد رِحلةً كهذه أصعَبَ تَولِّيًا، ثُمَّ إنَّها ستكونُ عندئذٍ مُرهقةً بَدَنيًّا ونفسيًّا على السَّواء.

ماذا يُمكِنني أن أستخدِمَ كسبَبٍ للتَّعريج على السيِّدة غراهام؟ هكذا سألت نفسَها، ولكنَّها لم تستطِع أن تطلُعَ بأيِّ شيء. أخيرًا قرَّرت أن تذهب فحسْب.

كان كلارك مُتوجِّهًا إلى المدينة لأجل رِحلته المُعتادة يومَ السَّبت، فقالت مارتي: "فكَّرتُ أن أُرافِقك في الطَّريق إذا كنتُ لا أُزعِجُك في شيء".

فبدا عليه السُّرورُ، وقال: "هذا من دواعي سُروري. لا يُتاحُ لي أغلبَ الأحيان أن أعرِضَ زوجتي مُتباهِيًا بها في المدينة".

فقالت له بِسُرعة: "أُوه، لن أُرافِقَك إلى المدينة، بل أنوي أن أُعَرِّجَ لِمُحادثة السيِّدة ما في أثناء إنجازِكَ مُهمَّاتِك".

ذَوَتِ ابتِسامةُ سُرورِهِ بعضَ الشَّيء، ولكنَّها لم تتلاشَ تمامًا. وقال: "حسنًا، على الأقلِّ ستكونُ لي رِفقَتُكِ إلى حين".

أعلمَت مارتي الفتيات بخُطَطها. فبدَت نانْدري أكثرَ من راضية بأن تتولَّى شؤون الأولاد وتكونَ هي سيِّدةَ السَّاحةِ وحدَها.

ارتدَت مارتي معطفَها وربطَت قُبَّعتها. وأبى معطفُها أن يتزرَّرَ جيِّدًا فوق خَطِّ خصرِها المُتمدِّد، فاضطُرَّت إلى الاكتفاءِ بإسداله حولَها.

رمَقَها كلارك وهي تُجاهِدُ للصُّعود إلى العرَبة، إذ أعوَزَتها البَراعةُ رُغمَ يدَيه المُساعِدتَين.

فسألها: "أأنتِ على يقينٍ بأنَّ هذا هو الوقتُ المُناسِب لرُكوب العرَبة المتخبِّطة على الطَّريق؟"

وطمأنَته: "لن يؤذيَني ذلك أبدًا".

ثُمَّ لاحظَت فِعلًا أنَّه ساق أبطأ من المُعتاد.

وسرعانَ ما حلَّ السُّرورُ محلَّ مُفاجأةِ السيِّدة ما لدى فَتح الباب لمارتي. فقالت: "يسرُّني جدًّا أنَّكِ جئتِ ما دُمتِ قادرةً على ذلك".

ارتاحت مارتي لأنَّ السيِّدة ما افترضَت أنَّ السَّببَ الذي دعاها للمجيء كان مُجرَّدَ زيارةٍ اجتماعيَّة، وأنَّ هذه ستكونُ فُرصتَها الأخيرة مُدَّةً من الزَّمن.

تحدَّثتا عن هذا وذاك فوقَ فِنجانَي قهوة، وكِلتاهُما تقومان بشُغلٍ يدويٍّ فيما هُما تُدَردِشان. وأبقَت مارتي عَينًا على السَّاعة، عالِمةً أنَّ عليها ألَّا تؤجِّلَ الغرَضَ من مجيئها وقتًا أطولَ ممَّا ينبغي. أخيرًا سحَبَت نفسًا عميقًا، وباشرَتِ الكلام: "جاء تومي لرؤيتي منذُ مُدَّة".

فرفعَت ما غراهام نظرَها، دون شكٍّ حِيالَ درَجةِ صوت مارتي ونبرَته أكثرَ منها حِيالَ الكَلماتِ بذاتها.

وشرحَت مارتي: "كان بحاجة إلى مُحادثة".

سكوت.

"فتاة، هُه؟"

"نعم. هل علِمتِ بأمرِها؟"

"خمَّنتُ ذلك، ما دامَ لا يخفى، كما تعلمين. لدَيهِ جميعُ العلامات، ولكنِّي لم أستطع أن أتحقَّق. لم يقُل لي أيَّ شيءٍ عنها. حاولتُ استدراجه بذلك الاتِّجاه بِضعَ مرَّات، ولكنَّه يتحفَّظ ويُغيِّر الموضوع".

سكوتٌ من جديد.

"في الأمرِ شيءٌ غيرُ سليم؟ أذلك هو الواقع، يا مارتي؟"

بلَعَت مارتي ريقها بصُعوبة: "لا، ليس الأمرُ كذلك حقًّا. إنَّما...حسنًا، هو مُختلِف فحسْب...نعم، مُختلِف".

"كيف هو مُختلف؟"

كادت مارتي تختنِق إذ تناولَت رشفةً أُخرى من قهوتها لتأخيرِ ما لا بُدَّ منه. "حسنًا، هذه الفتاةُ التي يحبُّها تومي...". وتوقَّفَت لحظةً ثُمَّ اندفعَت قائلةً: "وهو يحبُّها حقًّا، يا ما...لقد رأيتُ ذلك من طريقةِ كلامه. حسنًا، هذه الفتاةُ...اسمُها هو...هو أُواهْتيكا".

نظرَت مارتي بسُرعة إلى السيِّدة ما، وكان في وسعها أن تُلاحِظَ في الحال أنَّها أدركت المعنى. فقد توقَّفت صِنَّارتاها عن الطَّرطقة، وبدا وجهُها مشحوبًا، واشتملَت عيناها على ألَم.

همسَت: "تومي؟"

"نعم، حسنًا...أنت ترَين...". ولمسَت مارتي الحاجةَ إلى الإسراع بتفسير. "لم يكُن تومي يتطلَّع إلى حدوث هذا. اعلَمي أنَّه كان فقط يبحث عن بقرَتين ضالَّتيَن، في عَراء الرِّيف الجبليّ، وتوقَّف لِيَقطف بعضَ التُّوت من أيكةٍ لأجلِ فطيرةٍ حلوى. ثُمَّ...ثُمَّ كانت هذه الفتاة هُناكَ أيضًا، تقطفُ التُّوت، فبدأا يتحدَّثان...إنَّها تتكلَّم الإنكليزيَّة فعلًا...ومن ثَمَّ تسنَّى لهما أن يتعرَّفا أحَدُهما بالآخر أفضل على مرِّ بِضعةِ أشهُر. ثُمَّ...حسنًا...تومي يحبُّها. ويبدو كأنَّها هي تحبُّ تومي".

ألقت ما شُغلَ حَبكِها جانبًا، وهبَّت واقفةً.

"ولكنْ لا يمُكِنُه، يا مارتي، لا يُمكِنُهما. ألا ترَين ذلك؟ الأمرُ لا ينجَحُ فعلًا. إنَّه دائمًا يعني حُزنًا وبلايا...دائمًا".

فقالت مارتي على مهل: "أفهَمُ ذلك، ولكنَّ تومي لا يُدرِكُه".

"ماذا قال؟ ألا يُبالي أهلُ الفتاة؟"

"ليس عندَها أهل...أعني لا أحَد ما عدا رجُلًا مُسِنًّا...جدًّا. لم يُخبِراه بعد. تعتقد أُواهْتيكا...". ثُمَّ أكمَلت بِوَهن: "تعتقِدُ أنَّ من الأفضل أن ينتظِرا".

فكرَّرت السيِّدة ما: "أن ينتظِرا، هُه؟ وعندئذٍ سيردَعُه ذلك عن القيام بفِعلةٍ طائشة. لعلَّه يوجد شيءٌ ما بَعدُ سنعرِفُه عندئذٍ؟"

وإذ حاولَت مارتي أن تتلمَّسَ طريقها بانتِباه، قالت: "لستُ أدري! من الطريقة التي بها تكلَّمَ تومي، لا أعتقِدُ أنَّ الجَدَّ سيَعيشُ طويلًا. ثُمَّ...ثُمَّ...لا أعتقِدُ أنَّها تنوي أن تُخبِرَه. لننتظِرْ فقط حتَّى يرحل...ثُمَّ نمضي قُدُمًا". وأكملَت على عجَل: "ذلك هو ما أظنُّه".

فصلَّت السيِّدة ما، شِبهَ باكية: "آه، يا إلهَنا الكريم، ماذا عسانا أن نفعل؟"

وتنهَّدَت مارتي، ثُمَّ اتكأت إلى الوراء على كُرسيِّها. مَن كانت هي حتَّى تُحاوِلَ أن تُقدِّمَ نُصحًا إلى امرأةٍ مثلِ ما غراهام؟

أخيرًا قالت، وازنةً كلَّ كلِمة: "حسنًا، يبدو لي أنَّ لدَيكِ خِيارَين فقط. ففي وُسعكِ أن تُقاوِمي الأمرَ وتخسري تومي على وجه الاحتمال، أو في وُسعكِ أن تتفهَّمي الأمر وتُرَحِّبي بِكَنَّة من السُّكَّان الأصليِّين".

حاولت مارتي أن تقرأ سِيماءَ السيِّدة ما وهي تذهب وتجيء بين الطَّاولة والموقد. وما لبِثَت السيِّدة ما أن توقَّفَت فجأةً وقوَّمت كتِفَيها.

ثُمَّ قالت: "مارتي، فكَّرتُ توًّا في خِيارٍ ثالث. لن أُقاوِمَ الأمر، ولن أُشجِّعَ عليه، ولكنِّي بالتَّأكيد سألجأ إلى شيءٍ من الصَّلاة".

"الصَّلاة؟ كيف؟"

تدحرجَت الكلماتُ من فم السيِّدة غراهام: "الصَّلاة...كيفَ برأيكِ؟ لن ينجحَ الزَّواجُ فعلًا، يا مارتي. وأنا لا أُريدُ لِتوم ولَدِي أن يتأذَّى. حُفداءَ ليسوا حُفَداءُ أحَد لأنَّهم ليسوا بِيضًا ولا سُمرًا! ما كان الأمرُ لِيَحدث، مارتي".

فتكلَّمَت مارتي بهدوء وعلى مهل: "إذا صلَّيتِ بهذه الطريقة، يا ما غراهام، أفَتكونين مُلتمِسةً المَعونة؟ لأجلِ كِلَيهما؟ أم مُصدِرةً الأوامِرَ فحسْب؟"

هبَطَت كتِفا ما غراهام وانزلقَت الدُّموعُ على خدَّيها، فلم تُكلِّفْ نفسَها عناءَ مَسحِها. أخيرًا بدا أنَّ المعركة في داخلها همَدَت. فارتمَتْ على الكرسيِّ على الكُرسيِّ مُقابِلَ مارتي.

"أنتِ على حقّ، لا شكَّ في ذلك. أودُّ أن أُصلِّي كي يضَعَ الله بسُرعةٍ تامَّة حدًّا لهذا كلِّه. إنَّ الأمرَ يُفزِعُني، يا مارتي. حقًّا إنَّه يُفزِعُني. أنا أشعُرُ تمامًا بأنَّه لا يُمكِن أن يطلعَ أيُّ خيرٍ من هذا الأمر، مهما جرى. سأُصلِّي، سأُصلِّي كثيرًا جدًّا، وسأُحاوِلُ جاهدةً أن أقول:

«لِتكُن مشيئتكُ!» وأنا أعني ما أقوله. إلَّا أنَّني سأقولُ لكِ الآن، يا مارتي، إنَّه لا يبدو لي أنَّ الله يُريد أن يتزوَّجَ شخصانِ ينتميان إلى عِرقَين مُختلِفَين ويُرَبِّيا صِغارًا يتبيَّنُ أخيرًا أنَّهم ينتمون إلى لامكان. إنَّ الله لا يؤيِّدُ تشويشَ الأفكارِ أو ألوانِ البَشَرة، بقَدْرِ ما يسَعُني أن أفهم، ولا الأذى والألم اللذين ينطوي عليهما العَزلُ والخِذلان. كيف يُمكِنُ أن يكون ذلك منه، يا مارتي؟"

لم يبدُ أنَّ السيِّدة ما كانت تتوقَّع جوابًا، فقطعَت حديثها. وقد جلسَت تفرُكُ يدَيها اللَّتين أنهكَهُما العمَلُ إحداهُما بالأُخرى في اضطِرابٍ ملحوظ.

أخيرًا قالت: "يجب أن نُجريَ أنا وبَن مُحادثةً طويلة في هذا الموضوع. ثُمَّ سنُحاوِلُ نحنُ الاثنَين أن نُكَلِّمَ تومي لعلَّه يتعقَّلُ قليلًا. إنَّه فتًى طيِّب، يا مارتي، وعلى كتِفَيه رأسٌ جيِّد. سوف يُدرِكُ أنَّ هذا لا يمكن أن يكون صالحًا...أنَّه لن يكون صالحًا، لا لَهُ ولا لها أيضًا".

تمنَّت مارتي لو تركَت ما غراهام في الباب شِقًّا صغيرًا جدًّا بدلًا من إغلاقه بإحكامٍ تامّ، وما كان منها إلَّا أن أومأت برأسها. وشعرَت بأنَّها لم تفعل ما جاءت لإنجازه وقد وعدت تومي تقريبًا بأنَّها ستفعل ذلك. رُبَّما كانت السيِّدة ما على حقّ. فمَن كانت هيَ، مارتي، لتعرِفَ الطَّريقة الصَّحيحة لِتتولَّى أمرَ وضعٍ كهذا؟ ويقينًا أنَّه فيما تقضي السيِّدة

غراهام وقتًا في الصَّلاة سيُبيِّنُ لها الله إذا كانت مُخطئة. ولكنَّ ذلك قد يستغرِق وقتًا لا بأسَ به.

مِسكينٌ تومي! لقد وَجِعَ مارتي قلبُها من أجله. وبطريقةٍ ما، أحسَّت أنَّه كيفَما جرَت الأُمور يوجَدُ كثيرٌ من الغَمِّ والهمِّ بانتظارِ الشَّابّ. يا ليتَ هُناك فحسْبُ طريقةً ما لِتَجنيبهِ الأسى. وأمَلَت أن يكون كلارك قد قطَعَ جزءًا كبيرًا من الطريق في رجوعه من المدينة. فقد كانت شاعِرةً بأنَّ الأمرَ سيكون مُحرِجًا لِما غراهام ولها إذا طالَت زيارتُها كثيرًا بَعد. وكانت مُتَلهِّفةً للإفضاء بالأمرِ مُفصَّلًا إلى كلارك في أثناء رِحلتهما الهادئة رجوعًا إلى البيت.

١٧

زيارة قصيرة لِوَندا

كانت مارتي مشغولةً عندَ طاوِلَة المطبخ تصنَعُ تحلِيةَ كلارك المُفضَّلة. فدخَلَ اكْلار من الخارج، وجرَّ كُرسيًّا بِلا ظهر، ووقفَ عليه ليُشاهِدَها تشتغِل.

"أأنتِ غاضِبةٌ على پا؟" جاء صوتُ على مُستوى مِرفَقها.

فتوقَّفَت مارتي عن دَحوِ العجين ونظرَت إلى الصَّبيّ. "ماذا تعني؟"

وشرَحَ اكْلار: "هذهِ كَعكةُ بابا المُفضَّلة. وأنتِ دائمًا تصنعينَها بعدَ أن تغضبي عليه".

ثُمَّ وثَبَ نازلًا ومضى قبلَ أن تتمكَّنَ مارتي من مُجرَّدِ الإجابة. وكان قد تفوَّه بالكلمات بواقعيَّة بالغة، كما لو كانت لا تستدعي عاقبةً ولا تحتاجُ إلى أيِّ تفسير. فعبَّست مارتي ومرَّت بِضعُ لحظات قبلَ أن عادَ الشَّوبَكُ يشتغِلُ بالعجين من جديد.

سألَت نفسها: **أأفعَلُ ذلك حقًّا؟ وإن كنتُ أفعلُه، فهل يظهَرُ واضحًا بذلك المقدار؟**

كانت الحقيقة أنَّها لم تخُض قطُّ أيَّ شِجارٍ مع كلارك. إنَّما كانت فقط تُليِّنُه قليلًا كي تطلُبَ منه الحِصانَين لتتمكَّن من التَّعريج على وَنْدا في زيارة قصيرة عصرًا. يقينًا أنَّ كلارك لم يكُن رجُلًا يُبقي زوجته حبيسةَ البيت، ولكنْ كانت لدَيه فِعلًا بعضُ الأفكار الصَّارمة إذ كان وقتُ مَخاضِها يقترب. وقد استطاعت مارتي بسُهولة أن تتصوَّر كلارك مُريدًا لها أن تُلازِمَ البيتَ في الفترة الرَّاهنة. كانت قد حلَّلَت أنَّ تحليتَه المُفضَّلة رُبَّما تجعلَهُ في مِزاجٍ أكثرَ مُرونةً، ومِن ثَمَّ أقبلَ اكْلار، ذاك الصَّغيرُ الذَّكيّ. فإذا كان اكْلار قد استطاعَ أن يستشفَّ بكُلِّ سهولةٍ ما في خاطرها، فقد كان مُرجَّحًا جدًّا أن يُلاحِظ كلارك أيضًا.

هزَّت مارتي كتِفَيها، ولم تتمالك نفسَها عن أن تبتسِمَ ابتِسامةً ساخرة إذ وضعَتِ الكعكةَ في الفُرن. لعلَّ معشرَ الرِّجالِ عندَها عرَفوها معرِفةً فُضلى إلى حدٍّ ما. وربَّما كان من الطَّيش أن تُفكِّرَ في المُخاطَرة بالخروج الآنَ تمامًا، إلَّا أنَّها شعرَت حقًّا بأنَّه ينبغي لها أن تُجريَ حديثًا مع وَنْدا.

شيئًا فشيئًا كان الخبَرُ ينتقِلُ من جارةٍ إلى جارة بأنَّ شيئًا ما بدا أنَّه لم يكُن على يُرام لدى طِفلِ آلِ مارشال، وحبَسَت مارتي نفَسَها خَشيةَ أن يرجِعَ صدى الشائعات إلى كام ووَنْدا. علِمَت أنَّه لم يكُن في وسعها أن تفعَلَ الكثير، ولكنَّها أمَلَت فقط أن تعلَمَ هل كانت ونْدا على عِلمٍ بأنَّ ابنَها الصَّغير كان...مُختلفًا. وقد أدركَت مارتي أنَّ قبول وَنْدا للواقع سيكون جِدارَها الحِمائيَّ: الشَّيءَ الوحيدُ الذي يُمكن أن

يحميَها من الأذى إذا رجَعَت إلَيها فعلًا أصداءُ أسئلةِ الجيران وتعليقاتِهم.

خُبِزَت التَّحلِية على أكملِ وجه، ولا بُدَّ أنَّ كلارك التقطَ الرَّائحةَ الطَّيِّبة حتَّى قبلَما عبَرَ بابَ المطبخ داخِلًا.

نادى مُقدَّمًا: "أُمْمْ... كعكةُ تُفَّاح مُحَلَّاة. إنَّها تجعَلُ فمَ الرَّجُل يتحلَّب!"

تبسَمَت مارتي، ولكنَّها شعرَت بأنَّها ما تزالُ غيرَ مُتيقِّنةٍ كيفَ تتقدَّم بطلَبِها. واقتادت نانْدري آرني إلى الدَّاخل، حيث غسلَت له عندَ مغسل الأيدي، ثُمَّ انضمَّا إلى باقي العائلة إلى المائدة.

كانت الوجبةُ مُسِرَّةً، لكنْ مُعجَّلةً قليلًا. فقد كان لدى كلارك شُغلٌ مُلِحٌّ أراد أن يرجِعَ إليه بأسرَعِ ما أمكن. وعلِمَت مارتي أنَّ عليها ألَّا تُبدِّدَ لحظةً واحدة قبلَ مُباشرة مهمَّتها.

فبادرَت قائلةً: "هل تحتاج إلى الحِصانَين عصرَ اليوم؟"

ورمقها كلارك بنظرة طويلة: "أتَنوين أن تلتقِطي حِجارة؟"

أحسَّت مارتي سخونةً تتصاعَدُ إلى خدَّيها، ولكنَّها كبحَت ردًّا سريعًا وتكلَّمَت بهدوءٍ بالغ، مُسيطِرةً على صوتها. "فكَّرتُ في رغبتي بالقيام برِحلة سريعة لرؤيةِ وَنْدا".

"قد تكونُ أسرعَ قليلًا مِمَّا خطَّطتِ له".

فأدركَت مارتي ما عناهُ ضِمنًا دون أيَّة صعوبة. وقالت: "أُوه، كلارك.

لقدِ اجترتُ في هذا قبلًا. فالآن، ألا تعتقِدُ أنَّني سأعرِفُ إذا كان وقتُ الوِلادة قريبًا؟"

بدا كلارك غيرَ مُقتَنِع، ونظَرَ إليها بِحَملقةٍ ذاتِ معنًى قائلًا: "كما يأتي المرأةَ المخاضُ بغتةً...".

فتيقَّنت مارتي أنَّها خسِرَتِ الحُجَّة.

وأكملَ كلارك قهوَته بصمت ثُمَّ قامَ لِيَذهب.

وإذِ ارتدى معطفَه، توقَّف قائلًا: "إذا كُنتِ مُصَمِّمةً فِعلًا على رؤية وَنْدا، فسَأسوقُ أنا بكِ إليها".

"ولكنْ شُغلُك...".

"سيَنتظِر".

قالت له مارتي: "ولكنَّ ذلك غيرُ ضَروريٍّ قطعًا. سأكونُ بخَيرٍ تمامًا إذا ذهبتُ وحدي. صِدقًا، يا كلارك، لا داعيَ...".

فقال كلارك: "إمَّا أن أُقِلَّكِ أنا، وإمَّا لا زِيارة...حدِّدي خِيارَكِ". وقد أخبَرَها صوتُه أنَّ النقاشَ انتهى.

ابتلَعَت مارتي غُصَّةَ غضَب، وردَّت في الحال، لكنْ سِرًّا: **ما أعنَدَك! تكادُ تُعادِلُ جَد لارسون سُوءًا.**

أخيرًا قالت- والغضَبُ ما يزال يعتصِرُ أحشاءها- "لا بأس. سأكون شاكرةً جدًّا إذا أوصلتَني إلى هُناك".

فقال كلارك: "سأكون جاهزًا بعدَ رُبعِ ساعة". ثُمَّ مضى لإعدادِ

الحِصانَين.

وسألَ اكْلار: "هل تُريدين أن تعملي فطيرةَ تُفَّاحٍ أُخرى، ماما؟"

فودَّت مارتي لو تصفَعُه.

ولكنَّها قالت بالأحرى: "وأنت، يا صبيّ، اخرُج وأحضِر بعض الحطَب لِلنَّار. املأ صُندوقَ الحطَب كلَّه، حتَّى حافَتِهِ تمامًا، وكُن سريعًا في ذلك أيضًا".

فمضى اكْلار. وعلِمَت مارتي أنَّها لم تكُن مُنصِفة. فقد كان اكْلار مُعتادًا أن يُحضِرَ الحطَب- والحقُّ يُقالُ إنَّ ذلك لن يؤذيَه في شيء- لكنَّها لم تكُن مُضطرَّةً لأنْ تصُبَّ خَيباتِها عليه.

كانت الرِّحلة إلى بيتِ آل مارشال صامِتةً تمامًا. فمارتي ما زالت تشعُرُ بالنَّكَد، وكلارك لم يقُم بأيَّةِ مُحاوَلة لانتِشالها. ولمَّا وصلا، أكمَلَ كلارك طريقه إلى الحظيرة، حيث كان كام يشتغِلُ بِعُدَد الأحصِنة، ودخلَت مارتي لرؤية وَندا. وكان رَت الصَّغير مُمدَّدًا على بطَّانيَّة فوقَ الأرضيَّة.

تألَّقَت عينا وَندا لمَّا تحدَّثت بشأن رَت. فقالَت لِمارتي: "إنَّه يستطيع أن يجلِسَ جيِّدًا الآن". وتقدَّمت لإثباتِ ذلك.

أرادت مارتي أن تعترِض: ولكنَّه، يا ونْدا، ابنُ سَنةٍ ونصفٍ. كان ينبغي أن يكونَ قادرًا على المشي، لا بل على الرَّكض. كان ينبغي أن يكونَ راكضًا وراء أبيه ومُتفوِّهًا بِكَلمات. وها أنتِ هُنا تفتخِرين بحقيقةِ كونهِ قادرًا على الجلوس أخيرًا!

ولكنَّ مارتي بالطَّبع لم تقُل ذلك، بلِ اكتفَت بالابتِسام إبداءً لاستِحسانها إزاء إنجاز رَت إذ ترجَّح إلى الأمام والوراء، محاوِلًا الإبقاءَ على وضعيَّةِ جُلوس فيما تُمسِكُه أُمُّه إذ يكادُ يسقُط. وقد تابعَت وَنْدا حديثَها بحماسة، وسُرعانَ ما انضمَّ الرَّجُلان إلى المرأتَين والطِّفل.

كانوا جالسين إلى الطَّاولة الصَّغيرة المُزدحمة لمَّا أحسَّت مارتي طَلْقَ المَخاضِ الأوَّلَ. وقد أخذَها على حينِ غِرَّة، فتصلَّبَت وحاولَت أن تتنفَّس بِبُطء وانتِظام. وسرعان ما شعرَت بحالٍ سويَّة، وأمَلَت ألَّا يكونَ أحَدٌ قد لاحظَ العارِض. ولمَّا جاءها الطَّلقُ التَّالي بعدَ دقائق قليلة، أحسَّت عينَي كلارك عليها ورفعَت نظَرَها لِتَراه مُراقِبًا إيَّاها عن كثَب. فعلِمَت أنَّه تنبَّهَ إلى الأمر.

اعتذرَ كلارك عن عدَمِ شُربِ فِنجانِ قهوةٍ ثانٍ، وقال إنَّ عليهما فِعلًا أن يتوجَّها إلى البيت.

فدفَعَ كام كُرسيَّه مُبتعِدًا عن الطَّاولة، وهو ما زال يتباهى بشأنِ صَبيِّهِ، ورافق كلارك لتجهيزِ حِصانَيه.

ابتسمَت مارتي بشجاعة لمَّا ودَّعَت وندا، وصلَّت طالبةً أن يُسرِعَ كلارك كما ترجو.

وما لبِثَ الحِصانان أن وصلا سريعًا إلى باب المنزِل، فترجَّلَ كلارك قفزًا ليُساعِدَ مارتي على الصُّعود إلى العربَة. ثُمَّ ساقَ إلى البيت بسُرعةٍ أكبر كثيرًا من تلك التي بها جاءا إلى بيتِ آل مارشال.

وعندَ نُقطةٍ ما، سألَها كلارْك: "أأنتِ قادِرةٌ على الصُّمود؟" فأومأت برأسِها إيجابًا، شابِكةً يدَيها أمامَها بإحكام إذ اجتاحَتها نَوبةُ مَخاضٍ أُخرى. وأردفَ كلارك: "أرسلتُ كام لإحضار الطَّبيب".

أحسَّت مارتي الشُّكرانَ يسري في أوصالها. فقِلَّةُ صبرها السَّابقة حِيالَ اهتِمام زوجها بِحُسنِ حالها بدَتِ الآنَ تافِهةً وقصيرةَ البَصَر.

ثُمَّ وصلَتِ الطِّفلةُ الصَّغيرةُ جدًّا بسَلامة، في حضور الطبيب وعلى سرير أُمِّها، السَّاعةُ الخامسةَ والثُّلث تمامًا من عصرِ ذلك النَّهار.

غمَرَ الإعجابُ مِسي واكْلار وآرني جميعًا بِالطفلة الصَّغيرة. كذلك كلاي ونانْدري أيضًا أبدَتا ترحيبًا حماسيًّا بالإضافة الجديدة إلى أُسرة آل ديفِس.

وسألت مِسي : "هل يُمكن أن نُسَمِّيَها "إلقيرا، ماما؟"

فقالت مارتي: "إذا أحبَبتِ".

"جيِّد. قرأتُ قِصَّةً عن فتاة اسمُها إلقيرا في واحد من كُتُب الأُستاذ وِتِل. وأظنُّ أنَّه اسمٌ جميل".

كانت هذه أوَّلَ مرَّة فيها لم تكُن السيِّدة ما حاضرةً عندَ توليدِ واحِدٍ من أطفالِ مارتي. ولكنْ في الأيَّام التي تلَت مُباشرةً، تولَّت نانْدري تسييرَ شؤون المنزل. ولم يكُن في وسع مارتي أن تُصدِّقَ كفاءةَ الفتاةِ الشَّابَّة وفعَّاليَّتَها.

وفيما هي تُهَزهِزُ الطِّفلةَ بعد إطعامها ذاتَ مرَّة، قالت: "نانْدري،

لستُ أدري فِعلًا كيف كنَّا نُدبِّر الحال أصلًا من دونكِ!"

فابتسمَت نانْدري ابتسامةً ضئيلة قصيرة، ورجَعَت إلى تحضيراتها للعشاء.

١٨

الواعِظُ الجديد

أخذَ المُعلِّمُ وِتِل مسؤوليَّتَه الجديدة على مَحمِل الجِدِّ البالغ. فقد رسَمَ أوصافًا دقيقة لكُلِّ مُرشَّحٍ للرِّعاية، مُشتَمِلةً على الخلفيَّة والشخصيَّة والأهليَّة الأكاديميَّة، ورفَعَها إلى كلارك وبَن.

من الأسماء الثمانيةِ قيدَ الدَّرس، اختارت اللَّجنةُ ثلاثةً رأت فيها احتِمالاتٍ مُمكِنةً. وكُلِّفَ الأُستاذ وِتِل، باعتباره وسيطَ الاتِّصال، أن يكتُبَ الرَّسائلَ المطلوبة. ففعل ذلك بِبَلاغة وافرة، واصفًا بالتَّفصيلِ المِنطقةَ، والحماسةَ الرِّياديَّة لدى مُستوطِنيها، وعُمقَ إيمانِهم الدِّينيِّ الرَّاسخ. ثُمَّ أُرسِلَت الرَّسائلُ بعدَ مُدَّة قصيرة، وانتظرتِ اللَّجنةُ الأجوبةَ بكثيرٍ من التَّرقُّب وقليلٍ من التَّوجُّس.

أخيرًا وصلَت رِسالة، فيها قدَّرَ المُرشَّحُ اهتمامَهُم به، وأشار إلى كون المركز يبدو جديرًا حقًّا، ولكنَّه بعدَ كثيرٍ من الصَّلاة، "لم يشعُر بإرشاد الرَّبّ له" باتِّجاههِم. فتساءل بَن هل عنى ذلك أنَّ الرَّاتِبَ الموعود لم يكُن كافيًا.

بعدَ ذلك جاء الرَّدُّ من "المُرشَّحِ الثَّاني". وهو أيضًا استصعَبَ أن يُقاوِمَ فُرصةً مُمتازةً كهذه، إلَّا أنَّه كان سيتزوَّج في غضون شَهرٍ من الزَّمن، ولمَّا كانت عروسُه العتيدةُ شابَّةً غضَّةَ الإهاب جدًّا فقد شعَرَ بأنَّه لا يستطيع أن يطلُبَ منها الانتقال إلى ذلك المكان النَّائي.

وقال بَن مُتأمِّلًا: "يبدو أنَّه يحبُّ كُرسيَّه اللَّيِّنَ وخُفَّيهِ الرَّقيقَين".

أخيرًا وصل ردُّ "المرشَّح الثَّالث". لقد درَسَ العرض بعناية بالغة، وقضى وقتًا طويلًا في التَّفكير بشأنه، ورُبَّما يُتاحُ له في المُستقبل أن ينظُرَ إليه بعين الاعتبار، غيرَ أنَّه حاليًّا لا يستطيع أن يُعطيَهم جوابًا حاسمًا.

فقالَ بَن بصوت خفيض: "إذًا، هو يطمح إلى شيءٍ ما أكبر". وشطَبَ الاسم من اللائحة.

ثُمَّ أُعيدَ النَّظر في الخمسة الآخرين. فلم يبدُ لكلارك وبَن أنَّهم من نوع الرِّجال الذي يفي بحاجاتهم، ولكنَّ مُعلِّمَ المدرسة كان على يقين بشأن قُدراتهم.

قال بحماسة: "اعتَبِرا المُحترَمَ نتسون هنا. لقد تخرَّجَ حديثًا بعدَ سبع سنين من الدرس لأجل الخِدمة. فمن شأنه أن يكون خادمًا مُمتازًا".

لم يملِكْ كلارك وبَن إلَّا أن يتساءلا عمَّا استغرق تلك المُدَّةَ الطَّويلة، ولكنَّهما أخيرًا قَبِلا أن يسمحا للأُستاذ وِتِل بأن يتَّصِلَ

بِالمُحترم نتسون، وبِالمُحترم ثوماس كذلك، وقد كان اسمُه في اللائحة الأصليَّة أيضًا.

بعدَ مُدَّة من الزَّمن، كتَبَ المُحترَمُ نتسون جوابًا يُصرِّحُ فيه بأنَّه كان توَّاقًا أن يحمِلَ الإنجيلَ إلى أهل الأراضي الغربيَّة التي غمَرَتها الخطيَّةُ بالظَّلام.

وبوجودِ عَرضٍ من خادمٍ راغب في المجيء، دُعيَ أهلُ الحيِّ إلى اجتماعٍ لإقرار الخُطَطِ والتَّحضيرات النِّهائيَّة.

قرَّرَتِ الجماعةُ المُوافقةَ على الاختيار، واتَّفقوا على أن ينزِلَ القِسِّيسُ أيضًا عندَ آل واتلي. فغُرفةُ استقبال الضُّيوف عندَهم كانت كبيرة، ويُمكن أن تستوعِبَ سريرًا فرديًّا آخَرَ ومكتَبًا إضافيًّا. وقد سُرَّ الأُستاذ وِتِل بهذا التَّرتيب. ففي وسعه أن يُجدِّد معرِفَته بالواعِظ الصَّالح، وسيكون مُعزِّزًا قويًّا لمعنويَّاتهِ الشَّخصية أن يُجريَ مُحادَثاتٍ حاثَّةً مع شخصٍ في منزلته الثَّقافيَّة الخاصَّة. وبالحقيقة أنَّ ذلك المُجتمع كان يفتقِرُ إلى المُفكِّرين افتقارًا شديدًا. ثُمَّ إنَّ تعريجَهُ على تَسِّي أيضًا لَقِيَ ترحيبًا، وقد كان بالِغَ التَّوق لأنْ يكونَ لدَيه شخصٌ يستطيعُ أن يبحثَ معه في هذا الجانب الجديد والمُشوِّق من حياته.

سوف تُعقَدُ اجتماعاتُ الأحَد في مبنى المدرسة. سيكون مُكتظًّا، ولكن في وسعهم أن يحتشِدوا داخِلَه ما دامت الحاجَةُ لا تدعو إلى التَّحرُّك.

غمرَتِ الحماسةُ والبهجةُ الجميعَ حِيالَ تَوقُّعِهم أن يكونَ لهم قِسِّيسُهم الخاصُّ تمامًا. فسيكون أمرًا رائعًا ومُعزيًّا أن يوُجدَ خادمٌ مقيمٌ هناك دائمًا. ففي أوقات الولادة أو الموت أو الزَّواج، تدعو الحاجةُ إلى قِسِّيس، وليس فقط مرَّةً أو مرَّتين في السَّنة حينَ يمرُّ تَجوالُه عبْرَ المِنطقة.

وفي الخفاء، أمَلَ المُعلِّمُ ألَّا يطولَ الزَّمن كثيرًا قبلَ أن يقِفَ هو شخصيًّا أمامَ القِسِّيس نتسون، وإلى جانبهِ عَروسُهُ تَسِّي.

صحيحٌ أنَّه كان عليه أن يُنجِز أُمورًا قليلةً بعد، كإعداد مكان سُكناه مع زوجة. فقد بات صعبًا أن يأتيَ بها للإقامة معه في منزل آل واتلي، وإن كانت هذه الفكرة قد خطرَت في باله قبلما تقَرَّرَ أن ينزِلَ القِسِّيسُ هُناك. غير أنَّه كان على ثقة بأنَّ هذه الأُمور لا بُدَّ أن تحُلَّ نفسَها.

اتُّخِذَتِ التَّرتيباتُ لإحضارِ القِسِّيس الجديد إلى تلك المِنطقة الغربيَّة النَّائية، وتطلَّعَ الأهالي بِشَوق إلى اجتماعِ الكنيسة الأوَّل. وقد حُدِّدَ الموعدُ في الخامسَ عشرَ من آذار، وبدا أنَّ أشهُرَ الشِّتاء مرَّت بسُرعة أكبَر، ترقُّبًا لهذا الحدَث المهمِّ في حياة ذلك المجتمع.

بُعَيدَ ولادة الطفلة ألِّي، جاءت ما غراهام في زيارة قصيرة. فسُرَّت مارتي إلى أقصى الحدود برؤيتها، ليس فقط لتَعرِضَ الطفلةَ المولودة حديثًا، بل أيضًا لِتُتاحَ لها فُرصةٌ لإجراء حديثٍ طويل. وقد كانَت المحادثاتُ مع السيِّدة ما حافلةً بالأخبار دائمًا. والآنَ تورَّدَ وجهُها إذ زفَّتِ الخبَرَ

الجديد.

ارتسَمَت على وجهِها ابتسامةٌ مُشرِقة حالَما حطَّتا فِنجانَي القهوة، وقالت: "مارتي، أُخبِرُكِ أنَّه سيَصيرُ عندي صِهرٌ آخر".

فرفعَت مارتي نظرَها مدهوشةً.

والتقطَت شيئًا من تأثُّرِ ما وحماستِها. "صحيح؟ نَلِي؟"

"نعم، نَلِي!"

"لم أكُن أعلم...".

"لم يعلَمْ كثيرون. حتَّى إنَّني أنا لم أعلَمِ الكثيرَ عن الأمر أصلًا. فنَلِي لا تتكلَّم كثيرًا، والشَّابُّ...حسنًا، ما زلتُ أتعجَّبُ حِيالَ تمكُّنه أخيرًا من الإفصاح عن رغبته، وهو كَتومٌ كما نَعهدُه".

"مَن...؟"

"شَم قِكرز".

"لا! حقًّا؟" وضحِكَت مارتي مع السيِّدة ما إذ هزَّت رأسها توكيدًا.

"أفي وسعكِ أن تتصوَّري ذلك؟!" وكانت ما غراهام ما تزال مُتعجِّبة من الأمر. "لم تُتَح لي قطُّ حقًّا فُرصةٌ للتَّعرُّف بالفتى حتَّى الأسابيعِ القليلة الماضية. إنَّه حسَنٌ فِعلًا، وإن كان ليس لديه كثيرٌ يقولُه".

فضحِكَت مارتي ضِحكةً خافتة. "لا نفترِضْ أنَّه أُتيحت للشَّابِّ المسكين فُرَصٌ وافية لتحسينِ قُدرتِه على التَّكلُّم. ولكنْ لا شكَّ أنَّ

لدَيه أُذنَينِ مُمتازتَين...إن لم تكونا قد بَلِيَتا أصلًا".

ابتسمَت ما غراهام إبداءً لِفَهمها. "أجَل، تستطيعُ السَّيِّدةُ ڤِكرز أن تتكلَّم كفايةً بلِسانِ جُمهور".

"متى سيكونُ العُرس؟"

"على الأغلب، بُعَيدَ وصول القِسِّيس الجديد إلى هنا. رُبَّما في نَيسان".

فابتسمَت مارتي وأومأت برأسها إبداءً لاستِحسانها. "حسنًا، ذلك جميلٌ حقًّا. أنا مسرورةٌ جدًّا من أجلِهما كِلَيهما".

وأبدَت غراهام مُوافقتها. "ما تزالُ نَلِي فتاةً رائعةً فِعلًا. سأفتقِدُها حقًّا، ولكنَّها مُتحمِّسةٌ جدًّا بشأنِ حِيازةِ منزِلٍ خاصٍّ بها".

"ستكونُ زوجةً صغيرةً صالحة لِشَم، وأنا مُتيقِّنةٌ بذلك".

قدَّمت مارتي لِما غراهام الكُعَيكاتِ المُحلَّاةَ، ثمَّ سألت بحَذَر: "يا ما، هل تحدَّثتُما، بَن وأنتِ، بخصوص تومي؟"

فأومأت غراهام برأسها إيجابًا، وقدِ انحسَرتِ الابتسامةُ قليلًا عن وجهها. "نعم، تحدَّثنا عن الأمر. ثُمَّ تحدَّثنا إلى توم أيضًا. لم يبدُ بَن مُنزعِجًا فوقَ الحدِّ حِيالَ ذلك. صحيحٌ أنَّه انزعجَ أوَّلَ الأمر، ولكنْ في ما بعدُ بدا كأنَّه فكَّر تقريبًا أنَّ ما سَيكون فسَيكون. ولكنَّني بالتأكيد لا أُريد لِتومي أن يتأذَّى، وكذلك للفتاة أيضًا من جهة هذا الأمر. آه، أتمنَّى لو كان ذلك كلُّه مُجرَّدَ حُلمٍ أستيقِظُ منه فإذا به قد ولَّى

بِجُملته".

جلسَت السيِّدة غراهام هازَّةً رأسَها، وعيناها تُحدِّقانِ إلى الأسفل.

وما لبِثَت مارتي أن قالت- مُحاوِلةً أن تبدوَ مُتيقِّنةً- "أنا على يقين بأنَّ الأمر سينجح. تومي شابٌّ ذكيّ. ولو كان لَن ينجح، لَعَرَف ذلك".

فأجابت السيِّدة ما: "لقد توغَّلَ تومي أبعدَ من أن يرى أيَّ شيء. إنَّه يُريد أن يأتيَ بها إلى البيت لِتُقابِلَ بَن وإيَّاي".

وقالت مارتي بِلا تَرَوٍّ: "لماذا لا ينبغي أن يأتيَ بها؟" ثُمَّ تساءلت هلِ استاءَت السيِّدة ما.

فأجابتها على مهل: "لستُ أدري، يا مارتي. يبدو أنَّه إذا سمحنا له بذلك فكأنَّنا نَمنَحُ برَكَتَنا تقريبًا...للطَّرَف الآخر أيضًا. ثُمَّ إنَّ الصِّغار الآخرين- ومن المؤكَّد أنَّهم لن يتمكَّنوا من إبقاء الأمر سرًّا هُم أيضًا- سيُفشونَه في المدرسة وكلِّ مكان. إذ ذاك تعرِفُ المِنطقةُ كلُّها بالخبَر. حقًّا إنَّها ليست فِكرةً جيِّدة...ليست جيِّدةً أبدًا".

تألَّمَت مارتي من أجل السيِّدة ما في شكوكها، ولكنَّها هي أيضًا شعرَت بِقَلَقٍ عميق من جهة تومي. فلم يَبدُ بالحقيقة أنَّه هُنالك طريقًا ما للخروج من المأزِق دونَ أن يتضرَّرَ أحَدٌ ما...ورُبَّما أكثَرُ من فَردٍ واحد.

أخيرًا قالت مارتي: "يا ما، أعتقِدُ أنَّه يحسُنُ بي أن أُجريَ حديثًا مع

توم مرَّةً أُخرى. فهلَّا تُرسِلينَه إليَّ عندما يتوافَرُ له وقتٌ قصير؟"

"بالتَّأكيد...تَخميني أنَّ المُحادثةَ لن تؤذيَ أبدًا...بل قد تُساعِدُ قليلًا".

فقالت مارتي: "اسمعي! سأبعَثُ معكِ برِسالةٍ قصيرة، إلى توم. هل تُوافِقين؟"

بدَت السيِّدة ما مدهوشةً، ولكنَّها وافقت بسُرعة.

صبَّت مارتي لِما غراهام فِنجانَ قهوةٍ آخَر، وهي تقول: "سيَستغرِقُ الأمرُ دقيقةً فقط. ما عليكِ إلَّا أن تستمتعي بقهوتك، وسأعودُ في الحال".

ثُمَّ ذهبَت إلى غُرفةِ النَّوم، فأحضرَت ورقةً وقلَمَ رصاص، وكتبَت: "عزيزي توم، أظنُّ أنَّه سيكونُ أمرًا جيِّدًا إذا استطعتَ أن تُحضِرَ أُواهْتيكا لرؤيتي. تعالَيا يومَ الأربعاء المقبل، إذا أمكن. صديقتُك: مارتي".

وبعِنايةٍ طوَتِ الورَقة، ثُمَّ عادَت إلى المطبخ. فدسَّت ما الورقة المكتوبةَ في أحَدِ جُيوبها، ولم تُدلِ بأيِّ تعليق. وعلِمَت مارتي أنَّ الرِّسالةَ القصيرة ستُسلَّم إلى توم.

١٩

مدرسة وزِيارات

بدَت شمسُ العصر ضعيفةً إذ ألقت أشِعَّتها الفاترةَ على ثلج الشِّتاءِ. كانت ريحٌ قارِصةٌ قد هبَّت، فاضطربَت مارتي على مِسي وكلاي وهُما راجِعتان من المدرسة إلى البيت ماشِيتَين بِخُطًى ثقيلةٍ في البَرْد.

ظلَّت تنظُر بِتَوتُّرٍ خارجَ النَّافذة مُترقِّبةً ظهورَ شَكلَي الفتاتَين، قِلقةً بقلبِ أُمٍّ خشيةَ أن يُعَرقِلَهُما البَردُ بطريقةٍ ما أو يجعلَهُما تعودان إلى البيت مُتجمِّدتَين تقريبًا من الصَّقيع.

ولمَّا لاحت البِنتان لِلعِيان أخيرًا، بدَتا مُبتهِجتَين ولامبالِيَتَين، تُثَرثِران معًا دون أن تظهرا مُستعجِلتَين كثيرًا أن تدخُلا من الطَّقس القاسي.

لاقَتهُما مارتي عند الباب، وسألَتهما: "أمَا كِدتُما تتجمَّدان؟"

رمَقَتها مِسي مدهوشة، ونظرَت حوالَيها، ثُمَّ أومأت برأسها قائلةً: "أكيدٌ أنَّ الطَّقس باردٌ في الخارج".

"أعلَمُ ذلك. لقد كنتُ قلِقة".

"علامَ؟"

”عليكِ- وعلى كلاي- وأنتُما راجِعتان إلى البيت تحتَ الرِّيح!“

”نحنُ بخَير، ماما“.

ثمَّ خلعَت معطفها مُتلوِّيةً، ووجَبَ أن تُذكَّر بتعليقة في مكانه.

وقالت مارتي: ”هاكُما. سخَّنتُ بعضَ الحليب. الأحسَنُ أن تُدَفِّئا أنفُسَكما قليلًا“.

فتناولَت الفتاتان الحليبَ السَّاخن وشريحةَ الكعك المُرافِقةَ له.

وبادرت كلاي قائلةً: ”كان بَردٌ في المدرسة اليومَ أيضًا“.

فقالت مِسي مُغايِظةً: ”نعم، وقد أعطى ناثانُ كلاي كنزتَه لتبقى دافئة“.

وتورَّد خدَّا كلاي: ”صحيح، حسنًا، وَولِي يحبُّكِ“.

فردَّت مِسي بِحَماوة: ”لا يحبُّني! أكرَهُ وِلِي لاهاي ذاك“.

”حسنًا، هو لا يكرَهُكِ“.

فأكَّدَت مِسي بشيءٍ من الحسم: ”إنَّه يكرَهُني أيضًا. نحن نكرَهُ أحدُنا الآخر...هو وأنا“. ولكنَّها بدَت مُستريحةً بإفراط لقولها ”هو وأنا“ رُغمَ كلماتها.

وقالت مارتي بصوتٍ خفيض: ”لا أظُنُّ أنَّه ينبغي لنا أن نتكلَّم عن كُرهِ بعضِنا بعضًا“. فلم تُجاوِبِ كِلتا الفتاتَين، وقرَّرت مارتي أنَّ وقتًا آخر هو أفضلُ لِمُتابعة ذلك الدَّرس.

تاليًا، بدا أنَّ كلاي تُغيِّر الموضوع، ولكنْ أفزَعَ مارتي أنَّه تبيَّن أخيرًا أنَّه الموضوعُ القديمُ عينُه.

فقد أعلنَت كلاي قائلةً: "هل تعلمين أنَّه كان عندَنا اليوم وقتُ تكريم للتِّلميذين- الصَّبيِّ والبنت- اللذين نالا أعلى العلامات في الحِساب والتَّهجئة؟ واحزُري مَن كُرِّم، حيثُ تقدَّمَ إلى الأمام ووقفَ أمام الجميع؟" وقد لاحظَت مارتي أنَّ مِسي كانت تُطلِقُ خناجِرَ على كلاي بعَينيها. "مَن طُلِبَ منه أن يقِفَ هُناك تمامًا فيما صفَّقَ الجميع؟ احزُري مَن! مِسي وَولِي".

وصفَّقت بيدَيها جَذلى على سبيلِ الإثبات، مُكرِّرةً: "مِسي وَولِي".

فقاطعَت مارتي- راجيةً أن تُحوِّلَ مجرى الحديث- "أنا فَخورٌ بكِ، يا مِسي، لِحُصولكِ على أعلى العلامات".

وقالت كلاي من جديد: "مِسي وَولِي. يقينًا، ستتزوَّجان عندما تكبران".

فهبَّت مِسي عن كُرسيِّها، مُريقةً ما تبقَّى من الحليب في كأسها. "لن نتزوَّج. سأتزوَّجُ تومي، يا كلاي لارسون، ولا تنسَي ذلك". كانت الآن قد باتت دامعةً، وكمنفذٍ أخير لتصريف غضَبِها مدَّت يدَها فأمسكت بقبضةٍ من شعر كلاي وجذبَتها بِعُنف قبلما ركَضت لِتتوارى في غُرفتها.

لا شكَّ أنَّ كلاي كانت غاضبةً الآن، ولكنَّ الأوانَ كان قد فات

كي يُوقِفَ تدخُّلُ مارتي جَيَشانَ الفتاةِ الأوَّليَّ السَّاخط. فحاولَت أن تُهدِّئ كلاي، ناصحةً إيَّاها في الوقت نفسه بعدَم مُغايَظةِ مِسي إلى ذلك الحدِّ البعيد، ومُذكِّرة إيَّاها بأنَّ من واجبها- لكونها الفتاةُ الكُبرى- أن تحولَ دونَ نُشوبِ المُشاجرات، لكنْ مؤكِّدةً لها أنَّ مِسي كانت مُخطئةً بِشَدِّ شَعرِها. ثُمَّ مسَحَت مارتي الحليبَ المُراقَ، وذهبت لِتُكلِّمَ ابنتَها.

كان صعبًا إقناعُ مِسي بأنَّ شدَّ الشَّعر كان أمرًا غيرَ مسموحٍ به أخلاقيًّا، إذ عدَّته مِسي جزاءً عادلًا لِمُغايظة كلاي لها. وقد أعلمَتها مارتي بحزم أنَّه ينبغي ألَّا يحدُثَ مرَّةً أُخرى. أمَّا أصعَبُ جُزءٍ من الحديث فقد برَز لمَّا شرحت مارتي- بألطَفِ طريقةٍ تُحسِنُها حسَبَ معرِفَتِها- أنَّ تومي بات شابًّا بالغًا تمامًا، وقد تكون لدَيه أفكارٌ أُخرى بشأنِ الفتاة التي يرغب في التَّزوُّج بها. لقد كان هذا صعبَ الإدراكِ على مِسي، وقالت بصوتٍ مُرتَعِش إنَّ تومي ما بَرِحَ "صديقَها الأفضل" دائمًا.

فقالت مارتي: "أعرِفُ ذلك، ولكنَّ الصَّديقَينِ الأفضلَينِ لا يتزوَّجان دائمًا عندما يكبران...لا سيَّما عندما يكون أحدُهما شابًّا بالغًا تمامًا والأُخرى فتاةً صغيرة".

وأكَّدَت مِسي : "إذًا لن أتزوَّجَ أحدًا أبدًا، إذا تعذَّرَ عليَّ أن أتزوَّجَ تومي!"

فملَّسَت مارتي شعرَ مِسي، وقالت إنَّها تفترِض أنْ لا بأسَ في ذلك، ولكنْ إذا غَيَّرَت مِسي رأيَها يومًا فسَيكونُ ذلك حسَنًا أيضًا.

أخيرًا، مسحَت مِسي آخِرَ دُموعِها، وانصاعت لأمرِ والدتها فذهبَت لِتُقدِّمَ اعتِذارَها إلى كلاي. وفي غضونِ دقائقَ قليلةٍ، عادَت الفتاتانِ إلى الثَّرثرة، وكأنَّ شيئًا لم يكُن.

لمَّا أقبلَ يومُ الثُّلاثاء، ظهَرَ توم عندَ بابِ مارتي. ولدى دعوتِها إيَّاه إلى الدُّخول، سألها: "أتُمانِعينَ أن تخرُجي قليلًا إلى النَّبع؟ نُفضِّلُ أن نراكِ سرًّا، إن أمكن".

كان كلارك غائبًا، وألِّي تغطُّ في النَّوم، ونانْدري تُلهي اكْلار وآرني، فلَبِسَت مارتي ما يَقيها من البَرْد وتبِعَت توم إلى الخارج. وكان الهواء مُنعِشًا، لكنْ هادئًا، فلم يكُنِ البَردُ نفَّاذًا.

سار توم ومارتي على المَمَرِّ وصولًا إلى النَّبع دونَ أن يتكلَّما. وتساءلت مارتي فعلًا عمَّا تتوقَّعُه: كيف ستبدو الفَتاةُ عند طرَفِ المَمرِّ الآخر؟

ولمَّا قاربا البُقعةَ المُعيَّنة، برَزَتِ لمُلاقاةِ مارتي فتاةٌ نحيلة ترتدي ثوبًا من جِلد الغزال مشكوكًا بالخرَز، وقد تدلَّت على إحدى كتِفَيها جَديلةٌ طويلة، سوداءُ برَّاقة.

إنَّها جميلة! تلك كانت فِكرةَ مارتي الأُولى إذ نظرَت من العينَين

الدَّاكِنتَين إلى الوجه الحسَّاس. وقد كانت شفَتا الفتاة مُنفرِجتَين قليلًا، ووقفَت هُناك صامتةً، آخِذةً دونَ شكٍّ قِياسَ مارتي حتَّى فيما حاولت مارتي أن تقيسَها في لحظةٍ خاطفة.

قالت مارتي برقَّة: "أُواهْتيكا". ولم يكنُ صعبًا أن تبتسِمَ وتمدَّ يدَها. "أنا مسرورةٌ حقًّا بلِقائكِ".

فتكلَّمت الصَّبيَّةُ السَّمراء برِقَّة: "وأنا أيضًا، يُسعِدُني أن ألقاكِ...مارتي. لقد حكى لي توم كثيرًا عنكِ".

اتَّسَعت عينا مارتي دهشةً.

"تتكلَّمينَ بِلُغَتنا...جيِّدًا جدًّا".

"ذهبتُ إلى مدرسةِ إرساليَّةٍ لمَّا كانت أُمِّي على قيد الحياة". قالت ذلك شارِحةً، مُبدِيةً عاطفةً ضئيلة بشأنِ الأمر.

"وأبوكِ...؟"

"لقد رحَل. أعيشُ الآنَ مع جدِّي وحدَنا. لم يُرِد لي أن أبقى في مدرسة الإرساليَّة".

"أفهَمُ ذلك".

كان توم قد انتقل لِيَقِفَ بجانب أُواهْتيكا. فأشرقَ وجهُه حُبًّا، وقليلًا من الفرَج.

"هل قابل تومي جدَّكِ؟"

فقالت بسُرعة: "أُوه، لا! يجِبُ عليه ألَّا يُقابِلَه".

واعترَضَ توم: "أوَدُّ ذلك...أودُّ لو أتحدَّثُ إلى الرَّجُل الكبيرِ السِّنّ، قُولي له...".

فقاطعَت أُواهْتيكا: "إنَّه لا يتكلَّم ولا يفهم لُغَةَ البِيض".

وقال توم: "حسنًا! إذًا، على الأقلِّ يُمكِنُ أن أُصافِحَهُ باليد...أن أبتسِم. وفي وسعكِ أنتِ أن تُترجِمي...".

فهزَّت أُواهْتيكا رأسَها نفيًا بِحَزم، قائلةً: "لا! يجِبُ ألَّا تفعل ذلك. جدِّي...ما كان لِيَرغبَ في لقائك".

"ولكنَّ مارتي قد قابلَتكِ. وهي بَيضاءُ و...".

بَرَقَت عينا أُواهْتيكا. "هذه السَّيِّدةُ البيضاء لم تفقِد أبناءها وحُفَداءها بسِهامِ السُّمر كما فقَدَ جدِّي أبناءه وحُفداءه بِرَصاص البِيض".

تقدَّمت مارتي إلى الأمام ووضعَت يدها على ذِراعِ الشَّابَّة، وقالت برِقَّة: "نفهَمُ الأمر. أنا على يقين بأنَّ توم لن يُحاوِلَ أن يرى جدَّكِ...ليس الآن، على كلِّ حال. ولكنْ هل يُمكِن...هل يُمكِنُكِ أنتِ أن تُخفي حُبَّكِ دائمًا؟ ثُمَّ لوَّحَت بإحدى يدَيها لِتشمَلَ الشَّابَّينِ معًا. "هل يمكنكِ أن تُخفي الأمرَ على جدِّكِ؟"

فقالت أُواهْتيكا بهدوء: "جدِّي كبيرُ السِّنِّ جدًّا. إنَّه عجوزٌ وضعيف جدًّا. سَينضَمُّ عاجلًا إلى آبائه...ولن يُلاحِظ. فلا داعيَ لأنْ نُخبِرَه".

"صحيح!" وإذ أعقَبَ الصَّمتُ، فتَّشَت مارتي عن الكلمات المُناسِبة، وأخيرًا قالت دونَ كثيرٍ من التَّفكير: "وأنتِ، أُواهْتيكا، هل

ترغبين أن...أن تتزوَّجي تومي؟"

"نعَم حقًّا". ولانت العَينانِ الدَّاكنتان إذ نظرَت أُواهْتيكا إلى الشابِّ بجانبها، وطوَّقَت ذِراعُ تومي خصرَها. مَن يستطيع أن يُنكِرَ الحُبَّ السَّاريَ بينَهُما؟

ابتلعَت مارتي غُصَّةً في حلقها، ودارَت لتمشي خُطًى قليلة. ثُمَّ رجعَت على مهلٍ من جديد. لقد وَجِعَها قلبُها من أجل الشابَّين الواقِفَين أمامها، ولَهُما حضارةٌ مُختلفة، وتُراثٌ مُختلِف، وديانةٌ مُختلِفة، ولوَنُ بَشَرةٍ مُختلف. لماذا حدث هذا؟ ولماذا صعَّبا الأمر جدًّا على أنفُسِهما؟ وماذا يسَعُها أن تقولَ أو تفعل؟

أخيرًا استعادَت صوتَها: "أُواهْتيكا، أنا أُدرِكُ لماذا تُحِبَّانِ أنت وتومي أحَدُكما الآخر. أنتِ فتاةٌ فاتِنة وحسَّاسة، ولعلَّكِ تعلمين ما أعتقِدُه بشأن تومي". ثُمَّ نظرَت إلى البعيد هُنَيهةً. "أتمنَّى...أتمنَّى لو أشعُرُ بأنَّ...بأنَّ الحياة ستُعامِلُكما كِلَيكما بلُطفٍ إذا تزوَّجتما. لستُ أدري. لستُ أدري حقًّا".

فهمَسَت أُواهْتيكا: "شُكرًا لكِ". وتقدَّمت مارتي فعانقت الفتاة، ونظرَت بِعُمقٍ داخِلَ عينَي تومي، ثُمَّ دارت لِتَسلك الممرَّ رجوعًا إلى البيت.

سالَت الدُّموعَ على خدَّيها عميقًا بشأنِ تومي، وبشأن أُواهْتيكا الآن. ولكنْ لَولا ما غراهَم، بإيمانِها المتين وغِنى اختبارِها في الحياة،

تستمدُّ مارتي مِنهما المدَد، هل كان لها هي أن تنجح؟ فهل كان من واجبها الآن أن تُقدِّمَ العزاءَ والنُّصحَ إلى المرأةِ الكُبرى؟ لم تعلم هل كانت في موقع يُمكِّنها من التَّدَخُّل. ولكنَّها قبلَما وصلت إلى البيت، كانت قد قرَّرت. لن تُحاوِلَ أن تُقنعَ ما غراهام بأنَّ هذا الزَّواج هو الخِيارُ الصَّحيح، ولكنَّها ستُحاوِلُ أن تجعل ما غراهام تُدرِكُ أنَّ رأيَ تومي ما كان ليتغيَّر، لا بمُحاولتها أن تُقنِعَهُ بصَرفِ النَّظر عن الأمر، ولا بمُعارضتها لها.

٢٠

مُتفرِّقات

لمَّا ذهب كلارك إلى المدينة يومَ السَّبت التَّالي، رجَعَ بخَبَرٍ مُقلِق يُفيد أنَّ السَّيِّدة مكدونلد كانت مريضة على نحوٍ خطير. وقد أفاد الطبيبُ الذي ما برِحَ يعتني بها بإخلاص أنَّ مُشكِلَتها كانت سكتةً دِماغيَّة حادَّة. فإنَّ أحَدَ جانبيها كان مشلولًا، وفقدَتِ النُّطقَ، وباتت طريحةَ فِراشِها في حالة خطِرة. وكان الأمَلُ بشفائها ضئيلًا.

تعاقبَت السَّيِّدة نَتِلز وأرملة من آل غراي، من المدينة، على تمريضِ السَّيِّدة مكدونلد على مدار السَّاعة، وعُرِضَ المَتجرُ للبيع.

شعرَت مارتي بِغَمٍّ في قلبها عندَ سماع الخبِر. وإذ لم تَرُقها السَّيِّدةُ مكدونلد قطُّ على وجه الخصوص، ملأها خبَرُ مرَضِها بمشاعِرِ الذَّنْب ووخْز الضَّمير.

قالت لنفسها: **رُبَّما إذا حاولتُ حقًّا، رُبَّما أمكنني أن أجِدَ امرأةً مُحبَّبة وراءَ العينَين المُتطفِّلتَين واللِّسان المُتَقصِّي.**

ولكنْ كان لها قليلٌ من الرَّاحة الدَّاخليَّة في قولها "رُبَّما" مرَّتين.

فلمَّا تسنَّت لها لحظةُ هدوء، صلَّت: "اللهُمَّ، رجاءً، سامِحني. لقد كنتُ مُخطئة. ساعِدني في المستقبل كي أرى خيرًا في جميع النَّاس، كي أنبِشَه إذا بدا مدفونًا في العُمق. وساعِدني كي أُحِبَّ حتَّى الأفرادَ الذين لا يُمكنني أن أكتشِفَ فيهم شيئًا من الخير".

ثُمَّ أرسلَت إلى السَّيِّد مكدونلد قِطعةَ لحمٍ مَشويَّةً وفطيرةً مُحَلَّاة، مع مؤاساتها. لقد كان ذلك تقريبًا كلَّ ما وَسِعَها أن تفعله، مع أنَّه يقينًا ما كان لِيُصلِحَ أيَّ شيء من الماضي.

كانت خُطَطُ زفاف نَلِي تتقدَّم على نحوٍ مُستحسَن. فإنَّ شَم قِكَرز استعادَ لسانَه ومضى يتكلَّم رُبَّما أكثر مِمَّا قد تكلَّم في جميع سِنيه السَّابقة. وبدا أنَّه يجِدُ سُرورًا عظيمًا في نشر الخبَر بأنَّه سيَصيرُ عريسًا عن قريب.

وكان الأُستاذ وِلبُر وِتِل أيضًا يُحرِزُ تقدُّمًا في تَوَدُّدِه، إلَّا أنَّه تخلَّى عن أمَلِه بأن يكون أوَّلَ عريسٍ يصحَبُ عروسَه إلى المذبح بعدَ وصولِ الواعظ الجديد. فلم يكُن قد حلَّ بعدُ مسألةَ مكانِ سَكَنه، ومن ثمَّ امتنعَ عنِ التَّقدُّم لطلَب يَدِ عروسهِ العتيدة. وإذ لم تفهم تَسِّي ما كان يؤخِّرُه، باتتِ نافِدَةَ الصَّبر تقريبًا.

أخيرًا تجاسَرَ الأُستاذ وِتِل فتقدَّم إلى اللَّجنة القائمة بمهامِّ مجلس المدرسة، مُطالِبًا ببناء مقرٍّ إقامةٍ في أرجاء المدرسة. وقدَّم لأعضاء اللَّجنة لائحةً بالأسباب التي من أجلها ستكون هذه الخطوة مُفيدة.

فمن شأنه أن يكون قريبًا للاعتِناء بالنَّار في الشِّتاء.

ومن شأنه أن يكون مُتاحًا إذا احتاج تلميذٌ إلى خدماته خارِجَ ساعات المدرسة.

ومن شأن ذلك أن يعنيَ قضاء وقتٍ أقصر على الطَّريق. وقد تمكَّن الأُستاذ من سرد بضعة أسباب أُخرى تستحقُّ الذِّكر لتبريرِ طلَبه.

إلَّا أنَّ أيًّا من الأسباب التي أوردها لم يكُنِ السَّببَ الحقيقيّ. ولكنَّ مجلس المدرسة، بعدَ النَّظر في الأمر قليلًا، رأى أنَّ وجودَ مُعلِّم مُقيم ليس بفِكرةٍ رديئة، وقرَّرَ بالتَّصويت قطْعَ أزنادٍ من الخشب وجمْعَها في أثناء الشِّتاء التالي لإنشاء بيتِ مُعلِّم بسيط، لكنْ وافٍ بالغرَض، عندما يأتي الرَّبيع.

كانت تلك خطوةً في الاتِّجاه الصَّحيح، ولكنَّها بدَت بالأحرى في المستقبل البعيد. وقد تمنَّى الأُستاذ وِتِل لو تقرَّرَ التنفيذُ أعجَلَ قليلًا. إنَّما في الوقت الرَّاهن اعتبَرَ أنَّ الحِكمةَ تقضي بأن يُمسِكَ لسانه في ما يتعلَّق بنيَّته من جهة الآنسة تَسِّي لاهاي.

وهكذا، بات الأمر مُعلَّقًا. فلم تستسلم تَسِّي تمامًا، ولكنَّها قدَّمت مِقدارًا بالغًا من التَّذمُّر والتَّشكِّي لأُمِّها المسكينة.

ألبسَت مارتي ألِّي جيِّدًا لِتَقيَها ريحَ الرَّبيع، وانطلقت إلى منزِل آل غراهام. لقد شعرَت بأنَّ الوقت قد حان لإجراء مُحادثتها مع السيِّدة

ما.

بوجود مِسي وكلاي في المدرسة، ستُعنى نانْدري بِكْلار وآرني في البيت. وقد قالت لنَفسِها في قلَق: **ينبغي أن تخرُجَ نانْدري أكثر. إنَّها صائرةٌ مُنعَزِلةً فِعلًا.**غيرَ أنَّ رِفقةَ الولَدَينِ الصَّغيرين بدَت كافيةً للشَّابَّة المُنطَوِية.

ولمَّا كان بيتُ آل غراهام يعجُّ عادةً بعائلة كبيرة، بدا هادئًا اليومَ على نحوٍ غريب. فقد كان الصِّغارُ في المدرسة. وكان توم في الخارج يشتغِلُ حولَ مباني المزرعة، ومن ثَمَّ بقِيَت نَلِي وحدَها لِتؤنِسَ السيِّدة ما في أثناءِ النَّهار. وسرعانَ ما ألقَت السيِّدة ما جانبًا المناشِفَ التي كانت تُقطِّبها يدويًّا. وتقدَّمت لتأخُذَ ألِّي من مارتي وتُخفِّفَ ثِيابَها، مُبديةً تعجُّبَها بشأن "وجهها الصَّغير الفاتن وتلك البَشَرة النَّاعمة كالزُّبدة".

رفعَت ما نظَرَها عن ألِّي لـتسألَ مارتي: "هل علِمتِ أنَّ سالي آن تنتظِرُ مولودًا آخر...ليس قبلَ الخريف. هذه المرَّة يأمُلُ جايسون ولادةَ طِفلٍ ذكَر، وإن كان بالتأكيد يأبى أن يستبدِلَ بأليزابيث آن تلك جيشًا من الصِّبيان".

ابتسمَت مارتي حِيالَ الخبَرِ الطَّيِّب عن إضافةٍ إلى العائلة، وسألت: "كيف حالُ سالي آن؟"

"حسَنة. إنَّه مشغولةٌ قدْرَ الإمكان بالاهتمام بجايسون وبُنَيَّتِهما تلك".

وما إن تنازلَت ما عن ألِّي الصَّغيرة، حتَّى أخذَتها نَلِي. وبعدَ قليلٍ وضعَتِ الطِّفلةَ في مَهدٍ محفوظ لأجل الزُّوَّار الصِّغار- خصوصًا حفيدةً صغيرة- ومضَت لِتَضعَ القهوةَ على النَّار.

أبدَت مارتي إعجابَها الشَّديد بجميع الأشياء المنزِليَّة التي سبقَ أن أعدَّتها نَلِي لبيتها الجديد. وكانت ما غراهام تُنَجِّدُ لِحافًا آخر. فسألت مارتي مَن كانت تترقَّبُ الزِّفافَ الآتيَ أكثرَ من الأُخرى: نَلِي أو أُمُّها. فضحِكَتا كِلتاهُما، وشعرَت مارتي بأنَّ ذلك يكفي جوابًا.

حضرَت القهوة، فأخذت كلٌّ من الثَّلاثِ ما تَخيطُه وتأهبَّت للمُحادثة.

تبادلنَ الأخبار من الجِوار، وعبَّرنَ عن قلَقِهنَّ على آل مكدونلد، وتحدَّثنَ بالتَّفصيل عن زِفافِ نَلِي الآتي.

ولما حصَلَ تَوقُّفٌ في المُحادثة، تطرَّقَت مارتي إلى الموضوع الذي جاءت لِبَحثهِ فِعلًا: "عرَّجَ علينا توم في الأُسبوع الماضي، كما طلبتُ منه أن يفعل".

فأومأت السيِّدة ما برأسها إيجابًا: "أجَل، لقد قال إنَّه زارَكِ".

"هل قال أيضًا إنَّه اصطحَبَ صديقًا؟"

توقَّفَت السيِّدة ما عن خِياطتها وقالَت مُراقِبةً مارتي: "لا، لم يقُل".

"لقدِ اصطحَبَ...اصطحَبَ أُواهْتيكا".

فازدادت السيِّدة ما سُكونًا بَعد، وتوقَّفَت إبرةُ نَلِي أيضًا.

وأسرَعَت مارتي مُردِفةً: "أنا طلبتُ منه أن يفعل ذلك. شعرتُ بأنَّ شخصًا ما ينبغي أن يلتقيَها ويتعرَّفَ حقًّا أيُّ نَوعٍ من الفتيات هي. علِمتُ أنَّه كان مُحرِجًا تقريبًا أن تأتيَ إلى هُنا، ولكنَّ مُجرَّدَ مجيئِها إلى دِيارنا ما كان لِيُثيرَ مُشكِلة".

ناشدَت عَينا السيِّدة ما مارتي أن تُكمِلَ كلامَها بسُرعة...أن تقولَ لها كيف كان منظَرُ الفتاة التي أسرَت قلبَ توم.

ونطقَت نَلِي بالكلمات: "كيفَ هو منظَرُها؟"

"إنَّها جميلة...فاتِنةٌ من كلِّ ناحية. لا عجَبَ أنَّ توم أُغرِمَ بها بشِدَّة. إنَّها هَيفاءُ ومُستقيمةٌ كقَضيبِ صَفصاف. وهي نحيلةٌ وسمراء، ذاتُ عينَينِ سوداوَين كبيرتَين وضفائرَ سُودٍ طويلة. وهي أيضًا مُتعلِّمة، تتكلَّمُ لُغَتنا جيِّدًا فِعلًا. وهي لطيفة...و...".

ألقت ما غراهام خِياطتَها جانبًا وأطرقَت رأسَها، قائلةً بصوتٍ خفيض: "آه، إلهَنا الكريم! ماذا سنفعل؟"

توقَّفَت مارتي عندَ هذه المُقاطَعة، وجلسَتِ الثَّلاثُ صامِتاتٍ.

أخيرًا، قالت مارتي برِقَّة: "ولكنَّها حزينةٌ أيضًا. إنَّها تُحِبُّ تومي، وأنا على يقينٍ بذلك. ولكنَّني أظُنُّ...أظنُّ أنَّ توم ربَّما كان الأبيضَ الوحيد الذي استطاعت أن تُحِبَّه أو تثِقَ به. وجَدُّها...هو...هو يُبغِضُ البِيضَ، ولِسبَبٍ وجيهٍ على وجه الاحتمال. فقد أخرَجَ أُواهْتيكا من مدرسة الإرساليَّة بعدَ رحيلِ والِدَيها. وإكرامًا لِتومي، كما أعتقِد،

حاولَت أن تقبلَني، إلَّا أنَّ الشَّكَّ بقِيَ مُقيمًا في عينَيها".

ثُمَّ أردفَت مارتي، بعدَ انتِظارٍ قصير: "مع ذلك حاولَت فعلًا...لأجلِ تومي. ورُبَّما...عاجلًا أو آجِلًا...لستُ أدري حقًّا".

لم تكُن السيِّدة ما قد رفعَت رأسَها. فأمرَّت يدًا أضناها الهَمُّ على وجهها، وتمتمَت: "ليتَني أعلَمُ فقط ماذا أفعل...ليتَني أعلم".

وقالَت نَلِي بسُرعة: "لا تبدو لي أيَّةُ مُشكِلة في الأمر. إذا كانا يُحِبَّانِ أحَدُهما الآخر، فلِماذا لا ينبغي أن يتزوَّجا؟"

رفعَت السيِّدة ما نظَرَها، وقالتَ بصراحة: "في الواقِع، يا نَلُ الشَّابَّة، أنَّ كلَّ ما ترَينَهُ الآنَ هو الحُبّ. أمَّا أنا فأرى ما وراءَ ذلك، من هَمٍّ وغَمٍّ، بل أيضًا مِن نأيٍ بالنَّفس وعائلةٍ لا بيضاءَ ولا سمراء".

ضَجَّت ألِّي من المَهد، فقامت مارتي للإتيانِ بها. وتساءلت: هل قالَتِ الأُمورَ الصَّحيحة؟ أو ينبغي لها أن تُجادِلَ بَعدُ من أجلِ الثُّنائيِّ الشَّابّ؟ لا، لم يكُن لها الحقُّ، ولا الحِكمة، كي تعلَمَ إذا كان ذلك مُناسِبًا. لقد قالت لَهُما كيف رأتِ الفتاةَ السَّمراء، كما أشارت إلى قوَّة أُواهْتيكا، وإلى حُبِّها وشُكوكها. والآنَ سيكونُ على السيِّدة ما، بمعونةِ ربِّها، أن تُواليَ الأمرَ من هُناك.

وإذ شالَت ألِّي من المهد، صلَّت في سرِّها: **يا ربّ، أنتَ تعلَمُ أنَّني ما بَرِحتُ أُحدِّثُك عن هذا الأمر كلَّ يوم تقريبًا. رجاءً، اجعَلْ طريقك واضحًا للجميع، لِتوم وأُواهْتيكا، ولما غراهام وبَن، ولعائلاتهم. ونعَم، يا ربّ، بارِك جدَّها الشَّيخ. ساعِدهُ حتَّى يهتديَ إليك قبلَ أن يموت...**

٢١

المُحتَرمُ نتسون

أخذ بَن حِصانَين وعربة إلى محطَّة القطار في البلدة المُجاوِرة لكي يُلاقيَ الواعِظَ الجديد ويُحضِرَه. وقد تقرَّر أن يقضيَ المُحترَمُ نتسون يومين في الفُندق الصَّغير ليستريحَ بعد سَفرَتِه الطَّويلة، وبعد ذلك يَصِلُ إلى مَنزِل آل واتلي، حيثُ سيَسكُن. وكانت بَل واتِلي في حالةِ اهتياجٍ عصبيّ. تصوَّرْ! إنَّها لم تحظَ فقط بالامتياز المُشرِّف في إيواء مُعلِّمِ المدرسة، بلِ الواعظِ الجديد أيضًا الآن. غيرَ أنَّ بَل لم تؤمِن بِجَعل حماستها تعني إجهادَ نفسِها فوقَ الحدّ. ومع أنَّ ثرثرَتَها وحيويَّتَها كانتا في أوْجِهما، فقد كانت راضيةً بَعدُ بأن تدَعَ بناتِها يقُمن بجميع المَهامِّ المَيدانيَّة استِعدادًا لِقُدوم القِسِّيس.

انتشَرَ بِسُرعةٍ، في المدينة والرِّيف، خبَرُ فَوزِهم حقًّا "بِرَجُلهم". فقد كان المُحترَمُ يستريح في الفُندق كما هو مُقرَّر، وسيُحضِرُه آلُ واتِلي للإقامة في أرباضِ مزرعتهم يومَ الجُمعة المُقبِل. ومن شأن هذا أن يُوفِّرَ له يومًا كي يستقرَّ ويُهيِّئَ نفسَه ليوم الرَّبِّ وأوَّلِ اجتماعٍ له مع جماعة المؤمنين الجديدة.

غمَرَ التأثُّرُ الجِوارَ كلَّه، وباكرًا صباحَ الأحد بدأت الأحصِنةُ والعرَباتُ تتقاطَرُ إلى باحة المدرسة. حتَّى أفرادُ الرَّعيَّةِ الأقلُّ إيمانًا حضَروا، ما عدا زيك لاهاي، مع أنَّه سمَحَ لزوجته وعائلته بالتَّغيُّب بِضعَ ساعات كي يتسنَّى لهم، هم أيضًا، أن يُقابِلوا الواعظَ الجديد. كان مؤكَّدًا أنَّه لن يتوافَرَ مكانٌ لجلوس الجميع، ومن الخير أنَّ الطَّقس سمَحَ بوضع بعض البُنوك المُوَقَّتة خارجًا.

كانت مارتي مُتأهِّبةً عقليًّا لرؤية رجُلٍ آخر صغيرٍ تقريبًا، مثل المُعلِّم، ظنًّا منها على وجه الاحتمال أنَّ ذلك هو الشَّكلُ الذي به "يُصنَعُ الرِّجالُ بعيدًا في الشَّرق". ولكنَّ مرأى المُحترَم نتسون الذي ما يزال شابًّا شكَّل صدمةً لا بأسَ بها للجميع. لقد كان طويل القامة، ولكنَّ تلك لم تكُن مِيزتَه البارزة. فحَجمُه كان تلك المِيزة! ولم يكُنِ اللَّافِتَ هوَ الوزنُ الثَّقيلُ الذي ينقُلُه القِسِّيسُ، بل كيفَ- أو أينَ- كان يحمِلُه. وقد لَقِيَ صعوبةً في سَترِ كِرشِهِ بسِترةِ بدلته. وكان وجهُه مُستديرًا ومُكتَنِزًا، مِثلَ نُسخَةٍ مُطابِقة لِما كانَ وراءَ أزرار سِترَتِهِ المشدودة.

رفعَت رؤيةُ وجهٍ مُدوَّرٍ الأمَلَ بأنَّه سيَبدو بهيجًا. غيرَ أنَّ المُحترَم نتسون لم يكُن هكذا. فلم يكُن على ذلك الوجهِ أيُّ خُطوطِ ضَحِك، ولا كان عندَ طرَفَي العينَين الخارجيَّين أيُّ تَغَضُّن.

وقد قالت مارتي لنفسها: **لَعلَّه ما زال مُتعَبًا. يُرجَّحُ أن يكون أشبَهَ بِنَفسه يومَ الأحدِ التَّالي!**

كان للمُحترَمِ الصَّالح صوتٌ جَهوريٌّ، سواءٌ عندَ التَّكلُّم أم عندَ

التَّرنُّم. ورُغمَ كونِ بعضِ التَّرانيم التي اختارها غيرَ مألوفةٍ لدى بَقيَّتِهِم، فقد جرى التَّرنيمُ حسَنًا. وقد كانت صلَواتُه أيضًا مُفعَمةً بالمعنى لدى مارتي. إذ بدا كأنَّه يُحسِنُ مُخاطَبةَ القدير. وشعرَت مارتي بأنَّ نفْسَها تأثَّرَت وروحَها تنشَّطَت فيما الحُضورُ يتعبَّدون معًا بِتَوجيهٍ من المُحترَم نتسون.

غيرَ أنَّ المَوعِظة خلَّت مارتي مُرتبِكةً بعضَ الشَّيء. فقد كان لِلمُحترَم صوتٌ يسهُلُ تمامًا الاستِماعُ إليه، ولكنَّ بعضًا من الكلمات والأفكار كانت غيرَ مألوفةٍ وصعبةَ الإدراك لدى مارتي. وحينَ كانت تُحِسُّ أنَّها رُبَّما علِمَت ما كان يقولُه، حينئذٍ تمامًا كان يفوتُها المقصودَ من جديد. فوبَّخَت نفسَها على جهلها وعزمَت على التَّحقُّق مع كلارك في طريق الرُّجوع إلى البيت.

جرَت أحاديثُ وتعارُفاتٌ عامَّة إذ خرَجَ النَّاسُ أفواجًا من مبنى المدرسة. وقد سمِعَت مارتي بِضعَ تعليقاتٍ قال أصحابُها "مَوعِظةٌ جيِّدة، يا مُحترَم"، فاقتنعَت أكثرَ من ذي قبل بأنَّها كانت بَطيئةَ الفهم على نحوٍ رهيب.

وفي الطَّريق إلى البيت طرَحَت الموضوع على كلارك: "المُحترَم نتسون جيِّدٌ تمامًا، أليسَ كذلك؟"

"يبدو كذلك".

"له صوتٌ حسَن يصِلُ حتَّى إلى الخارج، صحيح؟"

"حقًّا".

"وهو يُرنِّمُ جيِّدًا بالفِعل أيضًا".

"إنَّه مُرَنِّم جيِّد".

"كلارك، عمَّ كان يتكلَّم؟"

فبدأ كلارك يضحك.

وأخيرًا استطاعَ أن يقولَ من خِلال مرَحِه: "فلأُحاكَمْ إذا عرَفتُ!"

"أنت أيضًا لا تعرِف؟"

"لا فِكرةَ عندي. لا تفترِضي أنَّ هُناك نفْسًا واحِدَة عرَفَت".

فاعترفَت مارتي: "حسِبتُ أنِّي أنا وحدي بطيئةُ الفهم إلى ذلك الحدّ". وضحِكَ كلارك من جديد.

ثُمَّ استعادَ السَّيطرةَ على نفسه وقال: "حسنًا، أعتقِدُ أنَّ القِسِّيسَ الصَّالح كان يقول شيئًا ما عن كون الإنسان مخلوقًا مُميَّزًا، مُصمَّمًا لأجل غايةٍ خاصَّة، ولكنَّني لم أُدرِك قطُّ ما هي تلك الغاية. فإنَّ «تحقيقَ غايةِ الإنسان العُليا»، أو شيئًا من هذا القبيل، يبدو أنَّه تكرَّرَ أكثرَ من مرَّة. ولستُ مُتيقِّنًا ما يعنيه ذلك".

قعدَت مارتي صامتة.

ثُمَّ قالت بِرَويَّة: "لعلَّهُ يُفسِّرُ يومَ الأحد التَّالي". وقرَّرَت، عندئذٍ وهناك تمامًا، أن تُواظِبَ على الصَّلاة لأجلِ المُحترَم نتسون إذ يحتلُّ مكانَهُ وسطَ أهل الحيِّ ويهتمُّ بتلبيةِ حاجاتهم. لقد أرادت حقًّا

لأولادهما- وفي الواقع لجميع الأولاد- أن يتلقَّوا مزيدًا من التَّربية والتَّعليم الرُّوحيَّين، ما دام لدَيهِم الآنَ قِسِّيسٌ نِظاميٌّ.

كانت مارتي ترفَعُ صحونَ العشاء عن الطَّاوِلة لمَّا سمِعَت حِصانًا مُنفرِدًا يقترِب. ثُمَّ ترجَّلَ تومي مُسرِعًا عنِ السَّرج، وهو يبدو على عجَلَة شديدة. فصَلَّت مارتي ألَّا يكونَ هُنالك أيُّ خطب إذِ اندفعَت إلى الباب لاستِقباله.

كان وجهُه مشحوبًا وكالحًا، وقد صلَّبَ حنَكَهُ بعِناد.

وما لبِث أن سأل: "هل لي أن أراكِ؟" بلهجةٍ مَشدودةٍ مثل سيمائه.

فقالت: "دونَ شكٍّ، تومي"، جاذِبةً إيَّاه إلى الدَّاخل. ثُمَّ سألَت بسُرعة: "تومي، ما خَطبُك؟"

"أنا راحِل".

"راحِل! إلى أين؟ ولماذا؟"

"سأتوغَّلُ غربًا".

"لكنْ لِماذا؟"

"وصلتني رِسالةٌ عصرَ اليوم من أُواهْتيكا. كُنَّا سنتلاقى كالعادة، ولكنَّها لم تكُن هُناك. فانتظرتُ وانتظرتُ وقلِقت، ثُمَّ لمَّا همَمتُ بأن أطلُبَها- بوجودِ جدِّها أو دونَه- لمحتُ تلك الحجارة المُكوَّمة...وداخِلَها رسالة". ثمَّ دفَعَ الورَقةَ المُغضَّنة نحوَ مارتي،

فتناولتها بأصابِعَ مُرتجِفة.

عزيزي تومي،

لا بُدَّ أن يكونَ جدِّي قد علِمَ بأمرنا. إنَّه سيُعيدُني إلى المَحميَّة. رجاءً، لا تُحاوِلْ أن تلحقَ بي. فذلك سيَعني الخطَر. لقد وُعِدَ بي "غزال رشيق" زوجةً له.

- أُواهْتيكا

همسَت مارتي: "آهِ تومي! أنا مُتأسِّفة جدًّا". لقد فهِمَتِ الآنَ الألَمَ المبرِّح في وجه الشَّابِّ.

مشى توم هنا وهناك جارًّا رِجلَيه، فأدركت مارتي أنَّه كان يُكافح لأجل السَّيطرة على مشاعِرِه.

أخيرًا سألَتْه: "ولكنْ لماذا...لماذا ترحَلُ بعيدًا؟"

فقال بِصَوتٍ ينضوي على مرارة: "لَن أبقى هُنا. هذا تمامًا هو ما أرادَته أُمِّي. ينبغي أن تكونَ مسرورةً الآن".

ألقَت مارتي يدًا على ذِراعه، فأحسَّت عضَلاتهِ مشدودةً غضَبًا وحُزنًا.

"تومي، ما مِن أُمٍّ تُسَرُّ يومًا عندما يكونُ أولادُها مُتألِّمين. أفي وسعِكَ أن تُدرِكَ ذلك؟ صحيح، أنا أعلَمُ أنَّ السيِّدة ما كانت قلِقة، قلِقةً عليك وعلى أُواهْتيكا كِلَيكُما. لم تشعُر بأنَّ الأمرَ كان صائبًا. ولكنَّك مُوجَعٌ، يا تومي...وحُزنُك لن يجعلَها مسرورةً البتَّة. سوف تُعاني ألَمًا رهيبًا هي أيضًا، يا تومي...حقًّا إنَّها سوف تُعاني!"

مسَحَ تومي قفا يَدِه على وجهه وأشاحَ عن مارتي نِصفَ إشاحة.

أخيرًا، قال بصَوتٍ أجَشَّ: "ما زالَ عليَّ أن أرحل. لا يسَعُني حقًّا أن أبقى هُنا...ذلك هو الأمرُ كلُّه. كلَّ يومٍ سأظُنُّ أنَّني أرى أمِّي تخترِقُني بنَظَراتها، مُقوِّمةً إيَّاي ومُتمنِّيةً لو أجِدُ فتاةً أُخرى...".

فأجابت مارتي بِلُطف: "أُدرِكُ ذلك".

"تركتُ لهم رِسالةً قصيرة، لم أقُلِ الكثيرَ فيها. أخبِريهم أنتِ، يا مارتي، هلَّا تفعلين؟ حاوِلي أن تقولي لهم لِماذا كان عليَّ أن أرحل".

لم تستطع مارتي أن تتكلَّم عبْرَ الغُصَّة في حَنجرتها، ولكنَّها أبدَت موافقَتها بانحناءةٍ من رأسها. ثُمَّ قالت همسًا: "كُن يَقِظًا، تومي، سَمِعتَ؟ وابعَثْ برسالةٍ قصيرة بينَ حينٍ وآخر، هلَّا تفعل؟"

أومأ برأسه، ولكنَّه لم يقُل أيَّ شيءٍ إضافيّ. ثُمَّ دار ومضى. وتُرِكت مارتي واقفةً في المدخل، مُشاهِدةً إيَّاه ذاهبًا، فيما جرَتِ الدُّموعُ بغزارة على خدَّيها.

٢٢

الحياةُ تستمرُّ

كان رحيلُ توم شاقًّا على مِسي اليافعة. فقد خلَّفَ لدى عائلته وأصدقائه حُزنًا داخليًّا عميقًا، ولكنْ صحِبَ الألَمَ في قلب مِسي ارتِباكٌ شديد. إذ فاقَ إدراكَها فِعلًا أن يختارَ تومي مُغادَرَةَ الجميع، بل مُغادرَتها هيَ أيضًا. وحاولت مارتي أن تُفسِّر، إلَّا أنَّ جهودَها ذهبَت أدراجَ الرِّياح.

أمَّا قلبُ السيِّدة ما المُوجَع فقد ستَرَهُ الاهتِمامُ والأنشِطة المطلوبة لأجل زِفاف نَلي. وقد شاهدَت مارتي حرَكتها الدَّائبةَ وهي تُنظِّمُ كلَّ ما وجَبَ القِيامُ به، إلَّا أنَّها علِمَت أنَّ وراءَ ابتسامتها وتعليماتها لِكُلِّ شخصٍ داخِلَ مَجالِ البَصَر والصَّوت كمَنَ قلبُ أُمٍّ مفطور من أجل ابنِها المُصاب بالأسى.

لمَّا نُزِعَ شهرُ آذار من روزنامة المتجر العامِّ، وعَدَ نَيسانُ بِنُموٍّ جديد، وحياةٍ جديدة، ونشاطٍ جديد. وانهمكت نَلِي في تحضيرات الدَّقيقة الأخيرة بخدَّين مُتورِّدَين ووَجهٍ مُشرِق.

”هل يبتسِمُ النَّاسُ دائمًا عِندَما يُقدِمون على الزَّواج؟“ هكذا تساءل اكْلار بعدَ خدمةِ يومِ أحَدٍ صباحيَّة فيها قضى مُراقِبًا الذين حَوالَيه وقتًا أطول مِمَّا قضى مُستَمِعًا إلى الواعِظ المُحترَم.

فضَحِكت مارتي ضِحكةً خافتة، وقالت: ”أغلَبَ الأحيان، أغلبَ الأحيانِ يفعلون ذلك“.

هزَّ اكْلار كتِفَيه لامُبالاةً، وصرَفَ نظرَه عن الأمر عندَ هذا الحدّ. فإنَّ السَّبَبَ الكامِن وراءَ المسألةِ بكامِلها فاتَهُ تمامًا.

كان المُحترَم نتسون حتَّى الآنَ قد ألقى خمسَ عِظات على جماعة المؤمنين، وكانت مارتي منذُ مُدَّة طويلة قد تخلَّت عن محاولة التَّوصُّل إلى تفسير معقول لِما يعنيه. وبدا أنَّ آخرين أيضًا قد تخلَّوا عن ذلك، وتوقَّفَ عن الحضور عدَدٌ قليل من العائلات الأقلِّ تَحمُّسًا. غيرَ أنَّ قاعةَ الدَّرس ظلَّت مُكتظَّة، ولم تكُن خِدمةُ العِبادة دائمًا جليلةً كما تمنَّى لها الكثيرون أن تكون.

تمنَّت مارتي فعلًا لو أنَّ القِسِّيس لم يكُن مُتعلِّمًا وشَكليًّا إلى ذلك الحدِّ البعيد. فقد تاقت كثيرًا إلى غِذاءٍ روحيٍّ مُماثِل لِمَا وجدَته في أثناء القِراءة اليوميَّة من الكتاب المقدَّس مع كلارك وعائلتهما. ويومَ أحَدٍ بعد آخر، رجعَت إلى البيت شاعرةً باللَّايَقين والانزِعاج. كانت على يقين بأنَّها تسمَعُ الحقَّ في تلك العِبارات المُنَمَّقة، ولكنَّها تمنَّت فِعلًا لو أمكنَ تقديمُ الحقِّ بطريقةٍ تُمكِّنُها من اصطحابهِ إلى البيت

وتطبيقهِ في حياتها.

كانت عائلةُ آل ديڤِس قد دعَت المُحترم نتسون كي ينضمَّ إليهم على الغداء ذاتَ يومِ أحَد. لم يسبِق أن رأت مارتي قطُّ رجُلًا يأكُل بنهَم مِقدارًا مُماثِلًا من الدَّجاج المَقليِّ أو اللِّفت المهروس، ولكنَّها بالتأكيد لم تقُل أيَّ شيء وظلَّت تُمِرُّ الصُّحونَ صَوبَهُ. إلَّا أنَّها لمَّا رأت اكْلار يُراقِبُه بعينَين واسِعتَين تنمَّان عن عدَمِ تصديق، كبَتَت قهقهقةً وحوَّلَت انتِباه اكْلار بسُرعة لِئلَّا يتفوَّهَ دونَ تفكير في أيِّ تعليقٍ مُحرج.

تحدَّث كلارك ومارتي عن الوضع طِيلةَ تلك الأسابيع الأُولى. وقرَّرا أن يقبلا واعِظَهُما الجديد...أن يقبلاه بالنَّظَر إلى كَونهِ مَن كانَه، ومَن يُمثِّل، وما جاء لِيَعمله. فقد سافَرَ مسافةً طويلةً جدًّا لكي يُعلِّمَهما من الكتاب المقدَّس، ومن المؤكَّد أنَّ في وسعهما أن يفتحا قلبَيهما لكلمة الله ويَتوكَّلا عليه من جِهَة الباقي.

عندما استؤنِفَت المدرسة ذلكَ الخريف، مشى اكْلار الصَّغير مُتهاديًا مع الفتاتَين، واثقًا بنفسه ومُطمئنًا. كان همُّه الوحيد كيف سيُدير كلارك المزرعة من دونه. ولكنْ لمَّا قال له كلارك إنَّه يستطيع أن يُدبِّر الأُمور- فعِندَه آرني الآن- أومأ برأسه مُوافِقًا على مضَض.

كان اكْلار ملآنًا بقِصَص المدرسة، غالِبًا عن مزحةٍ أو حادث مُضحِك في الملعب، أو حادِثٍ مؤسِف في الصَّفِّ. وقدِ اتَّهمَته مِسي بكونهِ نمَّامًا صِرفًا، إلَّا أنَّ ذلك لم يُخمِد تَحمُّسَه لقِصَّة جيِّدة.

ذاتَ يوم، كانت مارتي جالسةً في هدوء البيت تحبِكُ قُفَّازَين جديدَين قبلَ حلول الشِّتاء. وكانت نانْدري في الخارج تَلتقِطُ عِنَبيَّةً في المرعى البعيد. أمَّا آرني فكان "يُساعِد" أباه، فيما كان التَّلاميذُ الثَّلاثة في المدرسة، وكانت الطِّفلة أَلِّي نائمةً نَومتَها القصيرة.

توجَّهَت أفكارُ مارتي إلى وَنْدا. وقد باتَ أهلُ الحيِّ جميعًا الآنَ يعلمون أنَّ رَت الصَّغير لم يكُن ينمو نُموًّا طبيعيًّا...الجميعُ، على ما بدا، ما عدا وَنْدا وكام. وأحسَّت مارتي قلبَها مغمومًا إذ فكَّرَت في الصَّبيّ. فمع أنَّه صارَ يمشي وحدَه أخيرًا، لم يُحاوِل مع ذلك أن يتكلَّم، وكان واضحًا أنَّه لن يكون أبدًا مِثلَ الأولاد الآخرين.

كان كام ما يزال يتباهى بِابْنه. وكان من شأنه أن يسألَ أيَّ شخص في مرمى السَّمْع: "أتَرى كم هو كبيرٌ وقويٌّ؟" فتساءلت مارتي كيف سيتقبَّلُ الأمر عندما يُدرِكُ الحقيقةَ أخيرًا.

فوجئَت مارتي إذ رفعَت نظَرَها عن أفكارها فرأت وَنْدا بنفسها تَسوقُ العرَبة إلى داخل الفِناء. كانت قدِ اصطحبَت رَت، وقد جلس مُنتَصِبًا بجانبها على مقعد العرَبة، ماسِكًا بابتهاجٍ طرَفَي الزِّمام حيثُ تمسَّكَت هيَ بهما.

ربَطَت وَنْدا الحِصانَين وأنزلَتِ الصَّبيَّ الضَّخم. فمشى مُتثاقِلًا في أنحاء الفِناء، وانفعَلَ مُتحمِّسًا لدى رؤية بوب العجوز. وسُرعانَ ما تعارفَ الصَّبيُّ والكلب.

ثُمَّ أمسكت وَنْدا بِيَد الصَّبيِّ واقتادته نحوَ البيت. فلَم يعترِض، ولكنَّه لم يُبدِ أيَّ تَوقٍ أيضًا.

لم تُبدِّد وَنْدا أيَّ وقتٍ في حديثٍ جانبيٍّ، بل بادرَت قائلةً: "كان عليَّ أن أراكِ، يا مارتي". ولاحظَت مارتي ارتِعاشَ ذَقنِها.

ثُمَّ قالت بصَوتٍ مُرتعِش: "أعلَمُ أنَّ الجيران يتحدَّثون كلُّهم بشأن رَت من حيثُ كونُه مُختلِفًا. أعلَمُ أنَّهم يفعلون ذلك. وأعلَمُ أيضًا ماذا يعتقِدون...إنَّهم يعتقدون أنَّ كام وإيَّاي لا نعلَمُ بالأمر. إنَّنا نعلم، يا مارتي، نعلم. تخميني أنَّني علِمتُ منذُ كان رَت طِفلًا صغيرًا جدًّا. آه، تمنَّيتُ وصلَّيتُ أن أكونَ مُخطئة...ولكنَّني علِمت. ظلَلتُ مُدَّةً أتساءل...أتساءل بشأن كام. وتساءلتُ: عندما يعلَمُ بالحقيقة...كيف سيَشعُر عندئذٍ. ثُمَّ...ذاتَ ليلة...حسنًا، باحَ بالأمرِ فعلًا. لقد علِمَ هو أيضًا".

ثُمَّ توقَّفت وندا، وارتفعت يدُها إلى شفَتَيها. وبعدَ أن أخذَت نفَسًا عميقًا، أردفَت: "مارتي، هل رأيتِ...هل رأيتِ مرَّةً رجُلًا بالغًا يبكي؟ أعني: يبكي حقًّا؟ الأمرُ رهيب...رهيبٌ تمامًا".

مسحَت وندا دموعها، وأخذَت نفَسًا، ثُمَّ تابعَت- وصَوتُها أقوى الآن- "أحسَستُ أنَّ عليَّ حقًّا أن أُشارِكَ في الأمر شخصًا ما...شخصًا يتفهَّم. لقد كان ذلك صعبًا في الأوَّل...صعبًا حقًّا. ولكنْ، يا مارتي، أُريدُ لكِ أن تعلمي أنَّني لن أُغيِّر الحال، لن أُغيِّرَها

حقًّا. إنَّه أتى بفرَحٍ كثيرٍ لنا. أنتِ ترَين...". ثُمَّ نظرَت إلى مارتي، والدُّموع تتلألأُ في عينيها، وأردفَت: "طلبتُ إلى الله مرَّاتٍ كثيرةً جدًّا أن يرزُقَنا طفلًا. وهو...قد أعطاني طِفلًا...صبيًّا لن ينموَ أبدًا من بعض النَّواحي. فالآن، هل يَسَعُني أن أعيبَ اللهَ من أجلِ استِجابة صلاتي؟ لا أعتقِدُ، يا مارتي، أنَّ رَت سوفَ يتركُني يومًا، ولا حتَّى إلى المدرسة. لَدَيَّ...لَدَيَّ طِفلي...دائمًا أبدًا".

"آهِ وَنْدا!" تقدَّمَت مارتي لِتُطوِّقَ صديقتها بذِراعَيها، وبكَتا معًا. ولمَّا غسَلَت دموعُهما الحُزن، استطاعتا أن تتحدَّثا بأمورٍ أُخرى.

لَعِبَ رَت قانعًا بِكُتَلِ البناء الخشبيَّة، دافعًا إيَّاها إلى الوراء وإلى الأمام على أرضيَّة المطبخ، لأنَّه لم يستطِع- على ما بدا- أن ينجحَ في تكديسها.

٢٣

الكنيسة والعائلة

بُنيَ بيتُ المُعلِّمِ الخشبيُّ الصَّغير في الرَّبيع التَّالي، وانتقلَ الأُستاذ وِلبُر وِتِل وعروسُه إلى منزِلهما الصَّغير الجديد. وكان أهلُ الحيِّ منذُ مدَّة طويلة قد أدركوا السَّببَ الحقيقيَّ لإصرار الأُستاذ وِتِل على بيتٍ يخصُّه قُربَ مبنى المدرسة، لأنَّه بُعَيدَ تَلقِّيهِ تأكيداتٍ أنَّه سيُبنى فعلًا طلَبَ يدَ الآنِسة تَسِّي، وقد أبدى أهلُ الحيِّ استِحسانَهُم مُبتَسِمين. ولمَّا وُضِعَت اللَّمَساتُ الأخيرة على بيت المُعلِّم، أجرى المُحترَمُ نتسون مراسِمَ الزَّواج وأعلنَ العروسَين زوجَين.

ولكنْ بينَ أفرادِ ذلك المُجتمَع سرى استياءٌ مُتزايد حِيالَ خِدمة العِبادة الصَّباحيَّة أيَّامَ الأحَد. وبدَلًا من إلقاء اللَّوم على "الرَّجُل المُتعلِّم" ومَواعِظِهِ الرَّفيعة المُعقَّدة، رأى الشَّعبُ بالأحرى أنَّ المُشكِلة كانت مُرتبِطةً بمكان الاجتماع. فقد كانت المدرسة مُزدحِمة، والمقاعِدُ غيرَ كافية، ولم يتوافر أيُّ مكان يؤخَذُ إليه الأولادُ الضاجُّون. ومن ثَمَّ باتَ كونُ الوضعِ غيرَ مُساعِدٍ على العبادة هو المُحرِّكَ الأساسيَّ لِمُناقشات الجِوار.

ما بينَ زَرعِ المحاصيل وموسِم تجفيف العُشب للعَلَف، رُتِّبَ اجتماعٌ للنَّظر في المسألة. وقد كان الاجتِماعُ قويًّا، وعبَّرَ كثيرون عن شعورهم بأنَّ الحيَّ كان في حاجةٍ ماسَّة إلى مبنى كنيسةٍ مُناسب. ثُمَّ تلَت مُناقشةٌ مُطوَّلة بشأن المكان الذي ينبغي أن يُقامَ فيه هذا المبنى. فعرَضَ بعضٌ بِسَخاءٍ تقديمَ أراضٍ، ولكنَّ الجماعة قرَّروا أخيرًا أنَّ الموقِعَ المركزيَّ سيكون زاوية من أرضِ مزرعةِ آل واتلِي. وعندما يأتي الخريف، تعمِدُ مجموعةٌ من المتطوِّعين إلى قِياس قطعة الأرض بِالخَطْوِ وتسييجها. وتتولَّى مجموعةٌ أُخرى مَهمَّةَ عَدِّ أزنادِ الخشَب. ثُمَّ طَوالَ أشهُرِ الشِّتاء يشتغِلُ الرِّجالُ والأحصِنة بجِدٍّ وكَدٍّ في تحويلِ خشَبِ الأشجار الطويلة القائمة على الجِبال إلى أزنادٍ وألواحٍ مقشورة مُكدَّسة في أكوامٍ مُتعاظِمة باطِّراد عندَ موقِع البناء. وسيَتولَّى كلارك الإشرافَ على مَهمَّة تصنيف الأخشاب لِلتَّيقُّن بأنَّ العدَدَ المجلوبَ كافٍ للبناء.

ستكونُ بُنوكٌ خشبيَّةٌ كافيةً لإجلاس أُولئك الرِّجال البالغين تمامًا، والذين اضطُرُّوا- يومَ أحَدٍ بعدَ آخر- إلى حشر أجسامهم الطَّويلة داخِلَ مكاتِبَ، أو طبقات، مصنوعةٍ لتلاميذ الصَّفِّ الخامس. وسيوفِّرُ مَذبحٌ مكانًا فيه يُتاحُ لأصحاب الحاجات الرُّوحية أن ينحَنوا مُصَلِّين، كما ستُذاعُ كلمةُ الله مِن على مِنبَرٍ مُصمَّم لأجل ذلك خصوصًا.

استدرَّت جميعُ الخُطَط تحمُّسًا عظيمًا من الجماعة، ورجَعَ الجميعُ إلى بيوتهم من الاجتماع بِمَعنويَّاتٍ مرفوعة. فها هُم الآن أخيرًا سيَصِلون إلى مكانٍ ما. ولا شكَّ أن وقتَ العِبادة لدَيهم ستُتاحُ له

فُرصةٌ فُضلى لتلبية حاجاتهم بوجود مكانٍ مُناسب للاجتماع. ولا بُدَّ أن يكونَ مبنى الكنيسة أوسعَ كثيرًا من مبنى المدرسة. فسَوف يضمُّ غُرفتَين جانبيَّتين؛ في إحداهما يمكن أن يُعلَّم الأولاد في صَفِّ مدرسةِ أحَد، وفي الأُخرى الصُّغرى يمكن وضعُ الأطفال الباكين حيثُ لا يُزعِجون باقيَ الحُضور.

بدا القِسِّيسُ مُوافِقًا على الخُطَط، مع أنَّه لم يُبدِ أيَّةَ حماسةٍ مخصوصة. وقد سارَعَ إلى إخبار الجماعة بعدَد السَّاعات الكثيرةِ التي تدعو إليها الحاجةُ في مكتَبِهِ بُغيةَ إعداد نفسه لِعِظَتِهِ أيَّامَ الأحد. وكانت الرِّسالة الواضحة أنْ لا بأسَ عندَه في ذلك ما دامَ لا يُدعى للقيام بِمهمَّةٍ ما من قبيلِ قَطعِ الخشَب.

فليكُن كذلك! هكذا قرَّرَ المُخطِّطون أخيرًا. ثُمَّ بعد جَنيِ المحاصيل وإنجازِ أعمال الخريف، توجَّهَ الرِّجالُ إلى الجبال الشَّجراء. وكان ينبغي أوَّلًا تأمينُ مَخزنِ الحطَب لعائلاتهم، فاستعجلوا إنجازَ هذه المَهمَّة ليتسنَّى لهم البدءُ بإعداد الأخشاب وعدِّها لأجل مبنى الكنيسة الجديد.

وفيما انقضى الشِّتاءُ بَطيئًا، كان كلُّ يومٍ مؤاتٍ للإنسان والحيوان كي يخرُجا إلى العَراء يحمِلُ صوتَ الفؤوسِ الحادَّ ودويَّ سقوطِ الأشجار الضَّخمة. وشيئًا فشيئًا أخذَت أكوامُ الأزنادِ في موقِع البناء تعلو، وكان كلارك- إذ تولَّى الإحصاءَ وأشرفَ على تقشير الخشب-

يُطلِعُ مارتي على التَّقدُّم المُستمرِّ الذي كانوا يُحرِزونه.

لدى انصهارَ الثَّلج في الرَّبيع، ظهرَت أكوامٌ كبيرة من أزناد الخشب المقشورة المُطلِقة لِلبُخار تحتَ شمس الرَّبيع الدَّافئة. ثُمَّ خُصِّصَ يومٌ من شهر أيَّار لإنشاء مبنى الكنيسة. ولأنَّ ذلك المبنى كان خصوصيًّا وأكبرَ من مُعظم المباني التي سبق أن أقاموها، علِمَ الرِّجالُ أنَّ إنجازَ البناء سوف يستغرِقُ أكثرَ من يومٍ واحد، غيرَ أنَّ النَّهارَ الأوَّل سيُوفِّرُ لهُم إدراكَ الاتِّجاه والتَّصميمَ التَّقريبيَّ الذي يشتغلون بمُوجبه.

اجتمع أهلُ الحيِّ في اليوم المُخصَّص، فباشَرَ الرِّجالُ العمَلَ، مُحتشِدينَ بصورة طبيعيَّة في فِرَق لأجل المَهامِّ المُختلفة المطلوبة لإنشاء مبنى الكنيسة. وانكبَّت النِّساءُ على الدَّردشة والطَّبخ وإبعاد الأولاد الجائعين عن الطَّعام المُخصَّص لِلغداء. وعندَ المساء، إذ توجَّه المُزارِعون إلى بيوتهم لتأدية المهامِّ التي تنتظرهم، كانت جُدران مبنى الكنيسة قدِ ارتفعَت مُحكَمةً وقويَّة. واتَّفقَ الذين يستطيعون توفيرَ وقتٍ على أن يأتوا في اليوم التَّالي للعمَل في البِناء من جديد. فقد كانت الأُمور المهمَّة الآن إنشاء السَّقف وتركيب النَّوافذ ونصْب الباب. أمَّا إنجازُ الأشياء في الدَّاخل فتقرَّر القيامُ به طِيلةَ الرَّبيع والصيف، حسبَما يستطيعُ الرِّجال أن يوفِّروا الوقتَ اللازم.

لدى حلول الخريف، قام مبنى الكنيسة شامخًا، وله أيضًا بُرجٌ دقيقُ الرَّأس يُوجِّهُ الجميعَ نحوَ السَّماء. وعلَّقَ بعضٌ مِمَّن تذكَّروا التَّقاليدَ

المُتَّبعةَ قديمًا في الشَّرق: "إنَّه يفتقِرُ فقط إلى جرَس!"

وإلى الشَّرق من مبنى الكنيسة عُلِّمَت بدِقَّةٍ حدودُ مَقبرةٍ، باستِعمالِ أوتادٍ مَغروزة. وإذ راقبَت مارتي الرِّجالَ يُخطِّطونَ الأرض، ساءلَت نفسَها هل خطَرَ في بال الآخرين السُّؤالُ عينُه: **مَن سيكونُ أوَّلَ شخصٍ يُدفَنُ هُناك؟**

حاولت ألَّا تُباليَ بالأمر، ولكنْ على رُغمِها سرَحَت عيناها فوقَ جيرانها. لقد أحبَّتهم ولم تُرِد أن تفقِدَ أيًّا منهم. ثُمَّ لمحَت عيناها عائلتَها، فألفت نفسها تكادُ تختَنِق.

وأنَّبَت نفسها: **هذه حماقةٌ منِّي. أعمارُنا كلُّها في يدِ الله. وهو يقوم بالاختيار.**

ثُمَّ مضَت لِتَنضمَّ إلى كلارك، وكان يُحاوِلُ أن يمسكَ ألِّي المُتَلوِّية فيما كانت تُجرِّبُ أن تنزِلَ لِتَركُضَ مع باقي الصِّغار. وإذ شاهدَت مارتي البنتَ الدَّارِجة تجري وراءَ كُرَة تدحرجَت نحوها، صلَّت: **نعم، يا ربّ! نحنُ كلُّنا في عُهدَتِك. سنبذِلُ قُصارى جَهدنا لِنكون نُبَهاءَ وحُكَماء، ولكنَّك أنت مَن ترعانا وتحمينا جميعًا.**

تقرَّر أن يجريَ تدشينُ مبنى الكنيسة الجديد في أوَّلِ يومِ أحَد من تِشرينَ الأوَّل. وقرَّرَ الجميعُ أن يجعلوا المناسبة احتِفالًا حقيقيًّا ويأتوا بِوَجبة من حواضِر البيت.

ولمَّا حلَّ اليومُ المنشود، كانت الرِّيح هابَّةً والجَوُّ مُلبَّدًا بالغيوم، ممَّا جعل النَّهار أقلَّ مؤاتاةً من المأمول، إلَّا أنَّ مارتي كانت شاكرةً لأنَّ المطَرَ لم يتساقطْ على الأقلّ.

صَرَّت بانتِباهٍ الطَّعامَ الذي كانت قد أعدَّته، وتحقَّقَت أنَّ عائلتها

كانت ترتدي ثِيابًا مُدفِّئة اتِّقاءً للطَّقس البارد. وكالعادة، كان من الصَّعب إيقافُ آرني وقتًا كافيًا للتَّيقُّن بأنَّ معطفه مُزرَّر وقُبَّعته مُثبَّتة بإحكامٍ على رأسه. وإذ ذهبوا إلى العرَبة لأجل الرِّحلة إلى الكنيسة، دَمدمَ: "أنا لا أشعُرُ بِالبرد!"

تقاطَرَ إلى فِناء الكنيسة جُمهورٌ أكبَرُ من المُعتاد، مُفعَمٌ بآمالٍ كِبار. فالآنَ صارَ عندَهم مبنى كنيسةٍ يتعبَّدون فيه.

تمتَّعَ الحُضورُ بترنيمِ التَّرانيم المألوفة. وكانوا الآن قد تعلَّموا بعضَ التَّرانيم الجديدة التي جاء بها القِسِّيس.

كانت الصلاة طويلةً ومُعقَّدة. ووجدَتْ مارتي نفسَها مُصلِّيةً صلاتَها الخاصَّة الأكثرَ بساطةً وتعبيرًا عن حاجةِ قلبها.

ثُمَّ بدأت خِدمةُ تدشينِ المبنى الجديد. وكان لكُلٍّ من كلارك وبَن والأُستاذ واتلِي دَورٌ في ذلك. وقدِ اعتبرَت مارتي الاحتفالَ جميلًا، وكبُرَ قلبُها فخرًا لمَّا شاهدت كلارك يُشارِك.

وقالَت قَسَماتُ وجهِها لصغيرَيهِما الجالِسَين إلى كِلا جنبَيها: **الآنَ راقِبا باباكُما. انظُرا كم هو مُستقيمٌ في وِقفَته...وكم صَوتُه هادئ...وكم هو فَخورٌ بأن يكونَ في عِداد شعبِ الله!**وبدا أنَّهُما التقَطا ما تعنيه. حتَّى إنَّ ألِّي الصَّغيرة جلسَت صامتةً في حِضنِ أُمِّها، وعيناها الصَّغيرتان مُثبَّتتان على وجه كلارك.

ولمَّا ابتدأت العِظة، صلَّت مارتي: "أيُّها الإله الكريم، اجعَلِ العِظةَ

مُميَّزة. واجعلْ هذا وقتًا لإطعام نفوسنا". ولكنَّ الواعِظَ المُحترَم لم يكُن قد تقدَّمَ كثيرًا في رسالته قبلَما أدركت أنَّ أمَلَها سيَخيب مرَّةً جديدة. فانكفأت لِتَسمعَ باقيَ العِظة، بانتِباهٍ على الأقلّ، إن لم يكُن بِفَهم.

لا بُدَّ أنَّ المُحترَم أحسَّ أنَّ العِظة في هذه المُناسَبة الرائعة يجب أن تكون مُميَّزة، ومن ثَمَّ أعدَّ عِظةً مُتطاوِلةً جدًّا.

كان الأولادُ قد بدأوا يَتَململون، ولم تتمالك مارتي نفسَها عن أن تشعُر أنَّ بعضَ الآباء رُبَّما شعروا بشيءٍ من الحَسَد حِيالَ الأُمَّهات اللواتي كان علَيهنَّ أن يصحبنَهُم إلى غُرفة البُكاء الجديدة.

أخيرًا انتهَتِ العِظة، ووقفَ الحضورُ لأجل التَّرنيمة الخِتاميَّة. ثُمَّ خرج الجميعُ من المبنى أفواجًا: الرِّجالُ ليجتمِعوا في حلقاتٍ صغيرة، والأولاد لِيُمدِّدوا عضَلاتِهم المُتَشنِّجة من عدَم استعمالها وقتًا مُتطاوِلًا، والنِّساءُ لِيُرتِّبنَ مائدةَ الغداء.

على الرُّغم من الخِدمة الطَّويلة والطَّقس غيرِ المُستحَبّ، تبيَّنَ أخيرًا أنَّ ذاك كان وقتًا بهيجًا جدًّا قُضِيَ معًا. وكما يجري حقًّا بين الأصدقاء، حصَلَ مُزاحٌ ودِّيٌّ مُتكرِّر، ومُرِّرَ الأطفال فَلَقُوا إعجابًا لافتًا، وجرى تبادُلُ الأخبار من البَلدة والجِوار. لقد كان يومًا طيِّبًا!

وصلَت رِسالةٌ قصيرة من تومي. وكانت هذه هي المرَّةَ الثَّالثة التي فيها يسمَعُ آلُ ديفِس خبَرًا منه. ومع كلِّ رِسالة، همَسَت مارتي بصلاة

شُكرٍ من أجلِ كونهِ ما يزالُ سالمًا. وقد أفادَتهم هذه الرِّسالةُ أنَّه كان يُبلي حسَنًا. كما أنَّه نوى أن يبقى حيثُ كان في الشِّتاء، مُشتغِلًا في منشرة خشَب؛ وفكَّر في أن يتوغَّلَ شرقًا بَعدُ عندما يجيءُ الرَّبيع، ورُبَّما يَصِلُ إلى السَّاحل أيضًا. فهو لم يكُن قد ألقى نظرةً على المُحيط بعد. كذلك بلَّغَ أهلَه محبَّته.

لم يكُن على الظَّرف عُنوانٌ للمُرسِل. حتَّى الطَّابعُ البريديُّ كان غيرَ واضِح. ومن ثَمَّ لم يتوافرْ أيُّ مؤشِّرٍ إلى مكانِ وجوده. وكانت مارتي قد تمنَّت لو تردُّ عليه كِتابةً، مُعلِمةً إيَّاه أنَّهم يرجون له الخير ويأمُلون أن يرجِعَ عاجلًا إلى الدِّيار.

قرأت مارتي الرِّسالةَ بصوتٍ عالٍ عند تناوُلِ الطَّعام، وعائلتُها حولَ المائدة. كان كلارك قد قرأها في السَّابق أصلًا، ولكنْ كان في وسع مارتي أن تؤكِّدَ أنَّه كان يُصغي بانتباه فيما قرأتْها ثانيةً. واستطاعت أن ترى ارتياحَه واهتمامَه بأمر الشَّاب في سيماءِ وجهِه.

كانت الشُّهور الطَّويلة منذُ مُغادرة توم قد محَت من قلب مِسي الغَضِّ كثيرًا من الحُزن. والآنَ بدَت مُفكِّرةً أقلَّ في الشَّابِّ الذي رحَلَ من حياتها فجأةً، ذاك الذي كانت في أحلامِ صِباها قد أخذت على نفسها عهدًا بأن تتزوَّجه.

نظرَت مارتي باهتمامٍ حولَ المائدة إلى كُلٍّ من أفراد العائلة. فِعلًا، لقد تغيَّروا كلُّهم في أثناء المُدَّة التي تَلَت رحيلَ توم. وافترضت أنَّه هو

أيضًا قد تغيَّر.

كانت نانْدري- وقد باتَتِ الآنَ آنِسةً لافِتة- ما تزالُ هادئةً، وإن كانت مُجتهِدةً دائمًا. وقد تخلَّت مارتي أخيرًا عن مُحاوَلاتها للتَّقرُّب من الفتاة المُتَحفِّظة، وقبِلَتها كما كانت. ثُمَّ خطَرَ في بالها هذا الفِكرُ: **تبارَكَ قلبُها! على طريقتها الخاصَّة احتلَّت مكانَها المُناسِب داخِلَ عائلتنا.** ومسَّت شفتَيها ابتِسامةٌ ضئيلة إذ علَّقَت في سرِّها: **لقدِ استحقَّت عناءَ إبقائها عندَنا وتلك الدُّولارات العشَرة مِرارًا وتكرارًا!**

لقد علِمَت مارتي جيِّدًا أنَّ نانْدري ستدخُلُ قريبًا على الأرجح مرحلةَ البُلوغ وبيتَها الخاصَّ. وعلى الأقلِّ اثنان من شُبَّانِ الجِوار كانا عاكِفَين على التَّفكيرِ في الفتاة، كما لاحظَت مارتي. وقد لاحظَت أيضًا خدَّي نانْدري يتورَّدان وبريقًا استِثنائيًّا يتلألأُ في عينَيها حِيالَ نَظَرات الشَّابَّين.

وكلاي أيضًا أصبحَت آنِسةً لافتة تقريبًا. كانت تقتربُ إلى إكمال تَعلُّمها في المدرسة ذاتِ الغُرفة الواحدة، ولكنَّها ما وصلَت قطُّ إلى أيِّ مكانٍ بقُربِ نِهايةِ عطَشِها إلى المعرِفة. وقدِ استلقى كلارك ومارتي في السَّرير ليالِيَ يتناقَشانِ بهدوءٍ في مُستقبلها. كان تَوقُها المُتَّقد أن تصيرَ مُعلِّمة، ورأى كلارك أنَّه ينبغي أن تُتاحَ لها الفُرصةُ، حتَّى لو عنى ذلك إنفاقَ كثيرٍ من الدُّولارات. فسَيكونُ عليها أن ترحَلَ بعيدًا لإكمال تَعلُّمِها والحصول على شهادتها التَّعليميَّة. وبقَدْر ما تاقت مارتي إلى سعادة كلاي، روَّعَتها فِكرةُ مُغادرتها لهم.

كانت مِسي في الحاديةَ عشرةَ الآن، وما زالت حُزمةً من الطَّاقة،

كانت ذاتَ لحظةٍ فتاةً صغيرة وباتت في اللحظة التَّالية تتقدَّم نحو الأُنوثةِ البالغة. لقد أحبَّتِ المدرسة، بل إنَّها في الواقع رحَّبت بكُلِّ مُغامرة جديدة، سواءٌ في البيت أم في المزرعة أم في غُرفةِ الدَّرس. إلَّا أنَّها كانت ما تزالُ لا تحبُّ وِلِي لاهاي، كما صرَّحَت بينَ حينٍ وآخر.

أمَّا اكْلار، في التَّاسِعة، فكانَ صبيًّا ذكيًّا ما زالَ يُفضِّلُ العمَل على التَّعلُّم، رُغمَ عدَمِ وجودِ أيِّ عَيبٍ في قُدرته في كِلا المجالَين. وكان ما يزالُ يُقلِّد كلارك ويُراقِب بانتِباه لِيَرى كيف يتولَّى باباهُ مُواجهةَ الأوضاع.

استرسلَت مارتي في تأمُّلاتها: **ها قد مضَى أكثَرُ من تسعِ سنينَ إذًا، منذُ أن أنقذني كلارك بجانب عرَبة خَرِبة وقَبرٍ محفورٍ حديثًا...**غير أنَّها لم تتوقَّفْ طويلًا عندَ تلك الذِّكريات. واستطاعت أن تُحِسَّ عينَي كلارك تُراقِبانها، فالتفتَت لتنظُرَ إليه وتُبادِلَه ابتسامةً فوقَ الطَّاولة. إلَّا أنَّه قالَ بإصرار دائمًا: "إن كان مِن إنقاذٍ ينبغي القِيامُ به، فمِسي وأنا كُنَّا بحاجةٍ إليه!"

آنذاك دارت مارتي بسُرعة إلى الوراء لانتِزاع فِنجانِ حليبِ آرني عن حافةِ الكارثة. ففي السَّادسة من العُمر تقريبًا، كان آرني صبيَّ العائلةِ الصَّغيرَ المُنبَسِطَ والمشغولَ جدًّا، وبدا أنَّ خُدوشًا من كلِّ نوعٍ لحِقَت به هنا وهناك. وكانَ سيُسمَحُ له بارتِياد المدرسة هذا الخريف، الأمرُ

الذي ترقَّبَته مارتي بمشاعِرَ مُشوَّشة.

أمَّا ألِّي، ابنةُ الثَّلاث، فكانت حُزمةً صغيرة من البهجة في حياة كلِّ شخص. وفي غايةِ السَّعادة واللَّهو، كانت تندفعُ بينَهم كالسَّهم، أشبهَ بفَراشةٍ صغيرة، مُغنِيةً حياةَ كُلِّ مَن تمَسُّه.

في مهد العائلة، استقرَّ لُوك، الطِّفلُ الجديد. وأكثرَ من مرَّةٍ واحدة، شكَرَت مارتي الله بإخلاص على مُساعدة نانْدري لها منذُ مجيء لُوك الصَّغير، لأنَّ هذا الطِّفل- خِلافًا لأطفالها الآخرين- كان سريعَ الاهتياجِ ومُتطلِّبًا الاهتمامَ تمامًا حين تكونُ الأُمُّ في أوْجِ شُغلِها. وقد بذَلَت نانْدري قُصارى جَهدِها لتهدئة الطِّفل المشاكس.

إذ نظرَت مارتي مرَّةً أُخرى حولَ الطَّاولة، فكَّرَت: **عائلتي، عائلتي الغريبةُ الرَّائعة!**ولئلَّا تدمَعَ عيناها من التَّأثُّر عاطفيًّا لمجرَّد التَّفكير في كلِّ فرد، ساقت أفكارها رجوعًا إلى صعيدٍ أسلم واستأنفت تقديمَ وجبة الطَّعام.

قال كلارك بينَ لُقمَةٍ وأُخرى: "رأيتُ كام اليوم".

"رأيتَه؟"

"نعم، وكانَ رَت معه. هل تعلمين أنَّ ذلك الصَّبيَّ باتَ قادرًا على الاهتمام بحِصانَي عرَبة؟ كان ينبغي أن ترَي كام. إنَّه فخورٌ مِثلَ عنتر. ويقول إنَّ رَت سوف يصير أفضلَ سائسِ خَيلٍ في المِنطقة. وقد يصيرُ كذلك فِعلًا. يبدو أنه يتصرَّفُ بطريقة طبيعيَّة مع الحيوانات".

فأبدَت مارتي تعجُّبَها حِيالَ الخبَر الطَّيِّب: "أليس ذلك أمرًا جيِّدًا؟"

”يقولُ كام إنَّه لن يُفاجأ أبدًا أن يرى الفتى يصحَبُه يومًا لترويضِ دُبٍّ أيضًا. هو لا يقول كلمةً واحدة البتَّة، ولكنْ يبدو أنَّه يجعل الحيواناتِ تفهَمُ منه“.

”ويقول السَّيِّد كاسيدي في المتجر إنَّ كام لا يأتي إلى المدينة أبدًا دون أن يصطحب رَت إمَّا بجانبه على مقعد العرَبة، وإمَّا قُدَّامَه على السَّرْج“.

وبدا كلارك مُستغرقًا في التَّفكير لحظةً، ثُمَّ قال: ”أمرٌ غريب! لقد تغيَّر كام. لمَّا شاهدتُه يتنقَّل في أنحاء المدينة مع ابنه، لاحظتُ لدَيه عُمقَ تفكيرٍ ومُراعاةً لأحوال الآخرين. فهو لا يُفكِّر فقط في كام مارشال بَعد. وأعتقِدُ أنَّ آخرِينَ لاحظوا ذلك أيضًا. ويبدو أنَّ لدَيهم احترِامًا جديدًا له بطريقةٍ ما. وإذ شاهدتُه يُغادِرُ المدينة وذلك الصَّبيُّ هُناك فَوقُ بجانبه مُمسِكًا بالزِّمام، فكَّرتُ: «هُوَذا رجُلٌ حقيقيّ!»“

أومأت مارتي برأسها إيجابًا، وقد غامت عيناها قليلًا، ولكنَّ أفكارها كانت في مُعظَمها تدورُ حول وَنْدا والسَّعادة التي لا بُدَّ أن تغمُرَها من أجل إعطائها كام ابنًا يستطيعُ أن يُحِبَّه ويصطحِبَه بفخرٍ إلى المدينة على الرُّغم من صعوباته.

ثُمَّ سألَت: ”هل صدَفَ أن رأيتَ السَّيِّد مكدونَلد لمَّا كنتَ في المدينة؟“ كانت السَّيِّدة مكدونلد قد تُوفِّيَت قبلَ سنتَين، إذ لم تصِحَّ قطُّ من سكتَتِها الدِّماغية. وكان السيِّد مكدونلد قد قرَّرَ بعدَ جنازتها أن

يبيع المتجرَ للسيِّد كاسيدي ويرجِعَ إلى الشَّرق، ولكنَّ الزَّمَنَ ردَّه رجوعًا إلى المنطقة.

"نعم، رأيتُه قاعدًا على البنك أمام المتجر مع العجوز توم وجايك فَيدلَر. لم أُكلِّمه كثيرًا فوقَ التَّحيَّةِ والتَّسليم عرَضًا".

"كيف بدا لك؟"

"جيِّدًا إلى حدٍّ بعيد. أعتقِدُ أنَّه مسرورٌ حقًّا برجوعه. لم يشعُر حقًّا بأنَّه في دِياره هُناك". ومضى كلارك فشرَحَ أنَّ السَّيِّد مكدونلد قدِ استأجرَ غُرفةَ في نُزُل السَّيِّدة كَلَر، وأنَّه الآن يقضي أيَّامه مُدَردِشًا، ومهمومًا ومغمومًا، وباصقًا عُصارةَ التَّبغ في الخارج أمام مَتجرِه القديم. ولم يبدُ أنَّ السَّيِّد كاسيدي يُمانِع، مع أنَّ السَّيِّدة كاسيدي ربَّما باتت مُتعَبةً من تنظيف الدَّرَج.

سرَحَت أفكارُ مارتي حينًا، فتساءلت عمَّا سيكونُ عليه حالُ رجوعِها إلى الشَّرق بعدَ غِيابها هذه المُدَّةَ الطَّويلة. كان أبوها الآن قد تُوفِّيَ، وأُمُّها تعيشُ وحدَها. وقد ظلَّت مارتي على اتِّصالٍ بها، مع أنَّ توزيعَ البَريد عنى أنَّ الرَّسائل التي تبادَلتاها كانت مُتباعِدةً أحيانًا. وحاولت مارتي فعلًا أن تُبقيَ أُمَّها على عِلمٍ بأمرِ كلِّ حفيد جديد، وأن تبعثَ بتحيَّاتها وتهنئتها في موسِم الأعياد.

لا! لقد كانت على يقين بأنَّها هي أيضًا لن تشعُرَ بَعدُ بأنَّها في ديارها إذا رجعَت إلى الشَّرق.

وبرِفْق، لكن بحزْم، أزاحت أصابِعَ آرني بعيدًا عن الزُّبدة، ثُمَّ أعطَته خُبزةً مدهونةً بالزُّبدة. لقد أتَتِ السِّنونَ بتغييراتٍ كثيرةٍ جدًّا...مُعظَمُها جيِّدة، كما قرَّرَت.

كان جوش كُفِنز أوَّلَ مَن أبدى نِيَّاتٍ جِدِّيَّةً تُجاهَ نانْدري. وقد علِمَت مارتي أنَّ ذلك كان لا بُدَّ أن يجيء، فرحَّبَت بالأمر ويئسَت بسبَبه في الوقت نفسه. كانت تعلم أنَّ نانْدري تاقت إلى بيتٍ وأُسرةٍ يخُصَّانها، غيرَ أنَّ آلَ ديڤِس سيَشهدون نقصًا شديدًا في العائلة من دون نانْدري. وقد جرَت أحاديثُ طويلةٌ عن هذه الأنواع من التَّغيير في العائلات وكيف تُركِّزُ المرأةُ قلبَها وعقلها على الخير.

تقدَّم جوش من كلارك بعدَ الكنيسة ذاتَ يومِ أحَد لِيَطلُبَ إذنًا بزيارة العائلة.

فقالَ كلارك، مُرَبِّتًا كتِفَ الشَّابّ: "بكُلِّ تأكيد، جوش. سيُسعِدُني جدًّا أن تُعرِّجَ علينا كي تراني. أحسَبُ أنَّ في وسعنا أن نُجريَ حديثًا هادئًا، رُبَّما خارجًا في الحظيرة، حيثُ لا يُقاطِعُنا الصِّغارُ والنِّساء". وقدِ استمتعَ كلارك بِمُغايَظتهِ فِعلًا.

احمرَّ وجهُ جوش وتلعثم إذ حاول أن يُفسِّر أنَّ ذلك لم يكُن بالحقيقة ما جالَ في خاطِره. فضحِكَ كلارك وربَّت ظهرَ جوش مرَّةً أُخرى بَعد، وأدرك جوش أنَّ الدُّعابةَ انطَلَت عليه.

ضحِكَ جوش حِيالَ المزحة التي دارَت عليه، وبدا أنَّه شعَرَ شعورًا حسَنًا لكون هذا الرَّجُل المحترَم في الحيِّ قد رضيَ بأن يتمهَّلَ كي يُمازِحَه.

ثُمَّ قال كلارك بطريقةٍ أكثرَ جِدِّيَّةً: "أهلًا وسهلًا، وأنا أعِدُ بألَّا أحتجِزَك في الحظيرة".

فابتسم جوش ابتسامةً عريضة وبَربَرَ بِتَشكُّراته، ثُمَّ مشى مُبتعِدًا. وتريَّثَت مارتي على مقربة، مُراقِبةً اختلاسًا اقترابَهُ من نانْدري. فقد صعِدَ إليها وهي جالسةٌ على درَج الكنيسة، وحولَها عددٌ من الصِّغار. وكان الطِّفلُ لُوك في حِضنها، مُشيرًا إلى الأحصِنة والعرَبات بسؤاله المُعتاد: "ما ذاك؟"

اتَّكأ جوش على الدَّرابزون، فرفعَت نانْدري نظَرَها، وامتُقِعَ وجهُها.

استطاعت مارتي أن تسمَعه يقول: "تحدَّثتُ إلى كلارك". كان من عادته أن يقولَ "السَّيِّد كلارك" دائمًا قبلَ الآن، ولكنَّ السَّبيلَ قد مُهِّدَ لأجلِ عَلاقةٍ جديدة.

واتَّسعَت عينا نانْدري حِيالَ كلماته.

"يقول إنَّه لا بأسَ عندَه بأن آتيَ لزيارتكم".

فازدادَ امتِقاعُ وَجهِ نانْدري بَعد، ولكنَّها لم تقُل أيَّ شيء.

"هَلِ الأمرُ حسَنٌ في نظَرِكِ؟" ها هو السُّؤالُ قد خرَجَ واضحًا. فالآنَ باتت الكُرَةُ في يد نانْدري. ولم يكُن مِن سبيلٍ يُتِيحُ لها أن تتظاهر

بأنَّها لم تفهم ما يعنيه. فتورَّدَت باحمِرارٍ شديد، وتأمَّلَتِ الطِّفلَ في حِضنها. وانقضَتِ الدَّقائق بطيئةً. ولا شكَّ أنَّ ذلك بدا لِجُوش دهرًا، فيما وقف ينتظر وقلبُه يخفُقُ بقُوَّة، ويداه تتعرَّقان. يقينًا أنَّ مارتي لم تتقصَّد أن تسترِقَ السَّمْع، ولكنْ لم يكُن في وسعها الآن أن تتحرَّكَ مُبتعِدةً دونَ أن تلفِتَ الانتِباهَ إلَيها. فحبَسَت نفَسَها. ماذا ستقولُ نانْدري؟

أخيرًا، جاء الجوابُ الرَّقيق: "يُخيَّلُ إليَّ!" وانفرجَت أسارير جوش بابتسامةٍ عريضة.

وبدا هادئًا على نحوٍ مُفاجئ إذ قال لنانْدري: "شُكرًا. شُكرًا. يومَ الأربعاء المُقبِل إذًا. سأكونُ مُتشوِّقًا إلى اللِّقاء". ثُمَّ مضى، كابحًا على وجه الاحتمال دافعًا إلى الرَّكض والقفز فوق المِضخَّة القريبة.

أخفَت نانْدري وجهَها المُتورِّدَ وراءَ لُوك الصَّغير. وفي وقتٍ لاحِق من ذلك النَّهار كانت صريحةً على نحوٍ مُفاجئ مع مارتي، فقالت إنَّها كانت ترجو أن يتقدَّمَ جوش. لقد لاحظَت وِلِس أيتكِنز ينظرُ إليها أيضًا، ولكنَّها حبَّذَت جوش حقًّا.

وبصَوتٍ ناضِح بالتَّعجُّب، أشارَت قائلةً لمارتي: "إنَّه لا ينتظِرُ حتَّى يومَ السَّبت". فعادةً، حينَ يبدأ الشُّبَّانُ بالتَّودُّد إلى الصَّبايا، كانوا يقومون بالزِّيارات مساءَ يوم السَّبت. إنَّما الجادُّون كثيرًا وحدَهم كانوا يزورون يومَي الأربعاء والسَّبت كِلَيهما.

كانت نانْدري تُراقِبُ وجهَ مارتي بكُلِّ انتِباه، وعيناها تترجَّيان مُوافقةَ مارتي.

فطوَّقَت مارتي الصَّبيَّة الصَّغيرة بِذراعَيها، مُلاحِظةً بِوَخزة ألَم أنَّهما باتتا الآنَ مُتساوِيتَين في طُول القامة، وقالت: "آهِ نانْدري! أنا مسرورةٌ من أجلكِ، وأنا حزينةٌ لأجلي".

بادلَتها نانْدري العِناقَ بدفءٍ أصيل، ثُمَّ انكفأت بِسُرعة مُرتبِكةً لِتُرجِّحَ لوك الصَّغيرَ على ذِراعَيها، وتضُمَّه بكُلِّ شِدَّة حتى تلوَّى مُتضايقًا اعتِراضًا.

"أُوه لُوكي!"- وقد علِمَت مارتي أنَّ نانْدري كانت تُناديهِ هكذا فقط حين تشعُرُ بالحنان على نحوٍ خاصّ- "كيف يمكن أن يشعُرَ الإنسانُ بمُنتهى السَّعادة والحُزن والحماسة والفزَع كُلِّها في آنٍ معًا؟"

لم يفهم لُوك السُّؤال، ولكنَّه مدَّ يدَه الصَّغيرة كي يلمِسَ الدَّمعةَ التي استقرَّت مُتلألئةً على خدِّها.

٢٤

عيد الميلاد

فيما قامت مارتي بالتَّحضيرات لأجلِ عيد الميلاد الآتي، شعرَت بأنَّ هذا سوف يكون احتفالًا مُميَّزًا جدًّا. ومع أنَّها ثمَّنت كثيرًا هذا الوقتَ من السَّنة، لم تشعُر قطُّ مِن قَبلُ بمِثل هذا التَّرقُّب.

انطلَقَ الطِّفلُ لُوك، وهو ولَدٌ سعيد، راكضًا هُنا وهُناك، وقد شبَّ عنِ اهتياجهِ المحموم الباكر. وكانت ألِّي ما تزال فَراشَتَهُم الزَّاهية، إلَّا أنَّ أجزاءً يسيرةً من طاقتها غيرِ المحدودة قُنِّيَت الآنَ في أنشِطة مُنتِجة ومُفيدة. أمَّا آرني واكْلار ومِسي فسَيتمتَّعون بالعُطلة المدرسيَّة، وقد أعدُّوا فعلًا خُطَطًا للتَّزحلُق على سِطحِ النَّهر المُتجمِّد والتَّمَزلُج نزولًا على ضِفافه. ولكنَّ أهمَّ عُنصُرٍ يُزادُ على البهجة البالغة سيكون وجود كلاي في البيت...كلاي مُعلِّمَتهمِ الشَّابَّة الجاري إعدادُها. ولم تكَد مارتي تُطيقُ الانتِظار حتَّى تصِلَ كلاي، كما كان في وسعِها أيضًا أن تؤكِّد أنَّ نانْدري كانت تترقَّبُ رؤيةَ أُختِها من جديد.

كانت رسائلُ كلاي من دار المُعلِّمين الابتدائيَّة حافلةً بالتَّحمُّس لِما كانت تتعلَّمُه، ومَن كانت تُقابِل، غيرَ أنَّ أهمَّ أمرٍ كان كم هي مُشتاقةٌ

إليهم جميعًا.

اهتمَّت مارتي كثيرًا بجميع أطباق كلاي المُفضَّلة، وعُنِيَت بأن تُهيِّئ نانْدري غُرفتَهما المُشترَكة، وشجَّعَت الأولادَ الأصغر سنًّا على الشُّعور بالبهجة التي شعرَت هي بها تمامًا. ولَسوف يكونُ أيضًا وجهٌ جديد إلى مائدةِ الميلاد عندَهم. إذ إنَّ جوش كُفِنز، خطيبَ نانْدري، سينضمُّ إليهم. وقد شاركت مارتي في فرحة الشَّابَّين، فضلًا عن فزَعِها حِيالَ فِكرة خَسارَتِها عزيزتَها نانْدري.

خُطِّطَ لِعُرسٍ في الرَّبيع، وحالَما تنقضي خَفقةُ الميلاد، ستَنكبُّ مارتي ونانْدري على العمَل الجِدِّيِّ في تحضيرِ جِهاز العروس.

بدَت نانْدري سعيدةً جدًّا، ودأبَت مارتي بِضعةَ أشهُرٍ في إعطائها المالَ المربوحَ من بيع البيض، كي يتوافر لها مَبلغٌ تشتري به الزَّوائدَ اليسيرةَ لأجل بيتِها الخاصِّ الأوَّل.

ولكنْ كان ينبغي لمارتي أوَّلًا أن تحتفِلَ بعيد الميلاد.

وقدِ انتقى كلارك الشَّجرةَ وبعضَ الأغصانِ الدَّائمةِ الخُضرة التي ستُشكِّلُ أكاليلَهُم الميلاديَّةَ التَّقليديَّة.

كانت نانْدري قد أضافَت سِتَّةَ ديوكٍ روميَّة إلى أقفاص تربية الدَّجاج عنَدها، وهكذا فإنَّ واحدًا منها سوف يَزينُ المائدة. وقدِ اختارت ديكًا جيِّدًا فَتيًّا، فباتَ يحظى بمزيدٍ من العناية والرِّعاية اليوميَّتين.

وغطَّتِ الرُّفوفَ في حُجرة الأطعِمة الباردة فطائرُ مُحَلَّاةٌ وتُرتات

وكُعَيكات وأطباقٌ مخبوزة.

ذهبَت مارتي إلى المدينة للتَّبضُّع، ووُضِعَت الهدايا ملفوفةً بقُرب خزانة أدراجها، ومخبوءةً تحتَ سريرها، لمَلءِ الجوارب التي تُعلَّقُ فوقَ رَفِّ المَوقِد لأجل صباح الميلاد.

وفي اليوم الذي كانت كلاي ستَصِلُ فيه، كانت نانْدري ومارتي كِلتاهُما تقريبًا أكثرَ تأثُّرًا وتحمُّسًا من أن تشتغِلا. أخيرًا قرَّرَت مارتي أنَّها مسرورة لوجودِ أُمورٍ كثيرة تقومُ بها لِتُيسِّر مرورَ الوقت بطريقةٍ أسرع. ومع ذلك بدا أنَّ ساعةَ الحائط لن تُقارِبَ السَّاعةَ الرَّابعةَ أبدًا، حينَ كان من المُتوقَّع أن يصل كلارك والحِصانان رجوعًا من محطَّة القِطار.

أخيرًا، سمِعَت مارتي نُباحَ بوب العجوزِ الحادَّ وهُتافاتِ الفرَح من أفواه الأولاد.

ثمَّ اندفعَت مِسي إلى داخل البيت، وقالت مُغايِظةً: "احزُروا مَن وجدْنا؟"

وما لبِثَ أن دخَلَ الجميعُ بسُرعة، وكلارك حامِلٌ حقيبةَ كلاي وكِيسًا كبيرًا.

فشَدَّت مارتي الفتاةَ وطوَّقَتها بذِراعَيها.

"أُوه، كلاي، انظُري هيئتَكِ! عجَبًا، لقد رحلتِ ثُمَّ كبُرتِ تمامًا في أثناءِ غِيابكِ عنَّا".

بادلَتها كلاي العِناق، ضاحِكةً إذ أشارت إلى أنَّ ثلاثةَ أشهُرٍ فقط

قد مضت. ثُمَّ أردفَت: "ولكنْ ما أحسنَ الرُّجوعَ إلى الدِّيار! لم أكَد أُطيقُ الانتِظار".

وانتقلَت كلاي من مارتي إلى أُختها، ثُمَّ إلى ألِّي ولُوك، مُعانِقةً كُلًا بِدَورِهِ ومُبديةً تعجُّبَها من كيفيَّة نُموِّ الصِّغار جميعًا. وتورَّدَ خدَّا نانْدري لدى مُغايَظةِ كلاي لها بشأنِ حبيبها جوش، غير أنَّ نانْدري بدَت مسرورة.

وإذ حطَّ كلارك الحقيبةَ والصُّرَّة، قالَ فوقَ الجَلَبة البهيجة: "تخميني أنَّنا نحتاجُ إلى منزِلٍ أكبَر".

فما كان من مارتي إلَّا الابتِسام. لقد علِمَت أنَّهم لم يكادوا يُطيقونَ ضِيقَ المكانِ أحيانًا. وكان عليها مرَّةً أُخرى بَعدُ أن تحتمِلَ وجودَ مَهدٍ في غُرفة نومها، وقلَّما أُتيحَ لِلفتَياتِ الثَّلاثِ اللَّواتي تشارَكنَ في غُرفةٍ واحدة مُتَّسَعٌ للدَّوران.

كانوا مُتَراصِّينَ على نحوٍ غيرِ مُريح، ولكنَّهُم كانوا مسرورين. ولم تتضاءلِ المُحادَثةُ الشَّيِّقة مع انقِضاءِ المساء بِبُطء. فقد كان لدى كلاي أُمورٌ كثيرة جدًّا تحكيها وتَصِفُها. وكان عندَ الآخرين أسئلةٌ كثيرةٌ جدًّا يطرحونها.

وبعدما وُضِعَ الصِّغارُ في أسِرَّتِهِم لينامُوا، موعودينَ بجَوارِبَ ميلاديَّةٍ ملآنة في الصَّباح، بَقِيَت مارتي ونانْدري وكلاي يتحدَّثن، وكلارك على مقربة منهنَّ يُضيفُ تعليقًا أو سؤالًا عندَ الاقتِضاء.

سألت كلاي نانْدري: "متى يومُ عُرسِكِ؟" ولاحظَت مارتي كلامَ كلاي الدَّقيق.

"في آخِرِ أيَّار. أردنا أن ننتظِرَ حتَّى ترجِعي إلى الدِّيار. تعلمينَ أنَّكِ سوف تكونين إشبينتي الرئيسيَّة.

"تمنَّيتُ ذلك. أين تنويانِ أن تسكُنا؟"

"في مزرعة آلِ كُفِنز كُوخٌ صغير، كان أصحابُ المزرعة السَّابقون يسكنون فيه. ثُمَّ بنى آلُ كُفِنز بيتًا أكبر لمَّا جاءوا. ونحن سوف نسكُن في الكوخ الصَّغير".

"لا بُدَّ أن تكوني مُتحمِّسة".

فقالت نانْدري- وأكَّدَت ابتسامتُها الأمر- "أنا كذلك. إنَّه شُعورٌ غريب. أُريدُ كثيرًا أن يمُرَّ الوقتُ بسُرعة، ومع ذلك لا أُريدُ في الوقت عينِه".

"والمعنى؟" نسِيَت كلاي نفسَها تلك اللَّحظة، مُستخدِمةً التَّعبيرَ المألوف.

"هذا البيت...الصِّغار...أكرَهُ حقًّا أن أترُكَ الأولاد".

تعجَّبت مارتي من التَّلميحات الأكثرِ تكرارًا، تلك التي ما بَرِحوا يتلقَّونها بشأنِ قلبِ نانْدري.

وقالت كلاي: "لن تكوني بعيدةً فوقَ الحدّ". ثُمَّ هزَّت رأسَها وتنهَّدَت. "لن يعرِفَ أحدٌ أبدًا كم كنتُ مُشتاقةً إلى الدِّيار أوَّلَ الأمر.

خُيِّلَ إليَّ أنَّني سأموت إذا لم أرجِع. وخُيِّلَ إليَّ أنَّني لن أنجحَ في الاستمرار، غيرَ أنَّني نجحت. فقد ذكَّرتُ نفسي بالمال المدفوع لقاءَ تَعلُّمي...وبالثِّقة التي كانت للآخرين بي...و...وتذكَّرتُ مامانا أيضًا، يا نانْدري. وأحيانًا، أُفكِّر في ماما وكم كانت ستَفخَرُ بنا، وكم ستكونُ مسرورةً بحصولنا على فُرصةٍ مؤاتية".

نعم، كانت مارتي على يقين بأنَّ السَّيِّدة لارسون لا بُدَّ أن تكونَ فَخورًا بِابنتَيها.

ومضَت كلاي تقول: "لا بُدَّ أن تكون مسرورةً من أجلِنا كِلتَينا...من أجلي لكوني مُعلِّمة، ومن أجلك لِتَزوُّجِكِ جوش. إن تَذكُّرَنا ماما يُضفي على ذلك معنًى جديدًا تقريبًا".

كانت تلك أوَّل مرَّة على الإطلاق فيها تحدَّثت الفتاتانِ عن أُمِّهما بحضور مارتي.

فتكلَّمَت مارتي برِقَّة: "لا بُدَّ أن تكونَ ماماكُما فَخورًا جدًّا. لقد أرادت بشِدَّة أن تُبلِيا حسنًا كِلتاكُما، وأنتُما قد أحسنتما كِلتاكُما، وأنا فَخورٌ أيضًا".

طوَّقت كلاي عُنقَ مارتي بذِراعَيها وضمَّتها ضمَّةً مُفعَمة بِالحَنان.

ثُمَّ قالت: "ونحنُ نعرِفُ السَّبب. رُبَّما لم نقُلِ الكثير- ليس بقَدْرِ ما كان ينبغي لنا- ولكنَّنا نعرِفُ السَّببَ الذي من أجلِهِ أبلَينا حسَنًا. شُكرًا لكِ...شُكرًا جزيلًا لكِ. إنَّني أُحِبُّكِ فعلًا، وأنا لن أنسى أبدًا...أبدًا".

وأومأت نانْدري برأسها مُوافَقةً، وسيماؤها قائلةٌ أكثرَ مِمَّا تقولُه الكَلِمات.

∞

استَيقظَ أهلُ البيت باكرًا على هُتافاتِ الابتهاج من آرني. وسرعانَ ما انضمَّ إلى صَوتِهِ صَوتُ اكْلار، ثُمَّ تلَتِ الجَلَبةُ الشَّاملة. فسحبَت مارتي نفسَها إلى خارج السَّرير، وانزلقَت داخِلَ جَورَبَيها ورُوبِها البيتيَّة. وكان كلارك واقفًا على قدمَيه أصْلًا، يدُسُّ قميصَهُ داخِلَ بَنطَلونِه. وقد دخَلا حُجرةَ الجلوس تمامًا حينَ دخلَت نانْدري حاملةً لُوك، وهو لم يكَد يَستيقِظ. ورقصَت ألِّي في أنحاءِ الحُجرة مُلَوِّحةً بذِراعَيها، مفتونةً للغاية بجَورَبَيها المُنتَفِخَين بحيثُ لم تفطَنْ إلى تَفحُّص ما قد يحتوي جَورَبُها عليه.

نفَّضَ لُوك سريعًا النَّومَ من عينَيه، ووقفَ جامدًا يُحدِّقُ إلى الشَّجَرة في الزَّاوية بعدَما طلَعَت من مكانٍ ما في أثناءِ اللَّيل.

أخيرًا برَزَت مِسي، زاعِقةً ومُتشكِّيةً من الضَّجَّة.

وقالت غيرَ مُصَدِّقة: "لم تأتِ حتَّى السَّاعةُ الخامسة بعد. كُنتُما تجعلانِني أنتظِرُ وقتًا أطولَ كثيرًا من هذا لمَّا كنتُ صغيرة!"

فردَّ كلارك: "كانوا سينتظِرون هُم أيضًا، لو كان لي يَدٌ في الأمر!" ولكنَّ مارتي لاحظت أنَّه بدا مُستمتِعًا بكامل الضَّجيج البهيج.

أخيرًا أُشعِلَت النَّارُ في موقد المطبخ ووُضِعَت فوقَها الركوة حتَّى

تَغلي. وزوَّدَ كلارك بيتَ النَّار بِوَقود جديد وأضرمَ ألسِنةَ اللَّهَب. ثُمَّ سادَ الهدوءُ من جديد في منزِل آل ديفِس.

استغلَّ الأكبرُ سنًّا الهدوءَ التَّقريبيَّ ليتبادلوا هداياهم. وكانت كلاي قد دبَّرت بطريقةٍ ما إحضارَ هديَّة صغيرة لكُلٍّ منهم. وقد علِمَت مارتي أنَّ كلاي لم تملك كثيرًا من مال الصَّرف الإضافيّ، فقدَّرت هديَّتها أكثرَ من أجل ذلك. وما افتقرَت إليه كلاي نقْدًا دبَّرته بإبداعها، وقد بلغَت مهارتُها في الخِياطة مُستوًى مرموقًا. فعانَقَ لُوك دَبدوبًا مَحشوًّا. ولبِسَت ألِّي مئزرًا ضئيلًا مُكمَّلًا بِجَيب. ورمَقَ آرني واكْلار مَحرمتَيهِما الملوَّنَتين المُلائمتَين للرِّجال، مسرورَينِ بكون المُربَّعاتِ مُضاهيةً مُربَّعاتِ مَحرمةِ أبيهما. ونالت مِسي قُبَّعةً ذاتَ حَواشٍ مُخرَّمة. وفتحَت نانْدري بَيتي وسائدَ مُطرَّزَين بدِقَّة لأجل "صندوق الرَّجاء" الذي يخصُّها. وفضَّت مارتي أجمَلَ محرمة مُخرَّمة رأتها عيناها يومًا، ولكنَّ البِطاقةَ التي رافقت الهديَّة هي التي جعلَت مارتي تبكي، إذ كانت عليها الكلِماتُ البسيطة: **إلى أُمِّي، مع حُبِّي، كلاي.** ما كان أحَدٌ من الأولاد قد ناداها يومًا بأيِّ شيءٍ سِوى ما، أو ماما، وبدا أمرًا مُفعَمًا بالمعنى جدًّا أن تستعمِلَ هذه الفتاةُ المُميَّزةُ اللَّقَبَ الأكثرَ رسميَّةً.

كذلك حمَلَتِ المَحرمَةُ المُهداةُ إلى كلارك شعورًا رقيقًا أيضًا، وقد دسَّ البِطاقةَ المُرفَقة في يد مارتي. وكان مكتوبًا على البطاقة: **شُكرًا على كونِكَ أبًا حقيقيًّا. مع محبَّتي، كلاي.**

حاولَت مارتي أن تطرِفَ بعَينَيها لحبْسِ دموعِها الحُلوَةِ المُرَّة، إذ فكَّرَت في مَن كان "أبًا حقيقيًّا" لِبَناته. فيا له من امتيازٍ لكلارك ولها أن يشغلا مركزَ الأبِ والأُمِّ لِلفتاتَين!

ونانْدري أيضًا كان لدَيها مُفاجآتٌ لهم. فإنَّها عمِلَت كُتُبَ صُوَرٍ لجميع الأولاد الصِّغار، مُلصِقةً صُوَرًا من الصُّحُف والرُّوزنامات، سبَقَ أن جمعَتها، على قِطَعٍ من القُماش. وتلقَّت مِسي أشرِطةً جديدة للشَّعر تحتوي وصفاتِها الكثيرةً والمُتنوِّعةَ التي كان الجارورُ الذي حُفِظَت فيه يطفَحُ بها دائمًا. ونال كلارك غِلافًا مصنوعًا باليد لكتاب العائلة المُقدَّس البالي.

ثُمَّ وزَّع كلارك ومارتي هداياهُما على كلٍّ من أفراد العائلة، وتأمَّلا بابتهاجٍ عُيون مُستَلِميها المُشرِقة.

وبعدَما أُزيلَ الرُّكام، ووضِعَت الهدايا العزيزة في أمكِنَة أصحابها الجُدُد، استؤنِفَت احتفالاتُ اليوم.

بعدَ الفَطور، خرَجَ اكْلار وآرني ليُجرِّبا المِزلَجَة الجديدة التي صنَعَها كلارك لَهُما. وانصرفَت أَلِّي، مُرتدِيةً المئزر لبهجةِ كلاي، إلى اللَّعِب بِطقمِ صحونها الجديدة الصَّغير، فيما وُضِعَ لوك مُجدَّدًا في السَّرير ليَستَدرِك قليلًا من النَّوم.

أمَّا مِسي، وقد شعرَت بأنَّها راشِدةٌ تمامًا، فانضمَّت إلى النِّساء في المطبخ، حيثُ ساعدت في تحضير وليمة الميلاد.

ولم يَبدُ أنَّ جوش كان بالحقيقة قادرًا على البقاء بعيدًا، إذ وصل أبكرَ من المُتوقَّع. ثُمَّ قدَّم إلى نانْدري هديَّته باستِحياء، وكانت قِنديلًا جديدًا سوف يُستعمَل في بيتهما. وقالت له مارتي إنَّها ما رأت قطُّ أجملَ منه. وقد رُسِمَت على مُستودَعهِ تشكيلَةُ وَردٍ ناعمةٌ باللَّونَين الأحمرِ والقَرنفُليِّ، وكانت زُجاجتُه مُزخرَفةً بالذَّهَب بسخاء. وأيَّما كان ما أهدَته نانْدري إلى جوش فلم يكُن مسموحًا أن تراه العائلة، ولكنْ كان لمارتي شُكوكُها بأنَّه كان فِنجانًا مُزوَّدًا بوِقاءٍ للشَّارِبَين. فإنَّ جوش كان يُرَبِّي باعتِناءٍ شارِبَين أمَلَ أن يكونا مُكتَمِلَينِ ومُهَندَمَين في يومِ عُرسه، جاعِلَينِ إيَّاه يبدو أكثرَ رُجولةً.

شوَوا كستناءَ على النَّار، وتنشَّقوا جائعينَ الرَّوائحَ الطَّيِّبة المُغرية المُنبَعِثةَ من المطبخ. وقُبَيلَ ترتيبِ الطَّعام على الطَّاوِلة، اجتمعَتِ العائلةُ لقِراءة قِصَّةِ ميلاد المسيح. حتَّى لوك، من مكانه على رُكبتَي نانْدري، بدا مُصغيًا. ونظرَت مارتي في أنحاء الغُرفة إلى جميع الأوجُه المُثبَّتة على كلارك وهو يقرأ، فامتلأ قلبُها حمدًا لله. ودسَّت يدَها داخِلَ يدِ كلارك في أثناء صلاته، فضغَطَ على أصابعِها بأصابعهِ ضغطًا مُحكَمًا.

وما إن كانت الكراسيُّ تُوضَعُ حولَ المائدة، حتَّى بدأ بوب العجوز ينبح. لقد كان من غير المألوف أن يأتيَ زُوَّارٌ غيرُ مُتوقَّعِين يومَ الميلاد، فأحسَّت مارتي قلبَها يرتَعِد. وتمنَّت ألَّا يكونَ هنالك خَطبٌ ما. ثُمَّ لحِقَت بكلارك إلى الباب، خائفةً تقريبًا أن تنظُرَ إلى الخارج.

استطاعت أن تسمع وقْعَ خُطًى مُقترِبةً إلى الباب، ولم يكَدِ البابُ يُقرَعُ مرَّةً واحدة قبلما فُتِحَ على مِصراعَيه.

"تومي!" كان كلُّ ما استطاعت أن تقولَه.

ثُمَّ ردَّد كلارك الصَّدى- وهو يبدو غيرَ مُصدِّقٍ بالمِثل- "تومي!" وأضاف: "جيِّدٌ أن نراك، يا فتى"، مُرحِّبًا بالشابِّ بعِناقٍ خَشِنٍ شديد.

ثُمَّ جاء دَورُ مارتي، وأعقبَهُ ترحيبٌ وتسليمٌ عامَّان، بابتهاج وحماسةٍ بالغة.

وما لبِثَ تومي أن رفَعَ يدَه قائلًا: "دقيقةً فقط! عندي شيءٌ أُريكُم إيَّاه".

بعدَئذٍ مضى، ولكنَّه رجَعَ عاجلًا، وذِراعُه تُطوِّقُ شابَّةً صغيرة، جدائلُها البُنِّيَّةُ مأسورةٌ تحتَ قُبَّعةٍ زرقاء.

وقالَ بفَخر: "زوجتي. زوجتي، افْران".

فهتفَت مارتي: "أُوه، تومي! تومي، متى تزوَّجَت؟ لماذا لم تكتُب إلَينا؟"

وضحِكَ تومي. "منذُ خمسةِ أشهُر. أردتُ أن أُفاجئكُم. أليسَت عظيمة؟" ثُمَّ نظَرَ إليها من جديدٍ وازدادتُ ذِراعُه إحكامًا. وابتسمَتِ افْران باستِحياء.

أخيرًا قالت: "يسرُّني أن ألتقيَكُم جميعًا". وقد مدَّت يدًا صغيرةً لِكلارك، ثُمَّ لِمارتي.

وتقدَّمَت مارتي لِتُعانِقها عِناقًا حارًّا.

"ونحن مسرورون جدًّا بلقائكما. هلَّا تدخُلان! اخلَعا معطفَيكما. ها نحن نهمُّ بالجلوس، ويسرُّنا جدًّا أن تنضمَّا إلَينا".

فقال توم: "لا، لا. لم نذهب إلى البيت بعد. فما دُمنا مارَّينَ من هنا، أردتُ لكُم أن تلتقوها. ولكنْ يجب أن نُواصِلَ السَّير. قد تُسامِحُني أُمِّي بِتَوقُّفي هُنا في الطَّريق، ولكنَّها لن تُسامِحَني أبدًا إذا توقَّفتُ هُنا لأكلِ وليمةِ الميلاد".

"آه، يصعُبُ عليَّ جدًّا أن أدَعَكُما تذهبان الآن. لديَّ أسئلةٌ كثيرةٌ جدًّا...".

فقال توم مُقاطعًا: "الأسئلة ستَنتظِر. سوف نكونُ في الجِوار. قرَّرتُ أن أضَعَ يدي على قِطعةِ الأرض تلك التي تخصُّني. سأرى إن كان يُمكنني أن أجعلَها مزرعة. أُمُّ افْران وأبوها امتلكا متجرًا في الغرب. والآنَ سيَحصُلُ تَحوُّل، هَه؟" وغمَزَ بِعَينه. "فإذا بِفَتًى يأتي ويتزوَّجُ ابنتَهُما، ثُمَّ يأخُذُها بعيدًا إلى **الشَّرق!**"

"أُوه، تومي! أنا أعلَم أنَّكُما كِلَيكُما ستكونان سعيدَين جدًّا".

"كذلك نحنُ أصلًا!" هكذا طمأنَها تومي، وقالت عيناه إنَّ ذلك صحيح.

ثُمَّ استأذنا مُوَدِّعَين، ووعَدا بأن يرجِعا قريبًا في زيارة طيِّبة طويلة.

ولمَّا رجَعَ أفرادُ العائلةِ كلُّهم إلى وليمَتِهم الميلاديَّة، عبَّرَت مارتي

عن مشاعِرِهم جميعًا: "حسَنًا، لقد كان هذا يومًا عظيمًا حقًّا!"

ثُمَّ حَنَوا رؤوسَهُم، وتكلَّمَ صوتُ كلارك العميقُ باحترامٍ إلى أبيهمِ السَّماويِّ، شاكرًا إيَّاه من أجل البرَكات الكثيرة التي زخَرَت بها الحياة، وخصوصًا من أجلِ تومي، الابنِ الذي رجَعَ إلى الدِّيار، وما سيأتي به ذلك من فرَحٍ إلى أهلِ بيت آل غراهام.

تساءلت مارتي هُنَيهةً عن أُواهْتيكا الجميلة: هل حظِيَت بالسَّعادة مع "غزالِها الرَّشيق"؟ وصلَّت طالبةً أن تكونَ قد حظِيَت.

٢٥

مرَّة أُخرى بعد

أخيرًا، اعترَفَ أهلُ الحيِّ على مضَض، بينَهُم وبينَ أنفُسِهم وأحدُهم للآخر، بأنَّ المُحترمَ نتسون، الرَّفيعَ الثَّقافة، لم يكُن مُناسَبًا لهم ولا كان مُلَبيًّا لحاجاتِ الجماعة.

وما إن أقرُّوا بهذهِ الحقيقة، حتَّى تساءلوا لماذا استغرَقَ الأمرُ هذه المُدَّةَ الطَّويلة حتَّى يُوضَعَ على طاوِلة البحث. أمَّا ماذا يُعمَلُ بشأنِ المُشكلة، فذاك أصبحَ السُّؤالَ التَّالي، ويقينًا لم يبدُ أنَّ له جوابًا سهلًا.

اختِيرَت من جديد لَجنةٌ بعدَ فترةٍ قصيرة، وسُمِّيَ كلارك رئيسًا لها، الأمرُ الذي غَمَّ مارتي كثيرًا. ثُمَّ طلبَتِ اللَّجنةُ عقْدَ اجتماعٍ مع القِسِّيس، في حينَ أمَلَ الرِّجالُ أن يبحثوا مع المُحترَم نتسون حقيقةَ شعورِ النَّاس حِيالَه.

لم يُبدِ المُحترَمُ نتسون أيَّ اندِهاش أو قلَق عندما طُلِبَ إلَيه أن يجتمع مع الرِّجال، ولكنَّ الاجتماع بحدِّ ذاته شهِدَ لَحَظاتهِ الحَرِجة. فقد بدا أنَّ المُحترَم ظنَّ أنَّ الاجتِماعَ قد رُتِّبَ لتقديمِ إطراءاتٍ له، بل

أيضًا رُبَّما لاقتراحِ زيادةٍ على راتبِهِ البسيط تقريبًا، البسيط بمَعاييرِهِ هو على كلِّ حال.

وكان لافِتًا للنَّظر أنَّهُ أُخِذَ على حينِ غِرَّة لمَّا اتَّخذَ الاجتماعُ مُنعطفًا مُختلِفًا.

وقد أعلَمَ المُحترَمُ المجموعةَ الصَّغيرة أنَّ الأمرَ لم يقتصِرْ على كونهِ هو نفسِهِ مُثقَّفًا جيِّدًا، بل كان يغوصُ أيضًا في مكتوباتِ لاهوتيِّين آخَرين رفيعي الثَّقافة. فمادَّةُ عِظاتهِ جاءت مُباشرةً من أعظَمِ مُفكِّري العالَمِ المسيحيِّ، وفي وسعه أن يفهَمَ جيِّدًا أنَّ أيَّ شخصٍ يأبى أن يُحبِّذَ جدًّا عِظاتهِ الحافلة بالمضمون الفِكريّ. ولم يكُن له أدنى فكرة، لمَّا لبَّى دعوتَهُم، أنَّ أهلَ المِنطقة كانوا محرومين تمامًا من التَّعلُّم وغيرَ حسَّاسِين حِيالَ التَّنوير الرُّوحيّ. إلَّا أنَّه كان على يقين بأنَّه يستطيعُ أن يُبليَ بلاءً أحسن. فقد أُخبِرَ عن عالِمٍ عظيمٍ باتت كُتبُه مُتوافِرةً حديثًا، ورُغمَ كونها ملأى بمادَّةٍ استِثنائيَّة فقد كُتِبَت "بِلغَةِ العَلمانيِّ السَّهلة". وسيَعمِدُ إلى طلَبِ اثنَينِ من تلك الكُتُب. لقد كان على يقينٍ بأنَّ الشَّعبَ سيَجِدون تشجيعًا ومؤازرةً دينيَّة في آثارِ ذلك الرَّجُل العظيم.

وبصعوبةً بالغة، تمكَّنتِ اللَّجنة، ولا سيَّما كلارك، من إقناعِ المُحترَم بأنَّ رغبتهم هي أن يُنهِيَ خِدمتَه لَهُم بصفته قِسِّيسَهُم.

وقد شرَحَ كلارك الأمرَ على هذا النَّحو: "يا مُحترَم، نحنُ نُدرِكُ أنَّك رجُلٌ مُثقَّفٌ جدًّا، ونُدرِكُ أنَّنا مُتبلِّدون قليلًا. لا نُريدُ أن نمنعك من

وَعظِ أولئك الذين يستطيعون أن يفهموا ويُقدِّروا مهاراتِكَ العظيمة. وعليه، نُعفيكَ كي ترجِعَ إلى حيثُ تشاءُ أن تذهب، وذلك في أقربِ وقتٍ تتمكَّن فيه من إجراء التَّرتيب".

تلفَّظَ المُحترَمُ بالكلام في سُرعَةٍ واختِلاط، ووجهُه مُحمَرٌّ، مُحاوِلًا أن يصوغَ جوابَهُ بصورةٍ مناسبة. وأخيرًا قال بصَوتٍ مخنوق: "أأنتُم قائلون، يا سادة، أأنتم قائلون إنَّ خِدمتي قد أُنهِيَت؟"

فتدخَّل الشَّيخُ كُفِنز، وهو عُضوٌ آخر في اللَّجنة: "عفوًا، لا! إنَّها ما أُنهِيَت، بل أُعفِيتَ منها فحسْب".

وهكذا أعفَوا الواعظ، وأعطَوه صُرَّةَ نُقودٍ للمُغادَرة، وتمنَّوا له الخير، ثُمَّ عكَفوا على مَهمَّةِ اختيار قِسِّيس جديد. وهذه المرَّة، لم يُطلَب إلى مُعلِّم المدرسة، الأُستاذ وِلبُر وِتِل، أن يؤدِّيَ دورَ مُراسِل.

حتَّى الآنَ، بقِيَت المقبرة بقُربِ مبنى الكنيسة الصَّغير فارغة من الشَّواهد. وقد علِمَ الجميعُ أنَّها لن تبقى هكذا، وغالبًا ما تعلَّقَ السُّؤالُ غيرُ المطروحِ في الهواء: مَن؟ مَن سيكون الشَّخصَ الذي تُسبِّبُ وفاتُه حَفرَ الأرضِ أوَّلًا حتَّى يُوارى الثَّرى؟

دونَ فِكرةٍ واعية، راقبَ أشخاصٌ شتَّى جيرانَهُم. فالجَدُّ اسْتِرن كان مُتقدِّمًا كثيرًا في السِّنين وبدا آخِذًا في الضَّعف. والسَّيِّدة لاهاي لم تستعِدْ قَطُّ كامِلَ صِحَّتها فِعلًا. وإحدى بنات كُفِنز بدَت نحيلةً جدًّا،

وكانت كلَّ حين طريحةَ الفِراش بمَرَض أو بآخَر. حتَّى إنَّ والِدَيها لم يسمحا لها بالذَّهاب إلى المدرسة. والسَّيِّدة ڤِكَرز ظهرَت عليها علاماتُ التَّوتُّر العصَبيِّ الشَّديد، وخشِيَ بعضٌ أن تحمِلَ نفسها إلى داخلِ قَبرٍ باكر.

ولكنْ لمَّا حصلَت وفاة، لم يكُنِ المُتَوفَّى أيًّا من هؤلاء، وقد صُعِقَ أهلُ الحيِّ كُلُّهم حِيالَ فُجائيَّةِ الأمرِ بِمُجمَلِهِ وما سبَّبه من حُزنٍ ولَوعة.

لقد كان مَن تُوفِّيَ عزيزتَهُم تَسِّي، بعدَما كانت منذ عهدٍ قريب قد تزوَّجت من الأُستاذ وِتِل. إنَّها كانت دائمًا تبدو صبيَّةً قويَّةً وسليمةً للغاية، وقد بات أهلُ الحيِّ مسرورين لمَّا عَلِموا أنَّها سوف تجعَلُ زوجَها، مُعلِّمَ المدرسة، أبًا. وفي ما خصَّ الأُستاذَ وِتِل نفسَه، فإنَّ قُبَّعَته السَّوداءَ المُستديرة لم تكُن قطُّ قد نُفِّضَت من الغُبار مرارًا أكثر، ولا كان شارِباهُ الغليظان قد هُندِما بعِنايةٍ أوفَر، ولا كان طِماقا كاحِلَيه قد صُبِغا بِبَياضٍ أزهى. وهو كان مسرورًا جدًّا بنفسه وبزوجتهِ الحديثة. فأن تكونَ لدَيه امرأةٌ شابَّةٌ وجذَّابةٌ مشغوفةٌ به كان أمرًا رائعًا بحدِّ ذاته، وأن يكونَ هو على وشْكِ أن يصيرَ أبًا كان أمرًا يفوقُ التَّصديق. لقد كان الأُستاذ وِتِل في أوْجِ سعادته. وكان الصِّبيانُ الكِبارُ يتمازحَون في ما بينَهُم بأنَّ صوتَهُ باتَ الآن يَصِرُّ بالبهجة والحماسة كلَّ حين، إلَّا أنَّه هو لم يبدُ مُلاحِظًا أو مُباليًا.

حلَّ اليومُ المُنتظَرُ، واستُدعيَ الطَّبيبُ بسُرعة. وفي الصَّباح التَّالي،

غادَرَ بَعَينَين مُتعَبتَين وقلبٍ مُثقَل بالحُزن. ذلك أنَّ تَسِّي وطِفلَها الذَّكَرَ قد تُوفِّيا كِلاهما في أثناءِ اللَّيل. وقدِ استجابَ الجيرانُ باهتمامٍ وعطفٍ شديدَين، واجتمَعَ بعضٌ لِحَفر القبر في المقبرة الجديدة. وقد صُنِعَ تابوتٌ من خشَب الصَّنَوبر، وبُطِّنَ بِتَرتيب، وأُعِدَّ الجُثمانانِ للدَّفن، وأحَدُهما صغيرٌ جدًّا. وفي أثناءِ ذلك كُلِّه، تحرَّكَ الأُستاذ وِلبُر وِتِل في صدمةٍ صامتة. فهذهِ الخَسارةٌ كانت فوقَ إدراكه. وفي غياب قِسِّيس، بقيَ لدى الأُستاذِ وِتِل حُضورُ ذِهنٍ كي يسأل كلارك أن يتولَّى قراءةَ آياتٍ من الكتاب المقدَّس وتِلاوةَ عِبارات الدَّفن. فوافق كلارك بقلبٍ كئيب.

كان يومُ الجِنازة باردًا وكئيبًا. وإذ مسَحَت مارتي عينَيها، فكَّرَت كيف ضاهى الطَّقسُ المُناسَبة. لقد دُلِّيَ التَّابوتُ المصنوعُ من خشَب الصَّنَوبر وهِيلَ التُّرابُ فوقَه.

وقفَت مارتي تُحدِّقُ إلى القبر الجديد الذي ضمَّ أُمًّا شابَّة وعلى ذِراعَيها طِفلٌ ذكَر. **لم تعُد هذه المقبرةُ بِكرًا. ومن الآنَ فصاعدًا ستكونُ قبرًا يُضافُ إلى قبر: هكذا فكَّرت.** فمرَّةً بعدَ أُخرى سوف تُحفَرُ الأرضُ لتتلقَّى حِملًا جديدًا.

بكَت مارتي في قلبها. **آهِ تَسِّي! مَن كان يظُنُّ أنَّ المُتَوفَّى سيكونُ أنتِ! إنَّ الحياةَ حافلةٌ بما هو غيرُ مُتوقَّع.** ومرَّةً أُخرى بَعدُ رجَعَت أفكارُها فوقَ السِّنينَ إلى قَبرٍ آخَر، وإلى خَسارتها الخاصَّة. فشالَت أُلِّي بينَ ذِراعَيها وضمَّتها

بإحكام، شاكِرةً الرَّبَّ على صلاحه وإحسانه إليها وإلى كلارك على الرُّغمِ من مآسي الحياة.

أُوقِفَ التَّدريسُ حتَّى إشعارٍ آخَر، ولكنَّ الأُستاذَ وِتِل لم يكُن قطُّ قادرًا على استئنافِ تعليمه، ومن ثَمَّ انتهَتِ المدرسةُ تِلكَ السَّنةَ في نَيسان. وفي أواخِرِ أيَّار، لمَّا كانت الورود قد بدأت تتفتَّح وشرَعَتِ الطُّيورُ تبني عِشاشَها، جمَعَ الأُستاذُ وِتِل باقةً من الزُّهور البرِّيَّة ووضعها على كُومة التُّرابِ الجديدة. ثُمَّ نفَّضَ قُبَّعَتَهُ السَّوداءَ المُستديرة من الغُبار، وحمَلَ حقائبَه ورجَعَ إلى الشَّرق.

٢٦

جُوش ونانْدري

تركَ رحيلُ القِسِّيس اثنَينِ من أفراد الرَّعيَّة قلِقَينِ على وجه الخصوص. فإنَّ جوش ونانْدري انتابَهُما القلَق بشأن ما قد يفعلُه ذلك بخُطَطِ زِفافهِما. وقد تنبَّهَ كلارك إلى ما كانا يُفكِّران فيه حُكمًا، وأجرى بعضَ الاستقصاءِ على مسؤوليَّته الشَّخصيَّة.

تبيَّن له وجودُ قِسِّيس يبعُدُ عنهم مدينتَين، فزارَ الرَّجُلَ وأجرى ترتيباتٍ له حتَّى يكونَ في كنيستهم المحلِّيَّة في اليوم المُحدَّد للعُرس.

ولمَّا شعر بأنَّه لن يحدُثَ أيُّ شيءٍ من شأنه أن يُعَرقِلَ الخُطَط، فاتحَ جوش ونانْدري بالموضوع ذاتَ يومٍ إذ كانا جالِسَين إلى طاوِلة المطبخ والقلَقُ يُهَيمِنُ على سيماءِ وجهَيهِما.

"ذلك الزِّفافُ الذي ما بَرِحتُما تُخطِّطان له...هل غيَّرتُما رأيَكُما بشأنه؟"

فقالت نانْدري: "بالتأكيد لا!" وقد نظرَت إلى جوش طلَبًا للدَّعم.

"سيكون عسيرًا بعضَ الشيء لعدَم وجودِ واعظٍ يتولَّى أمرَكُما".

فأبدى جوش مُوافقَته، ناظرًا إلى يدَيه المَطويَّتَين أمامه. وبدَت نانْدري على وشْكِ البُكاء، الأمرُ الذي ما عُرِفَ عنها قطُّ أنَّها تقومُ به.

فأردفَ كلارك على عجَل- وقد تبدَّدتِ المُغايَظةُ من صوته الآن- "اتَّفَقَ أنَّني سمِعتُ بوجودِ رجُلٍ يبعُدُ عنَّا مسافةً يمكن قطعُها على ظهرِ حصان، واتَّفَقَ أيضًا أنَّه قِسِّيسٌ مُعترَفٌ به كنَسيًّا".

التفتَ الوجهان، كأنَّهما واحد، للتَّركيزَ بدِقَّة على وجهِ كلارك.

وسألَ جوش: "أين؟ هل تعتِقدُ أنَّه يُمكننا أن نذهبَ إليه؟"

فقال كلارك بهدوء: "أظُنُّ أنَّه ليس من حاجةٍ ماسَّة إلى ذلك. لقد قال إنَّه سيكونُ سعيدًا بأن يأتيَ هو إلى هُنا".

جلسَت نانْدري صامتةً، وقدِ اتَّسَعَت عيناها، ثُمَّ نهضَت بإدراكٍ جديد وهُتافِ فرَح.

وإذ شبَكَت يدَيها معًا بإحكام، صاحَت: "أتقولُ إنَّك وجدتَ قِسِّيسًا؟"

فابتسمَ كلارك ابتِسامةً عريضة: "هذا صحيحٌ، حسَبَ تخميني".

وقالت نانْدري بصوتٍ حادّ: "أُوه، باركَكَ الله!" وبدا أنَّها تهُمُّ بأن تُطوِّق كلارك بذراعَيها، ثُمَّ التفتَت بسُرعة لِتُعانِقَ جوش بالأحرى. ولم يُمانِع جُوش.

تبسَّمَت مارتي من مكانها عندَ خزانة الأواني، مُتذكِّرةً افتِتانَ نانْدري الباكِرَ بكلارك، ومسرورةً جدًّا بأن ترى حُبَّها الأصيلَ لِجُوش.

لقد جُذِبَ انتِباهُها مُجدَّدًا إلى الثُّنائيِّ السَّعيد وكلارك المُبتسِم ابتسامًا عريضًا.

وسألَت نانْدري بتوسُّل: "متى؟ متى يستطيعُ أن يجيء؟"

"حسنًا، أظنُّ مِثلَما وضَعتُما في فكرِكُما، في الثَّامن والعشرين من أيَّار".

"هكذا فعَلْنا حقًّا...أتعني أنَّ في وسعنا أن نُقيمَ العُرسَ مِثلَما خطَّطنا تمامًا...في الكنيسة...مع أصدقائنا؟"

"صحيح، كما خطَّطتُما تمامًا!"

فقالت نانْدري: "أُوه، شُكرًا للرَّب! إنَّه حقًّا يستجيب".

غادرَ الثُّنائيُّ الشابُّ لِيَتمشَّيا بقُربِ النَّهر، حيثُ يَتشاركان- دونَ شكّ- في لحظة السَّعادة هذه ويضعانِ اللَّمَسات الأخيرةَ على خُططِهما.

وإذ غمَرَ مارتي سُرورُ قلبِها، قالت: "حسنًا، كيف دبَّرتَ- يا تُرى- هذه الخُطَّةَ البارعةَ المُبهِجة؟"

فأجاب كلارك: "ما احتاجَ الأمرُ إلى براعة، بل إلى مالٍ فحسْب!" ولم يكُن في وسعِهما إلَّا أن يضحكا معًا.

تمَّ الزِّفافُ المُخطَّطُ له كثيرًا حسَبَ المُقرَّر. وقام القِسِّيسُ المُستأجَرُ بعمَلٍ محمود في تِلاوةِ التَّعهُّدات وتوجيه العروس والعريس.

كانت نانْدري مُتألِّقة، بل أيضًا فاتِنَةً بفُستانِ عُرسها الخاصِّ الذي سبق أن خاطته هي ومارتي بحِرصٍ لأجل المُناسَبة، وبدَت كلاي جميلةً بالمِثل تقريبًا فيما وقفَت بجانبِ شقيقتها.

وقف مع جوش أخوهُ الأصغَرُ جو. وكان العُرسُ احتِفالَ زِفافٍ جميلًا مُفعَمًا بالمَعنى والبَشائر. ولمَّا توجَّه الضُّيوفُ من الخِدمة إلى عشاء العُرس، حصَلَ كثيرٌ من الضَّحِكِ والمُزاحِ الودِّيّ.

مازحَ تود استِرْن كلارك قائلًا: "ها أنتَ بالكادِّ قد بلغتَ مبلغَ الرِّجال، وتُزوِّجُ إحدى بناتِكَ فعلًا!"

فتطلَّعَ كلارك نحوَ ابنتهِ الفَتيَّة مِسي، وقد كانت تكبر بسُرعة زائدة فِعلًا. وقالَ بهدوء: "وقبلَ أن أعلَم، سأخسَرُ تلك أيضًا!"

وإذ فكَّر كلارك في الأمر، رجَعَ إلى الجِدّ. وقال لِتود: "يبدو كأنَّه أمسِ كان أولادي يتعثَّرون هُنا وهناك تحتَ قدَميَّ، وها أنا الآن أصيرُ جَدًّا. أتمنَّى أحيانًا لو كان للوقت ذيلٌ، حتَّى يتيسَّر لنا أن نُمسِكَ به ونُبَطِّئَهُ قليلًا!"

طَوالَ أشهُرِ الصَّيف، ظلَّتِ الكنيسةُ بِلا قِسِّيس، ولكنْ لم يُزعِج كلارك ومارتي، ولا جِيرانَهُما، أن يكونَ لدَيهم مِنبَرٌ شاغِر. فقد كانوا على يقين بأنَّه في الوقت الصَّحيح عندَ الله سوف يُرسِلُ إليهم شخصًا ما. وقدِ استمرُّوا فعلًا يجتمِعون كي يُرَنِّموا ويُصَلُّوا ويقرأوا الأسفارَ المقدَّسة معًا.

كذلك أيضًا لم يكُن للمدرسة مُعلِّم. وأسفَرَ اجتماعٌ لمجلس المدرسة المُوَجِّه عن الطَّلَب إلى كلاي أن تشغَلَ المَنصبَ عندما يأتي الخريف. ها هي هُنا، قد عادت حديثًا من تَعلُّمها في دار المُعلِّمين، وقد وُعِدَت فِعلًا بمدرسة...بل بالمدرسةِ المحبوبة في بلدتها!

لم يسَعْ مارتي إلَّا أن تتأثَّر وتتحمَّس، هي أيضًا، بشأنِ وظيفة كلاي الجديدة.

وقالت لكلاي مُعانِقةً: "سيكون جيِّدًا أن نحوزَكِ في البيت من جديد. لقدِ اشتقنا إليكِ كثيرًا".

فقالت كلاي على مهل: "أنتُم تُدَلِّلُونني بحَيثُ تُفسِدونَني. من نواحٍ كثيرة، أُحِبُّ أن أعيشَ في البيت...ولكنْ...حسنًا...لدَيَّ فِكرةٌ عامَّة بأنَّني أُريدُ أن أكون مُستقِلَّةً تقريبًا. فأنا بالحقيقة أُريدُ أن أُقيمَ في مسكن المُعلِّم وأُدبِّرَ شؤونَه المنزليَّة. ما يزالُ فيه صُحونٌ وكلُّ شيء، وقد قالت لي السَّيِّدة لاهاي إنَّ في وسعي أن أنتقِلَ إلى هُناك فورًا وأستعمِلَ الموجوداتِ، إذا شئتُ. وسيَروقُني ذلك حقًّا. أنتِ لن تُمانعي، ماما، أتُمانِعين؟" وحدَّقَت هُنَيهةً إلى وجه مارتي، ثُمَّ قالت مُستعجِلةً: "فضلًا عن ذلك، أنا أقومُ ببعض الدِّراسات بواسطة المُراسَلة، وسأحتاجُ حقًّا إلى الهدوء، إذا كان عليَّ أن أُنجِزَ المُقرَّرَ في الوقتِ المُتاح".

شعرَت مارتي بالحَرَج، ولكنَّها سترَت مشاعِرَها عن كلاي، قائلةً

فقط إنَّها هي وكلارك سيبحثان الموضوع. وبعد نِقاشٍ طويل مع كلارك، أذعنَت على مضَض. وقد قال كلارك إنَّ الأمرَ، رُغمَ كلِّ شيء، لن يُماثِلَ عيشَ كلاي مُنفرِدةً. فهي لن تكون إلَّا في آخِرِ الطَّريق وفوقَ التَّلّ.

تقرَّر أن تعودَ كلاي وتسكُنَ مع مِسي في أشهُرِ الصَّيف، كي تسُدَّ شيئًا من الفراغ الذي خلَّفَته مُغادَرةُ نانْدري. ثُمَّ قبلَ بَدءِ صفوفُ الخريف تنقُلُ أمتِعتَها إلى مسكن المُعلِّم وتُعنى شخصيًّا بالشُّؤون المنزِليَّة هُناك.

وردَت بعضُ الإشارات بشأنِ قِسِّيسٍ مُحتمَل، فجرَت مُتابَعتُها، وبدا أنَّ واحدًا أو اثنين يَفِيَانِ بالمطلوب. ولكنَّ الأبوابَ التي فُتِحَت أُغلِقَت أخيرًا. ليس أنَّ لَجنة البحث كانت صعبةَ الإرضاء، بلِ الأقِلَّاءُ المُتَوافِرون للمَنصِب أرادوا مُرتَّبًا يفوقُ ما كان في وسع اللَّجنة الصَّغيرة أن تؤمِّنَه.

وكان الخريفُ يُوشِكُ أن يحلَّ لمَّا سمِعَ بَن عن شابٍّ من السَّيِّد كاسيدي.

قالَ مُديرُ المتجر: "إنَّه من بلدتي السَّابقة. صحيحٌ أنَّه شابٌّ، لم يتعلَّمْ كثيرًا جدًّا من الكُتُب، وقد درَسَ قليلًا، ولكنَّه لم يلتحِقْ بمعهدٍ لاهوتيٍّ في الشَّرق كما كان ينوي. إنَّما لديه كثيرٌ من الحماسة، وهو يقينًا ينكبُّ على دراسة الكِتاب المقدَّس. إنَّه صادقٌ ومجتهد، ولكنَّهُ

غَضٌّ".

فقالَ بَن مُعلِّقًا: "لا تهمُّنا الغَضاضةُ أبدًا. نَحنُ كُلُّنا غِضاضٌ جدًّا...لعلَّنا نستطيعُ أن نتعلَّم معًا".

غادرَ وَفدٌ مُفوَّض، مؤلَّفٌ من رجُلَين، على صَهوتَي حِصانَين، للتَّحقُّق من إمكانيةِ العُثور على الشَّابِّ المقصود. ثُمَّ مضت ثمانيةُ أيَّامٍ قبلَما رجَعا إلى الدِّيَّار مُجدَّدًا، إلَّا أنَّهما عادا بخَبَرٍ طيِّب.

كانا قدِ اهتدَيا إلى الرَّجُل، وكان هو توَّاقًا إلى مُباشَرةِ الرِّعاية. ما زالَ يرجو أن يُتابِعَ تعلُّمَه، ولكنْ إذا قَبِلوا أن يأخذوه كما كان، فإنَّه سيبذِلُ قُصاراه كي يخدِمَهم. وهكذا جرى الاتِّفاق.

وصَلَ القِسِّيس جوزيف بَرْوِك في الخامس من أيلول، ذلك اليومِ الذي فيه باشرت الآنِسة كلاي لارسون تعليمَ صُفوفِها الأُولى في مدرسة البلدة. لم يكُن سَيُلقي مَوعِظتَه الأُولى قبلَ يومِ الأحَد التَّالي، ولكنَّه في الفترةِ الفاصلة بدأ يزورُ أبناءَ أبرشيَّته زياراتٍ قصيرة.

سوف ينزِلُ عندَ آل واتلي، كما نزَلَ سلَفُه. ولمَّا لمَحَت السَّيِّدة واتلي الشَّابَّ الطَّويلَ الوسيم، التفتَت إلى ابنتَيها وفي عينَيها تَلألؤ. ثُمَّ أومأت برأسها للواعِظ كي يدخُلَ الرَّدهة، حيثُ يُقدَّم الشَّاي. وقالت مُتنهِّدةً: "يقينًا هذه المرَّة!"

لم يكُن القِسِّيس بَرْوِك راغبًا في الجلوس طويلًا وارتِشاف الشَّاي، وقبلَ أن تُتاحَ لِغُبارِ ركوبِهِ الأخير على صهوَةِ الحِصان فُرصةٌ كي

يستقرَّ، كان قدِ انطلقَ مُجدَّدًا لِمُقابلةِ المزيد من سُكَّان المِنطقة الذينَ اعتبرَهُم أفرادَ رعيَّته.

وما ترفَّعَ عن مدِّ يدِ المُساعَدة أيضًا، فقضى بعضَ الوقت يُقطِّعُ حطَبًا للأرملةِ رايدَر، ويُساعِدُ في دَقِّ عمود كان جايسون استَرن يغرِزُه، ويُذَرِّي تِبنًا مع فِتيانِ آل غراهام.

وشيئًا فشيئًا شقَّ طريقَهُ عبْرَ الحيِّ نحوَ مبنى المدرسة، حتَّى إنَّه يومَ الخميس حوالَى السَّاعة الرَّابعة عصرًا دخَلَ راكبًا على حِصانه إلى باحة المدرسة ليزورَ المُعلِّمةَ المحلِّيَّة زيارةً قصيرة.

كانت كلاي راكعةً على رُكبتَيها في مسكبة الزُّهور المُهمَلة، ولم تكُن مُتأهِّبةً لاستِقبالِ زُوَّار. كان شعرُها مَردودًا إلى الوراء ارتِجالًا بِشَريطة، وكانت مُنشغِلةً بتنظيف الأعشاب الضَّارَّة التي سبَقَ أن تُرِكَت تَطلُع حيثُ شاءت في أثناء الصَّيف، وقد دسَّت يدَيها في عُمقِ التُّربة.

رفعَت نظَرَها مدهوشةً حِيالَ الغريبِ المُقبِل، تارِكةً دونَ قَصدٍ وَخْطةَ تُرابٍ على خدِّها إذ ردَّت خُصلة مُتَدليَّة من شعرها.

وإذ ترجَّلَ الزائرُ، قالَ بِلُطف: "أنا القِسِّيس بَرْوِك. أأبوكِ في البيت؟"

هزَّت كلاي رأسها نفيًا بصَمت، مُحاوِلةً أن تستوعِبَ مَن أمكن أن يعنيَه بقوله "أبوكِ"، وأينَ ينبغي لها أن تقولَ له إنَّه يستطيعُ أن يجِدَه.

"أُمُّكِ؟"

"لا...لا أحَد...أنا...". ثُمَّ أخذَت نفَسًا وغيَّرَت مجرى الكلام،

فسألت: "أنت تعني آلَ ديڤِس أم آلَ لارسون؟"

والآنَ كان دَورُ القِسِّيس كي يبدوَ مُرتَبِكًا. فقال: "أنا أعني المُعلِّم، كائنًا مَن كان. ما سمِعتُ اسمَهُ بَعد".

"لا يوجَدُ هُوَ".

"عفوًا".

فردَّت كلاي مُتَلعثِمةً، مُحاوِلةً أن تشرح: "المُعلِّم...إنَّه...إنَّه قد رحَل. لم يعُد يسكُنُ هُنا".

وقال القِسِّيس: "أنا آسِف. علِمتُ أنَّ الأولادَ في المدرسة، يُعطَون دُروسًا".

فصوَّبت كلاي بسُرعة: "إنَّهُم هُنا...نحنُ هُنا".

"وأنتِ واحدةٌ من التِّلميذات؟"

إذ ذاك وقفتَ كلاي بكاملِ قامَتِها، الأمرُ الذي رُبَّما لم يُخلِّفِ انطِباعًا قويًّا مُقابِلَ قامَةِ القِسِّيس الطَّويلة.

وقالت مُشدِّدة: "أنا المُعلِّمة!"

فقال مُتلعثمًا: "المُعلِّمة!" وقد تورَّدَ وجهُه. وما لبِثَ أن هتَفَ: "أُوه، عجَبًا! إذًا أُخَمِّنُ أنَّني لا بُدَّ أن أراكِ بدَلًا من أبيكِ. أعني أنَّني ما جئتُ حقًّا لرؤيته. لقد جئتُ لأرى المعلِّم".

وبعدَ تَوقُّف، ضحِكَ ضِحكةً خافتة بشيءٍ من الارتباك. "فلنبدأ من

جديدٍ تمامًا، أمَا؟"

وخَطا إلى الوراء، ثُمَّ تقدَّم إلى الأمام بابتِسامةٍ صِبيانيَّة.

وقالَ مادًّا يدَه: "هالُو! أنا القِسِّيس بَرْوِك، جديدٌ في مِنطقتكم، وأنا أُحاوِلُ أن أُعرِّجَ على كلِّ شخصٍ من أبناء أبرشيَّتي. فهِمتُ أنَّكِ المُعلِّمةُ الجديدة في هذا الجِوار".

نظرَت كلاي إلى يدها المُتَّسِخة بالتُّراب، ولكنَّ الواعظَ لم يتردَّد. فمدَّ يدَه وأمسك يدَها، وأحسَّت كلاي يدَها تؤخَذُ في مُصافَحةٍ قويَّة.

قالت مُتَلعثِمةً: "أنا آسِفة. يداي مُتَّسِختان...".

فقالَ بابتسامة: "وعلى وجهكِ تُرابٌ أيضًا".

وقالت كلاي، بمزيدٍ من الارتباك: "يا لَلعجَب!" ثُمَّ مدَّت يدَها لِتَمسحَ النُّقطةَ المشبوهة وتزيدَها سوءًا فحسْب.

فضحِكَ، وإذ أخرَجَ مَحرمةً نظيفة، تقدَّم إلى الأمام قائلًا: "هل لي؟" ومسَحَ اللَّطخةَ عن وجهها.

حبَسَت كلاي نفَسَها. أحسَّت حَنجرتَها تَنسَدُّ، وخفَقَ قلبُها بقُوَّة. وتساءلت هل كان في وسع السَّيِّد بِرْوِك أن يسمعه.

ثُمَّ تراجَعَ إلى الوراء، ووضَعَ مَحرمتَه في جيبه، قائلًا: "كما قلتُ، أنا أُعرِّجُ على أبناء أبرشيَّتي. هل لي أن أتوقَّع رؤيتكِ في الكنيسة يومَ الأحد؟"

فقالت كلاي: "نعم، طبعًا". وقد أحسَّت خدَّيها يسخُنانِ حِيالَ

ارتِباكِها.

"أوَأنتِ مُعلِّمةُ المدرسة حقًّا؟"

فأومأت برأسها أنْ نعَم.

"يقينًا أنَّه لم يكُن لي مُعلِّمون مثلكِ لمَّا ذهبتُ إلى المدرسة".

والتقطَت طَرفةَ عَينِه، فامتُقِعَ لَونُها.

"أراكِ يومَ الأحد".

فأومأت برأسها إيجابًا.

امتطى حِصانَه وهمَّ بالانطِلاق، ثُمَّ توقَّفَ والتفتَ إلَيها.

"لم تُعطِيني اسمَكِ".

"كلاي... كلاي لارسون".

"الآنِسة كلاي لارسون؟"

"الآنِسة كلاي لارسون".

"كيف تَتهجَّينَ اسمَكِ؟ كلاي. ما سمعتُ قطُّ ذاك الاسمَ من قَبل".

فتَهجَّتهُ كلاي. وقد كانت مشدودةَ الأعصاب جدًّا بِحَيثُ رَجَت أن تكون قد قالت الأحرُفَ الصَّحيحة.

وكرَّر: "كلاي. ذلك غيرُ مألوف. سأراكِ يومَ الأحد، آنِسة لارسون".

ثُمَّ راقبَته يُغادِرُ راكبًا، معَ تَلويحةٍ من قُبَّعته.

هكذا كان أنَّ كلاي التقَتِ الواعِظَ الجديد، وهكذا كان أنَّها وجدَت صعوباتٍ في التَّركيز. فمنذُ البَداءة تمامًا واجهَت مُشكِلةً في إبقاءِ انتباهِها مُركَّزًا على المَوعِظة، لا على مَن كان يُلقيها...إلَّا أنَّها لم تُفوِّت قطُّ يومَ أحَدٍ واحدًا.

٢٧

قِسّيس جديد، بيت جديد

سُرعانَ ما باتَ واعِظُهم الجديد يُعرَف بلقَبِ القِسِّيس جو، وقد رسَّخَ مكانته في الحيّ. ولا شكَّ أنَّ استِعدادَهُ الطَّوعيَّ لمَدِّ يدِ العون حبَّبَهُ إليهم.

علَّقَ أحَدُ المُزارعين: "إنَّه لا يخشى أن يُوسِّخَ يدَيه، ذلكَ الرَّجُل".

فكان الإقرارُ الفوريُّ: "لا، ولا أن يَحنيَ ظهرَه!"

ولكنَّ السَّببَ الحقيقيَّ لإيماءاتِ الاستِحسان من رؤوسهم كان خِدمات يوم الأحد. فإنَّ القِسِّيس جو كتَبَ لائحةً بالتَّرنيمات التي تَعرِفُها الجماعةُ عن ظهرِ قلب، وكانت تلك هي التي منها انتقى ترانيمَ يومِ الأحد. وقد أُضيفَت بينَ حينٍ وآخر ترنيماتٌ جديدة جرى تَعلُّمُها بكتابة الكَلِمات على لوحِ طَبشور مُستعار من المدرسة. وكان القِسِّيس جو يملك صوتًا صادحًا جميلًا، فشارَكَه الحُضورُ بحماسة.

لم تكُن صَلَواتُه مُجرَّدَ كلمات، بل كانت مُفعَمةً بالإخلاص، وكانت عِظاتُه أهمَّ جُزءٍ في الخِدمةِ كلِّها. فإنَّ رسائلَ بسيطةً وصريحة،

مُوسَّعةً من آية أو فِقرة في الكتاب المقدَّس، أعطتهم جميعًا إحساسًا حقيقيًّا بأنَّهم يتلقَّونَ تربيةَ روحيَّة سليمة.

حتَّى الأصغَرُ سِنًّا بينَ الحُضور بدأوا يَنتبِهون ويُصغون، وفي الأخير فاجأ الشَّابُّ اكلِنْت غراهام أهلَه بإعلانهِ أنَّه شعر بالدَّعوة إلى دخول مَيدان الخِدمة الرُّوحيَّة.

إنَّما السَّيِّدة واتلِي وحدَها شعرَت بشيءٍ من خَيبة الأمل من جهةِ الواعظ، ولم يكُن لذلك أدنى عَلاقةٍ بعِظاتهِ الأحَديَّة. إذِ احتدَمَت غَيظًا لتكتَشِفَ كيف تجعلُه يُبدي مزيدًا من الاهتمام بإحدى ابنتَيها- أيَّةَ واحِدَةٍ اختارَ لم يهمَّها الأمر- ولكنَّ الرَّجُلَ بدا غافِلًا عن كِلتَيهما.

ظلَّ الحُضورُ يَنمون، عدَديًّا وروحيًّا على السَّواء. ولم يُفوِّتِ الفتى وِلِي لاهاي يومَ أحَدٍ قَطُّ. حتَّى أبوه، زيك لاهاي، نحَّى الشُّغلَ جانبًا بينَ حينٍ وآخر لأجل صَباحِ عِبادةٍ يومَ الأحد. فلا شكَّ أنَّ فُقدان الرَّجُل لابنتهِ تَسِّي قد جعلَهُ لَيِّنَ العريكة. وقد لاحظَت مارتي، في أكثرَ من مُناسَبةٍ واحدة، عينَيه شاخِصَتين إلى التَّلَّة السَّاكنة عبْرَ فِناء الكنيسة. ذلك أنَّ صليبًا مصنوعًا بِبَراعة كان قد ظهَرَ في ساحة المقبرة حامِلًا الكلماتِ التَّالية: **تَسِّي لاهاي وِتِل وطِفلُها. فَليَرقُدا بسلام ولا يكونا وحدَهُما أبدًا.**

عرَّجَ القِسِّيس جو على رعيَّتَه مِرارًا فاقت زياراتهِ لِتَناوُلِ الغداء أيَّام الأحد، وحيثُما ذهَب استُقبِلَ بتَرحاب.

وقد سُمِعَ كلود غراهام مُصادفةً يقولُ مُعلِّقًا لأخيه التَّوأم لَم: "السَّببُ الذي من أجله هو مُلائمٌ جدًّا ههُنا أنَّه لا يَعرِفُ أيَّ شيء من تلك الكُتُب هو أيضًا".

على ذلك ردَّ لَم: "لا تدَعْه يخدعك. في رأسه حِملٌ أكبَرُ مِمَّا يُلقيه كلَّ يومِ أحَد. لا نفعَ في تذريةِ كُومةِ تِبنٍ كاملة لأجلِ عُجولٍ نامية".

أمَّا كلاي، فقد شعرَت بارتِباكٍ شديد حِيالَ مُجمَل الظُّروف القائمة. ولكي تصرِفَ ذِهنَها عن تَشوُّشِها، استغلَّت كلَّ دقيقة فائضة في تَعلُّمِها بالمُراسَلة البَريديَّة. فإذا بالمُقرَّر الدِّراسيِّ الذي كان ينبغي عادةً أن يستغرِقَ حتَّى الصَّيف التَّالي قد أُنجِزَ قبلَ عيد الميلاد.

كان القِسِّيس وَدودًا تُجاهَها دائمًا، ولكنَّه لم يكُن أكثرَ ودادًا منه تُجاهَ كلِّ فردٍ في رعيَّته. مع ذلك لم يسَع كلاي أن توقِفَ وُثوبَ قلبِها السَّخيفَ، ولا تَمنِّيَها أنَّه رُبَّما- رُبَّما فحسْب- كان قد لاحظها وكان على وجه الاحتمال أكثَرَ مُجامَلةً لها مِنهُ لبعضٍ من الصَّبايا الأُخَر. فأحيانًا يئسَت؛ وأحيانًا أُخرى حلَمَت...ليتَ ولعلَّ وعسى!

ثُمَّ في صباح أحَدِ القيامة، بعدَ خِدمَةٍ مؤثِّرة ومُنعِشة على نحوٍ رائع، أمسكَ الواعِظُ الشَّابُّ يدَها وقتًا أطوَلَ قليلًا وهي تُغادِرُ مبنى الكنيسة. كانت هي آخِرَ شخصٍ يُغادِر، وقد توقَّفَت كي تلتقِطَ لوحَ الطَّبشور الذي لها وتردَّه إلى المدرسة.

"صباح الخير، آنِسة لارسون". وابتسَم، ثُمَّ همَس: "أتمنَّى فعلًا لو كُنتِ لا تسكُنين وحدَكِ. تُرى، كيف يتسنَّى لِفَتَى أن يُعرِّجَ عليكِ؟"

فحبَسَت كلاي نفَسَها.

وبعدما سمَحَت بِما رَجَت أنَّه كان مِقدارًا من الوقت مقبولًا، رافقَت آلَ ديڤِس رُجوعًا إلى الدِّيار.

قعَدَ كلارك ومارتي بعدَ الفَطور يستمتِعان بفِنجانِ قهوةٍ ثانٍ. وبدا كأنَّهُ نادرًا ما أُتيحَت لهما الفُرصَةُ بَعدُ لِدَردشةٍ طويلة.

قال كلارك مُعلِّقًا: "يبدو أنَّنا حُزنا كنيسةً نامية حقًّا".

"صحيح، جيِّدٌ جدًّا أن نرى الأولاد يكبرون، مُعطينَ أنفُسَهم...".

"ليس ذلك هو ما أعنيه".

"إذًا ماذا؟"

"لاحظتُ أنَّ نانْدري وافْران، زوجةَ تومي، كِلتَيهما حاملان".

فابتسمَت مارتي. لقد لاحظَت ذلك هي أيضًا، وكانت نانْدري أصلًا قد شاركت مارتي في فرحَتِها.

وبعدَ لحظةً قال كلارك: "ما دُمنا نتحدَّث بشأن النُّموِّ، أعتقِدُ أنَّنا قد أجَّلْنا الأمرَ مُدَّةً أطولَ من اللَّازم".

"ماذا تعني؟"

"هذا البيت...إنَّه صغيرٌ جدًّا في الواقع. كان ينبغي أن نبنيَ غيرَهُ

منذُ دهر".

"يبدو أمرًا غريبًا أن تُفكِّرَ فيه الآن. لاحِظْ مَن يَتواجدُ هُنا كثيرًا، على الأقلِّ في ساعات النَّهار: فقط أنتَ وأنا ولُوك الصَّغير. وقريبًا سيذهَبُ إلى المدرسة هو أيضًا".

فقال كلارك: "صحيح، ولكنَّهم ينطلِقون من هُنا كلَّ صباح ويرجِعون إلى البيت كلَّ مساء، وهُم عادةً لا يأتون وحدَهم...إذا كُنتِ قد لاحظتِ".

فكَّرَت مارتي في مِسي واكْلار إذ كان كُلٌّ منهما يحضُرُ مع صديقٍ بعدَ المدرسة، في أثناء الأسابيع القليلة الأخيرة. كان آرني قد أصبح فتًى كبيرًا مِثلَ أبيه، وبدا أنَّه هو وكلارك يملأان أيَّةَ غُرفة يكونان فيها في الوقت نفسه. ولا شكَّ أنَّ ألِّي، فَراشتَهُم الأنيسةَ الصَّغيرة، ستأخذ في دعوةِ أصدقائها إلى البيت أيضًا في أثناءِ السِّنينَ الآتية. كذلك فكَّرَت مارتي أيضًا في نانْدري وجُوش وطِفلِهما الآتي على الطَّريق. ثُمَّ انتقلَت أفكارُها إلى كلاي والواعظ الشَّابّ. كما أنَّ مِسي كانت تكبر بسُرعة لتصيرَ صبيَّةً بالغة؛ ولن يطولَ الوقتُ قبلَ أن تستقبِلَ زائرًا شابًّا.

فقالت: "لعلَّك على حقّ. لعلَّنا نحتاجُ فِعلًا إلى مَنزِل جديد. فالجوُّ إنَّما يبدو هادئًا جدًّا حين يكونون كلُّهم قد مضَوا إلى المدرسة. ما برحَ هذا المنزِلُ الصَّغير بيتًا عائليًّا حميمًا لنا، يا كلارك". ومدَّت يدَها من فوق الطَّاولة لِتُمسِك يدَه. "شُكرًا لك مُجدَّدًا من أجلِ...".

وضغَطَ كلارك بيَدِه على يدها، قائلًا: "أنا مَن يُقدِّمُ الشُّكر، يا مارتي. كان هذا مُجرَّدَ سَقفٍ فوقَ رأسَينا، أنا ومِسي، حتَّى جئتِ أنتِ وجعلتِ لنا بيتًا".

فغامَت عينا مارتي، وارتعشَتِ ابتِسامَتُها قليلًا عند طرَفَي فَمِها. ثُمَّ قالت: "نعَم، نحتاجُ فِعلًا إلى مساحة أكبر. فيمَ أنتَ مُفكِّر؟"

"أظُنُّ أنَّني سوف أقضي الشِّتاء ناقِلًا أزناد الخشَب. هذا البيتُ الجديد هُنا...ما بَرِحتُ أُفكِّرُ فيه كثيرًا. لن يكونَ بيتَ أزنادٍ فحسْب. إنَّه سيكونُ بيتَ ألواح...ألواحٍ جميلة".

"سوف يُكلِّفُ ذلك ثروةً".

"ليس كذلك حقًّا. توجَدُ مَنشرةٌ الآنَ هُناك عبْرَ النَّهر. وفي وسعي ان أُقايِضَ أزنادي بألواحِ خشَب. وما بَرِحتُ أُفكِّرُ في الطِّراز أيضًا. ما شعورُكِ حِيالَ دَورٍ عُلْويّ، لا مُجرَّدِ عِلِّيَّة بل دَورٍ عُلْويٍّ حقيقيّ؟ مع درَجٍ للصُّعودِ إليه، لا سُلَّم. على غِرار تلكَ البيوت الفخمة هُناك في الشَّرق البعيد".

حبَسَت مارتي نفَسَها. ثُمَّ قالت بحَذَر: "يبدو لي أنَّ لدَيكَ أحلامًا كبيرة جميلة"، وهي لا تُريد أن تُبدِّدها.

"رُبَّما...رُبَّما لديَّ، ولكنَّني أُريدُ منكِ أيضًا أن تحلُمي قليلًا. أُريد لهذا البيت أن يشتمِلَ على ما تحتاجين إليه حقًّا. مزيدٌ من النَّوافِذ، وخزائنُ للثِّياب بدَلًا من أوتاد التَّعليق...مهما أردتِ. فاحْلُمي قليلًا،

ودوِّني أحلامَكِ على ورَق. سنرى إن كان لا يسعُنا أن نجعل بعضَ الأحلام تتحقَّق".

أخيرًا سألت مارتي: "متى، كلارك؟" وقد شعرَت بالارتباك تقريبًا حِيالَ الإمكانيَّة، لكنْ أيضًا بالقلَق حِيالَ كونِ الأمر فوقَ الطَّاقة.

أجاب: "ليس السَّنةَ التَّالية...لا أعتقِدُ ذلك. سوف يستغرق الأمرُ مُدَّة طويلة للحصول على تلك الأزناد كلِّها. إنَّما في السَّنة التي بعدَها...ينبغي أن أكونَ قادرًا على إتمام الأمر آنذاك بالتأكيد".

فقالت مارتي مشدوهة: "يبدو الأمرُ...يبدو...كأنَّه حِكايةٌ من حِكايات الخيال!" وقد قبِلَت أخيرًا حقيقةَ كونهِ يمكن أن يتمَّ فعلًا.

ابتسمَ كلارك ابتسامةً عريضة، وهبَّ واقفًا. ثُمَّ مدَّ يده ومسَّ شعرها.

"هل قلتُ لكِ يومًا إنَّني أُحِبُّكِ، سيِّدةُ ديفِس؟"

قالت مارتي، مُغَضِّنةً أنفها: "سمِعتُ ذلك قبلًا، ولكنَّه يحتمِلُ التَّكرار، بين حينٍ وآخر". ثُمَّ أمسكت يده وألصقَتها بخدِّها.

فأمالَ رأسَها نحو رأسه، ثُمَّ انحنى ليطبَعَ قُبلةً على جبينها.

وقال: "على فِكرة، تلك قهوةٌ جيِّدةٌ جدًّا".

٢٨

العِيشة والتَّعلُّم

وصَلَت مِسي إلى آخِرِ سنَة لها في المدرسة المحلِّيَّة تحتَ إشراف كلاي. وإذ بلَغَت أيَّامُها المدرسيَّة نهايتَها، أوشكَت أيَّامُ لُوك أن تبدأ. كانت كلاي قد وعدَت المدرسةَ بفَصلٍ دراسيٍّ واحِدٍ بَعد، ومِن ثَمَّ كان مَرجُوًّا أن تتسلَّمَ مِسي الوظيفة، لأنَّها هي أيضًا قرَّرت أن تدرس في دار المُعلِّمين.

وإذ رجعَت كلاي لتعيشَ من جديد في بيت آل ديڤِس، كان واضحًا أنَّها لم تكُن ملتزِمةً أن تقضيَ حياتها في التَّعليم، مع أنَّها كانت بالتَّأكيد مُعلِّمةً ناجحة وقد أحبَّها تلاميذُها. وقد كانت مارتي على يقينٍ بأنَّ كلاي سوف تكونُ زوجةَ قِسِّيسٍ مُمتازة. ومع أنَّ أهلَ بيتِ ديڤِس نالوا حِصَّةَ الأسَد من زيارات الواعظ الشَّابّ، فهو لم يُهمِل باقيَ أبناء أبرشيَّته. إنَّما السَّيِّدةُ واتلِي وحدَها لقِيَت صعوبةً فعليَّة في تَواتُرِ زياراته لبيت آل ديڤِس.

لم تكَد مارتي تُطيقُ فِكرة مُغادَرةِ مِسي المنزِلَ لأجلِ مزيدٍ من التَّعلُّم. فبطريقةٍ ما، بدَت مُواجَهةُ ذلك أصعَبَ منها عندَ مُغادَرةِ

كلاي. لقد كانت مِسي أصغَرَ سنًّا بقليلٍ من كلاي عند مُغادرَتِها، إذ لم تبدإ الذَّهابَ إلى المدرسة في السَّادسة من عُمرها تمامًا. ففي الواقع أنَّ كلاي كانت أكبَرَ سنًّا لمَّا بدأت تتعلَّم. ولكنَّ مارتي علِمَت أنَّه كان عليها أن تُعِدَّ نفسَها عقليًّا وعاطفيًّا لِما هو محتوم.

قضى كلارك أشهُرَ الشِّتاء ينقُلُ الأزنادَ إلى المنشرة عند ضَفَّةِ النَّهر الأُخرى. وقد سُرَّ كثيرًا بالتَّقدُّم الذي كان يُحرِزُه، ولم يرَ أيَّةَ مُشكلة في تخطيط البيت الجديد وبنائه في أثناء السَّنة المُقبِلة.

وُلِدَت طِفلةُ نانْدري، وسُمِّيَت تينا مارثا، على اسمَي جدَّتَيها لأمِّها، كما قالت نانْدري. وشعرَت مارتي بأنَّها كُرِّمَت جدًّا.

وإذ حملَت مارتي الصَّغيرة الغضَّة، قالت لكلارك: "حسنًا، أيُّها الجَدُّ! ها نحنُ قد وضعنا أقدامَنا في عالمَين...فنحنُ أبَوان وجَدَّان في آنٍ مَعًا". فضحِكَت العائلة وتمازحَت بشأن ذلك كلِّه، وتساءل لُوك ماذا ينبغي له الآن أن يدعو ما وپا.

وصَلَ طِفلُ افْران وتومي في الوقتِ نفسه تقريبًا، وقد كان صبيًّا مُعافًى قويًّا، فسَميَّاه بَن وباتَ في الحال بَن الصَّغير.

كذلك وضعَت سالي آن مولودَها الثَّالث، ولكنَّ أمِلي الصَّغيرة عاشت ثلاثةَ أيَّامٍ فقط، وحُفِرَ في المقبرَةِ بِحُزنٍ قبرٌ صغيرٌ جديد على مقربة من الكنيسة.

والآنَ كان رَت مارشال يعتني جيِّدًا بِحصانَي عربة، كما لو كان

رجُلًا بالغًا. لقد أحبَّ الحيوانات، داجِنةً أو برِّيَّة، حتَّى إنَّه اقتنى أرنبًا فتيًّا طويلَ الأُذُنَين والقائمتَين الخلفيَّتين جعلَه حيوانَه المُدَلَّل. كان النَّاس أحيانًا يُعلِّقون قائلين إنَّه صبيٌّ غريب، ولكنَّ أصواتَهُم كانت تنطوي على إعجاب. وقدِ استأجَرَ بِضعةُ مُزارِعين خِدماتهِ لدى احتياجِهم إلى ذِراعَين قويَّتين ومُساعَدةٍ في شؤون الحيوانات.

تذكَّرت مارتي أنَّها سمِعَت مُصادَفةً حديثًا من مُدَّة طويلة بين إحدى الجارات والطَّبيب. لقد قالت المرأة: "دُكتور، كثيرًا ما أتساءل: هل تمنَّيتَ يومًا لو أنَّكَ...رُبَّما...حسنًا...لم تُكافِحْ بِضَراوةٍ تامَّة كما فعلتَ عند ولادة صَبيِّ آلِ مارشال؟"

وقد نظَرَ إليها الطَّبيبُ لحظةً، ثُمَّ قال بهدوء: "طبعًا لا!" ثُمَّ أردف: "أنا لم أصنَعْ تلك الحياة، بلِ الخالِقُ صنَعَها. ولمَّا صنَعَها، كانت لديه- كما أتوقَّع- أسبابٌ وجيهة لِصُنعِها كما صنَعَها...ومهما كان ذلك السَّبب، فهو في يدَيه".

فكَّرَت مارتي في ذلك كُلَّما شاهدَتِ الصَّبيَّ يَصفِرُ لِعُصفورٍ فيُوافيهِ هابطًا، أو يُصادِقُ كلبَ مُروج. وفكَّرَت في ذلك أيضًا لمَّا رأتِ الحُبَّ في عينَي ونْدا وفخرَ كام بِابْنِه.

أمَّا مزرعةُ آل لاهاي ومَبانيها فما عادت تُمثِّلُ أيَّ شيء خصَّ جَد لارسون يومًا. فقد كان زيك لاهاي مُزارِعًا صالحًا يعرِفُ الأرضَ جيِّدًا. وتحتَ عِنايتهِ أنتجَت الحقول وازدهرَت المزرعة. كما طوَّقَت

المُمتلَكاتِ صفوفٌ مُرتَّبة من السِّياج. ولكنْ رُغمَ ازدهار المزرعة ومَبانيها تمامًا، بقِيَت السَّيِّدة لاهاي سيِّئةَ الصِّحَّة. وقد تزوَّجَ ابنُهما ناثان فتاةً من المدينة، ونقَلَها إلى البيت الكبير للإقامة مع العائلة. كانت شابَّةً لطيفة، واستطاعت أن تتولَّى قِسطًا كبيرًا من تدبير شؤون البيت. فكان ذلك مصدَرَ عَزاءٍ عظيمًا للسَّيِّدة لاهاي الكُبرى.

جلست مارتي على كُرسيِّها الهزَّاز، ورِداءٌ مُمزَّقٌ آخَر من أرديَة كلارك السِّروالِيَّة في حضنها، وفكَّرَت في جميع التَّغييرات الآخِذة في الحصول. لقَدِ انتقلَ إلى الحيِّ جِيرانٌ جُدُد. وباتَت أراضٍ قليلةٌ جدًّا صالحةٌ للزِّراعة غيرَ مُستعمَلةٍ الآن. وقد برَزَت مَبانٍ جديدةٌ في البلدة، بين ليلةٍ وضُحاها تقريبًا على ما بدا، فيما أُضيفَت مَشاريعُ تجاريَّةٌ جديدة. كذلك كانت البلدة قد بنَت لها كنيسة خاصَّة، وأتَت بقِسِّيسٍ كي يعتنيَ بالنَّاس. وباتَ موجودًا حتَّى مكتَبٌ للشَّريف ومَصرِف. وكانت عرَبةُ رُكَّابٍ عموميَّةٌ تجولُ الآن بين البلدات المحلِّيَّة. فهذه التَّطويراتُ كلُّها جعلَت حيَّهُم الصَّغيرَ لا يجعَلُهم بَعدُ يشعرون بأنَّهم عائشونَ عندَ التُّخوم. عجَبًا، لقد باتوا تقريبًا مُكتَفِين ذاتيًّا!

لقد كانت لهم كنيسَتُهم، وكانت لهم مدرسَتُهم، وكان لهم طبيبٌ يستطيعون أن يُعرِّجوا عليه. فيقينًا أنَّ مارتي لم تعُد تعتَبِرُ نفسَها امرأةً من رائدات الاستِيطان.

شهِدَ الصَّيفُ التَّالي اتِّحادَ كلاي والقِسِّيس الشَّابِّ بالزَّواج. وبدَلًا من الطَّلَب إلى قِسِّيس المدينة أن يُجريَ مراسِمَ الزِّفاف، سافَرَ العروسان الشابَّان رُجوعًا إلى الشَّرق، إلى بلدة العريس. فقد كان القِسِّيس جو توَّاقًا إلى تعريف عائلته بكلاي، ومُشتاقًا أيضًا أن يُجريَ قِسِّيسُه السَّابقُ المَراسِم. لا شكَّ أنَّ آل ديڤِس تأسَّفوا لأنَّهم فوَّتوا الحَدَث، ولكنَّهم خطَّطوا لإقامةِ عشاءٍ من حواضِرِ البيت لأهل الحيِّ على شرَفِ العروسَين لدى رُجوعهما.

اتَّفقَ مجلِسُ المدرسة على تأجير بيت المُعلِّم لِلقِسِّيس وزوجته لِقاءَ مبلَغٍ زهيد. فكان ذلك حسَنًا بالنِّسبة إلى مِسي، إذ كانت تُفضِّلُ أن تسكُنَ مع عائلتها لدى مُباشرَتِها لِمَهامِّها. ولا شكَّ أنَّها قد أدركَتِ القُيودَ على حياتها الاجتماعيَّة إذا اضطُرَّت إلى الإقامة وحدَها.

رُغمَ حادثٍ سيِّيء بواسطةِ فأس، أنجَزَ كلارك حِصَّتَهُ من الأزناد في الشِّتاء التَّالي.

كان يقطَعُ أزنادًا وحدَه على مُنحَدر التَّلِّ لمَّا انزلقَ نَصلُ الفأس عن عُقدَةٍ ودوَّمَ مُنحَرِفًا، فأحدَثَ جُرحًا عميقًا في قدَمِه. فضمَّدَ قدَمَه على أفضل نحوٍ يستطيعُه، حازِمًا طُحلُبًا علَيها، وربَطَها ربطًا مُحكَمًا بقِدَّةٍ من قميصه. وكانَ يُحاوِلُ أن يصِلَ إلى البيت على ظهرِ ايْرِنس، أحَدِ أحصِنَة الشُّغل الجديدة عنده، إذِ التقاهُ توم غراهام.

لم يكُنِ ايْرِنس مُتعوِّدًا أن يُمتَطى، وكانت يدا كلارك مشغولتَين

بمُحاوَلتهِ السَّيطرةَ على الحِصانِ الهائج، رُغمَ حالَتهِ المُضعَفة. كان قد فقَدَ كثيرًا من الدَّم، فسُرَّ تمامًا بأن يتلقَّى مساعَدةً في التَّرجُّل عن الحِصان الجَفُول والصُّعود إلى صُندوقِ عرَبة توم، حيثُ أُتيحَ له أن يستلقي.

حثَّ توم الحِصانَين على التقدُّم، في مُحاوَلةٍ لإيصال كلارك إلى البيت بأسرَعِ ما يُمكن. وحالًا ألقى أطقُمَ الأحصِنة على السِّياج، وساعَدَ كلارك للدُّخول إلى البيت، ثمَّ قفَزَ على حصانهِ الخاصِّ لِيَذهبَ ويُحضِرَ الطَّبيب.

كادت مارتي تُصابُ بالإغماء عندَ مرأى كلارك. وحاوَلَ أن يُطَمئنَها بأنَّه سيكونُ بخير، إلَّا أنَّ وجهَهُ كان بالِغَ الشُّحوب، ويدَيهِ كانتا كثيرتَي الارتجاف، بحَيثُ لم تقتَنِع. ثُمَّ اصطحبَته إلى السَّرير، حيثُ اهتمَّت واضطربَت بشأنه، وهي لا تكادُ تعلَمُ ما ينبغي أن يُعمَل.

كان توم قد نصحَها من فوق كتِفه وهو مُغادِر: "إن لم تَرَي دمًا جديدًا، فالأحسَنُ لكِ أن تترُكي تلك القدَمَ وشأنَها حتَّى يصِلَ الطَّبيبُ إلى هُنا".

تفحَّصت مارتي القدَمَ بحثًا عن آثارِ دمٍ جديد، ولكن- والحمدُ لله- لم يظهر أيُّ أثَرٍ في ما بدا.

"هل تستطيع أن تأكُلَ قليلًا من الحَساء إذا أعدَدتُه؟ سوف تحتاجُ إلى قوَّة، كما تعلَم". فلِكَونِها امرأة، ذهبَت أفكارُها إلى التَّغذية.

في بادئ الأمر، لم يبدُ ذلك جذَّابًا لكلارك كثيرًا، ولكنَّه أومأ برأسه إيجابًا، ثُمَّ قال مُنبِّهًا: "لا أُريدُه حارًّا جدًّا، بل دافئًا قليلًا".

فأذعنَت مارتي. وبدا الوقتُ المُنقضي قبلَ وصول الطبيب لا ينتهي، إلَّا أنَّ مارتي سمِعَت أخيرًا حِصانًا يقترِب. وبقِيَت خارجَ الغُرفة فيما نظَّفَ الطَّبيبُ الجُرحَ وقطَّبَه. وقد سمِعَت كلارك يئِنُّ مرَّتَين، فكادت رُكبتاها تلتَوِيان تحتَها.

وفيما حاولَت أن تُشغِلَ نفسَها في المطبخ، فاجأها صوتُ الطَّبيب: "وأنتِ شاحِبةٌ مِثلَه تقريبًا. فالأحسَنُ لكِ أن تقعُدي وتشربي فِنجانَ شايٍ خفيف ساخنًا مع قليلٍ من العسَل". ثُمَّ أجلسَها على كُرسيٍّ، وأحضَرَ لوازِمَ الشَّاي.

ناوَلَها الطَّبيبُ الفِنجان، قائلًا: "سيستَغرِقُ الأمرُ مُدَّةً، ولكنَّه سيكون بخير. فهو شابٌّ وقويّ، وسيُشفَى. إنَّما مَهمَّتُكِ الأساسيَّة ستكونُ مَنعَه من الوقوف على قدَمِه، لكي تُتاحَ لها فُرصَةٌ للشِّفاء على الوجه الصَّحيح. عندي انطِباعٌ بأنَّ مَهمَّتَكِ لن تكونَ سهلة. ألا تستطيعين تكليفَهُ أن يُصلح أو يُضَرِّبَ لِحافًا؟"

نضَحَت عَينا الطَّبيب فُكاهةً، فلم يَسَع مارتي إلَّا أن تضحك. إنَّ فِكرةَ جلوسِ كلارك راضيًا وفي يدِه الكبيرةِ المُشتَغِلة إبرةٌ صغيرة، وهو يُناغِمُ قِطَعَ قُماشٍ أنيقةً لِتَنجيدِ لِحاف، كانت فِكرةً استِثنائيَّةً فعلًا. وقد ربَّتَ الطَّبيبُ كتِفَها وضحِكَ هو أيضًا.

وعلى الرُّغم من عُمقِ الجُرح وفُقدانِ الدَّم، شُفِيَتِ القدَم شفاءً سليمًا وسريعًا. وقد تولَّى اكْلار وآرني بكُلِّ كفاءةٍ القِيامَ بِالمَهامِّ، مُخبِرَين أباهُما بكُلِّ ما يتعلَّق بذلك عند رُجوعِهما لِتناوُلِ العَشاء.

وكما سبَقَ التَّنبُّؤ، كانت مُشكلةُ مارتي الكُبرى إبقاءَ كلارك مُستريحًا مِثلَما أوصى الطَّبيب. وقد تذمَّرَ وتَملمَل لعدَم تَمكُّنِهِ من القِيام والاشتِغال كسابقِ عادَتِه.

دأبَ صِهرُهم الجديد، القِسِّيس جو، أن يأتيَ كُلَّما استطاع لأجلِ لُعبَةِ ضاما، وكان يصطحِبُ كلاي عادةً. وكان جيرانٌ آخرون يأتون زائرين دونَ تَوقُّعٍ بين الفَينة والفَينة. وقد أعلموا كلارك أنَّ أزنادَ الخشَب التي قُطِعَت أصلًا سوف تُنقَل بالعرَبات إلى المَنشرة قبلَ ذوَبان الثَّلج في الرَّبيع، كما كان قد خطَّطَ تمامًا. فقَبِلَ كلارك معروفَهم بتقديرٍ عميق. ولا شكَّ أنَّهم هُم تذكَّروا جميعَ المرَّات التي فيها سبقَ أن مدَّ كلارك إلَيهم يدَ المُساعدة لمَّا كانوا في ضِيقاتٍ خانقة.

وأحضرَت له مِسي كُتُبًا من المدرسة ليقرأ، الأمرُ الذي ساعدَهُ على تمضية ساعاتٍ كثيرة.

أخيرًا انتَهت المِحنةُ الطَّويلة، وأعلَنَ الطَّبيبُ أنَّ القدَمَ قد شُفِيَت كِفايةً بحَيثُ يستطيعُ أن يقِفَ عليها من جديد. كان كلارك يعرُج، ولكنَّه على الأقلِّ عادَ يقِفُ على قدَمَيه: حقيقةٌ كان كلُّ فَردٍ من أهل البيت شاكرًا من أجلها حقًّا. وقد لاحظت مارتي أنَّ عرَجَ كلارك بدا

في بعض الأيَّام أسوأ منه قليلًا في سِواها. فقالت لنفسها: **لا بُدَّ أنَّ الأمر ما زال يُزعِجه.**ولكنْ لمَّا سألَته عن ذلك، لم يُلقِ بالًا لِمَخاوِفها حاسبًا إيَّاها عديمةَ الأهمِّيَّة.

في أثناء النَّهار، كان المَنزِلُ يُخلَى لِمارتي وكلارك وحدَهما. فأوَّلًا بغياب مِسي في دار المُعلِّمين نِصفَ السَّنةِ الدِّراسيَّة، والآنَ بذَهاب لُوك إلى المدرسة، رُوعِيَت شعائرُ الانتِقال في أُسرة آل ديڤِس.

حالَما باتَ كلارك قادرًا، عادَ إلى جَمعِ الأزناد من جديد. كان رِجالُ الجِوار، وفاءً بوَعدِهم، قد نقَلوا فِعلًا جميعَ الأزناد التي سبقَ أن قطَعها كلارك. ولكنْ بمُقتَضى حِساباتِه، كان بحاجةٍ بَعدُ إلى حُمولَةِ أربَعِ عرَبات أُخرى.

راقبَتهُ مارتي يُغادِرُ كلَّ صباح شاعرةً بشيءٍ من القلَق، وهمَسَت صَلاةَ شُكرٍ صامتةً كُلَّما رجَعَ بسلام في آخِرِ النَّهار.

كانت مارتي تُفكِّرُ في الرَّبيع ومُباشَرةِ العمَل في البيت الجديد الموعود. فإنَّ البدءَ بالبِناء الفِعليِّ لا بُدَّ أن يكتسِبَ معنًى خاصًّا، لأنَّه ما إن يُباشَرُ حتَّى يصير الإذن بانتهاء رِحلات كلارك اليوميَّة والمُنفَرِدة إلى الغابات.

راقبَت مارتي فيما كان البيتُ الجديدُ، المبنيُّ بألواحِ الخشَب، يكتَسِبُ شكلَه. وقد كان أكبَرَ بَعدُ مِمَّا حلَمَت به. وكانت في كُلِّ

غُرفةٍ نوافِذ. وقد زيَّنَ مُستوقَدٌ من الحجَر الطَّبيعيِّ لا حُجرَةَ جُلوسِ العائلة والرَّدهة فقط، بل غُرفةَ نَومِها أيضًا.

كان كلارك قد حصَلَ على خِدماتِ رجُلَين من البلدة لِيُعاوِنا في البناء، بحَيثُ استمرَّ العمَلُ أيضًا فيما هو يشتغِلُ في الحقول. وقد قاسَت مارتي النَّوافِذَ واشترَت قُماشًا للسَّتائر كي تكونَ جاهزةً للتَّعليق متى اكتمَلَ البَيت.

ما كان البيت ليُنجَزَ تمامًا قبلَ الخريف، ولكنَّهم خطَّطوا أن يحتفلوا بعيد الميلاد المُقبل في بيتهم الجديد. وسيحَضُرُ في البيت نانْدري وجوش وتِينا الصَّغيرة، وفَردٌ ثانٍ جديد في العائلة حينَذاك، فضلًا عن القِسِّيس جو وكلاي، ليُشارِكوهم جميعًا في تناوُلِ ديك الميلاد الرُّوميّ. حتَّى إنَّ في وسعهم أن يبيتوا هُناك ليلًا إذا رغِبوا، ولن يتعثَّرَ أحدٌ مِنهم بآخَرَ في أماكِن غَيرِ مُتوقَّعة.

كان ذلك شيئًا رائعًا يَرنُون إليه، وقضَت مارتي ساعاتٍ كثيرةً وهي تُخطِّطُ وتَخيط وتحلُم.

٢٩

زائرو مِسي

أطبقَت مِسي دفترَ التَّمارين الذي كانت تُصحِّحُه وأطلقت تنهُّدةَ رِضًى. كان صعبًا أن تُصدِّقَ أنَّها دخلَت فِعلًا سنَتَها الثانيةَ في التَّعليم. وقد أحبَّت ذلك. صحيحٌ أنَّه كان في غُرفةِ تدريسها بعضُ المشاكسين، ومن جُملَتهم أخوها الصَّغير لُوك، ولكنَّها عُمومًا كانت مسرورةً بكونها قد اختارت أن تكونَ مُعَلِّمة.

كدَّسَت الدَّفاتِرَ معًا بترتيب وقامت لِتُنظِّفَ لوحَ الطَّبشور. وإذ كانَ ظهرُها نحوَ الباب، صرَخَت خوفًا لمَّا طوَّقَتها يدانِ لِتُغطِّيا عينَيها.

وقال صوت: "مهلًا، مهلًا، لا بأس! لم أقصِد أن أُخيفَكِ، بل أن أُفاجئَكِ قليلًا فقط".

فالتفتَت مِسي لِتُحَدِّقَ في وجه وِلِي لاهاي. وعَبْرَ ذِهنها ومَضَ الجُرَذُ المَيْت، والجُندُب، وغيرُهما من المزحاتِ البَغيضة التي سبقَ أن لعِبَها وِلِي في ما مضى. فتحوَّل خوفُها إلى غضَب، ودارت مُبتَعِدةً باشمِئزاز.

انفجرَت قائلةً: "وِلِي لاهاي؟ متَى ستَكبر؟"

وفي الحالِ أرادت أن تعضَّ لسانَها، لأنَّ عينَيها أكَّدَتا لها أنَّ وِلِي لاهاي قد كبُرَ فعلًا...على الأقلِّ من الخارج.

اعتَلَت كتِفانِ عريضتان ذِراعَينِ قويَّتين مفتولتَي العَضَل، بارِزتَين داخِلَ كُمَّيه القصيرَين. ودلَّت سَوالِفُ كثيفةٌ إلى ما ستكونُ علَيه لِحيَتُه لو لم يكُن حليقَ الوجه تمامًا. وكان على مِسي أن ترفعَ نظرَها مسافةً لا بأسَ بها لِتُبديَ أماراتِ غضَبِها.

فما كان من وِلِي إلَّا أنِ ابتسَمَ تلك الابتسامةَ الصِّبيانيَّةَ المُغضِبةَ نفسَها.

ودارت مِسي ثانيةً على عَقِبها.

"حسنًا، الآنَ وقد أدَّيتَ دُعابتك، يُمكِنُك أن تحمِلَ نفسَك خارجًا من الباب حالًا. إنَّني مشغولة".

فلم ينزعِج قطُّ من غضَبها، في ما بدا، بل قال: "ولكنَّني جئتُ لأرى غُرفة الدَّرس الجديدة. أعتقِدُ أنَّ في وسعي أن أستفيدَ من مُساعَدةٍ قليلة في تِلاوتي للأبجديَّة". ثُمَّ تحرَّك دائريًّا ليصير قُدَّامَها.

"ألِفٌ أوَّلُ أسَد، باءٌ أوَّلُ بَيت". وأكمل التِّلاوة: "جيمٌ أوَّلُ جرَس...هاءٌ أوَّلُ هُدى. وذلك تقريبًا هو أقصى ما أستطيعُ الوصولَ إليه".

"لستَ مُضحكًا...ثُمَّ إنَّكَ تخطَّيت الدَّال".

فقال وِلِي: "دال،...هَمْم! تقريبًا، الشيءُ الوحيد الذي أستطيع تذكُّرَه وأوَّلُه دال هُوَ...دَلال!"

احتدمَت مِسي غَضَبًا حتَّى فكَّرَت في رَميِ مِمحاة الطَّبشور التي تبيَّنَ لها أنَّها ما زالت في يدها.

وبادرَت قائلةً بحَزم: "وِلِي لاهاي!"

فقالَ وِلِي بارتياح: "أنا أعرف، أنا أعرف. لستُ مُضحِكًا. ففي الواقعِ أنَّني عرَّجتُ علَيكِ لأُبلِّغَكِ خبَرًا سارًّا".

فسألَت مِسي فورًا: "مثَلًا...؟"

"مثَلًا، أنا راحِل".

"أنتَ ماذا؟"

"أنا راحِل. سوف أتوغَّلُ غربًا بَعد". وقدِ انقلَبَ فجأةً.

"إلى أين؟"

"لستُ على يقين. أنتِ تعلمين أنَّ أبي لمَّا استقرَّ هههُنا كان ينوي أن يمضيَ قُدُمًا إلى مكانٍ أبعد. ولو لم تمرَضْ أُمِّي، لَمَضَينا. حسنًا، لقد كنتُ دائمًا خائبَ الأمَلِ قليلًا. أوَدُّ نوعًا ما أن أرى ما وراءَ الجبَلِ التَّالي. لقَدِ استوطنَ أبي هههُنا الآن، وناثان تزوَّج وسكن هُنا أيضًا، فبدأتُ فجأةً أُفكِّرُ في عدَم احتياجِهم إليَّ هُنا إطلاقًا".

كانت مِسي قد هدأت قليلًا، وباتت مُستعدَّةً للمُحادثة إذا راعى وِلِي الحالَ والمشاعِر.

"ما رأيُ أبيك؟"

"ما أخبَرتُه بَعد".

"متى سترحَل؟"

فهزَّ وِلِي كتِفَيه لامُبالاةً. "لا أدري...ذلك يتوقَّف على بضعة أُمور".

"مثَلًا...؟"

"مثلًا أُمِّي...فهي ما زالت بصِحَّة غير جيِّدة، كما تعلمين، وغيرَ ذلك من الأُمور. فكَّرتُ أن أرحَلَ ربَّما في الصَّيف التَّالي...ربَّما".

"ليس عاجلًا إذًا؟"

"لا أستطيعُ التَّأكيد".

رجَعَت مِسي إلى ألواحها وأكملَت مَحْوَ دروسِ النَّهار.

وسألَ وِلِي: "كيف يجري التَّعليم؟"

فقالت مِسي : "جيِّدًا...إنَّما كان عليَّ أن أُوقِفَ لُوك في زاويةٍ اليوم".

"ماذا فعل؟"

"غمَسَ شرائطَ شَعرِ آن في مَحبرة".

"مُفسِدُ مُتعة!"

تذكَّرَت مِسي غَمْسَ شرائطِها هي في محبرة. وتذكَّرَت مَن فعَلَ

ذلك.

فغضِبَت من جديد، وقالت: "ليس الأمرُ مُبهِجًا. إنَّ شرائطَ الشَّعر تُكلِّفُ مالًا".

"تخميني أنَّها تُكلِّفُ فِعلًا. ما فكَّرتُ في ذلك قَطُّ".

"حسنًا، قلتُ لِلُوك إنَّ عليه أن يوفِّرَ بَنساتهِ كي يشتريَ شرائطَ جديدةً لأليزابيث آن".

"أنت مُعلِّمةٌ ذكيَّة".

"لستُ ذكيَّة...بل فقط...".

"فاتنة؟"

"بالتأكيد لا. انظُر، إن كُنتَ لا تُريد أن تتعقَّل، أرفضُ أن أتحدَّثَ إليك".

ومشَت مِسي عبْرَ الغُرفة لِتُغلِقَ النافِذةَ المفتوحة، فإذا بها تعلَقُ...كالعادة".

"هاكِ، فلأُساعِدْكِ".

وقَفَ وِلِي وراءها تمامًا ومدَّ يديه نحو النَّافذة. فانحبَسَت مِسي بين ذِراعَيه، وتورَّدَ وجهُها. ولم تجرؤ أن تدور، وإلَّا قابلَتهُ وجهًا لوجه.

لم يبدُ وِلِي مُستعجِلًا قطُّ أن يُنزِلَ غَلَقَ النَّافذة. ومعَ نظَرِ مِسي إلى الذِّراعَين البارِزتَيِ العَضَل، علِمَت أنَّ المُشكِلةَ لم تكُنِ افتقارَهُ إلى القُوَّة.

فسألَت- وصوتُها تحتَ السَّيطرة على نحوٍ مفاجئ- "ألا تستطيعُ إنزالَهُ أنت أيضًا؟"

"إنَّه عالِقٌ فِعلًا".

فقالَت رَشْقًا: "وِلِي لاهاي! أنتَ كذَّاب".

فقال: "صحيح!" وهو يبتسِمُ ابتِسامةً عريضة فيما نزَلَ غَلَقُ النَّافذة إلى مكانهِ دونَ جَهد. وقد كانت مِسي هُناك، واقِفةً داخِلَ طَوق ذِراعَي وِلِي الممدودتَين.

وقبل أن يتمكَّنَ وِلِي من القِيام بحرَكةٍ أُخرى، انحنَت مِسي تحتَ ذِراعَيه، ثُمَّ تراجعَت خطوةً وعيناها تقدحانِ شرَرًا. ثُمَّ دارت على عَقِبها وانتزعَت معطفَها.

"رجاءً، تَحقَّقْ أنَّ الباب مُغلَقٌ عندَما تُغادِر!" ألقَت ذلك من فَوقِ كَتِفها، ومضَت.

ذلك الخريفَ استقبلَت مِسي زائرَها الأوَّل. يقينًا أنَّها لم تحسُب تعريجَ وِلِي على مبنى المدرسة زِيارةً فِعليَّة. وقد علِمَت مارتي أنَّ هذا الوقتَ في حياة ابنَتهما كان محتومًا أن يأتيَ، وعاجلًا. ولكنَّها، مع ذلك، كانت غيرَ مُستعِدَّةٍ له لمَّا حصل.

كانت مِسي أصغَرَ فِردٍ في صفِّها بِدار المُعلِّمين. ومع أنَّها هي لم تذكُرِ الأمرَ قطُّ، فقد كانت طالبةً محبوبةً أيضًا. كانت بينَ الفَينة

والفَينة منذُ عودتها إلى الدِّيار تُشيرُ إلى طالبٍ زميلٍ أو آخَر، ولكن لم يكُن لدى مارتي أيُّ سبَب لِتَشعُرَ بأنَّ أحَدَهم كان أعزَّ من الآخر. ثُمَّ ذاتَ يومٍ ظهَرَ عندَ بابِ آل ديڤِس شابٌّ طويلُ القامة، أشقَرُ الشَّعر قليلًا، حسَنُ الهِندام، دَمِثُ التَّصرُّف. وقد وقَفَ حِصانٌ كبيرٌ جميل، يبدو أنَّ فيه شيئًا من دَمِ السِّباق، مربوطًا بحَبلٍ طويل عندَ دَرابزون شَدِّ الخَيل.

بادرَ قائلًا: "كيف الحال؟ اسمي غرانْت ثوماس. رجاءً، هلِ الآنِسَةُ مَلِسَّا ديڤِس في الداخل؟" وقد كان صوتُه مُتَّسِمًا بالاحترام الجزيل.

فقالت مارتي مُتلَعثِمةً: "عجَبًا...عجَبًا، نعم...هي في الدَّاخل". وأخيرًا استعادت لِسانَها ولِياقةَ تَصرُّفها. "هلَّا تتفضَّلُ بالدُّخولِ، إذا سمحتَ!"

"شُكرًا لكِ. وأنتِ والدةُ مَلِسَّا؟ كثيرًا ما تحدَّثَت عنكِ؟"

كانت مارتي ما تزال مُرتبِكة. "هذا صحيح...رجاءً، ادخُل. سأدعو مِسي...أُمْ...مَلِسَّا في الحال".

بدَت مِسي مسرورةً برؤيةِ الشَّابّ. ورصَدَت مارتي بدِقَّة علاماتٍ تدلُّ على ما يتخطَّى مُجرَّدَ السُّرور برؤيةِ زميلِ دراسةٍ قديم.

بقيَ غرانْت للمُشاركة في العشاء، وتبيَّنَ أنَّه شابٌّ هادئٌ ذكيّ. وقد بدا كلارك مُبتهِجًا به إلى حدٍّ بعيد، وحاولَت مارتي أن تبعث إلى كلارك بِتَنبيهاتٍ صامتة إلى أنَّه لا ينبغي له أن يُشجِّعَه فوقَ الحدّ.

تحادَثَ الشابَّان، وتضاحكا إلى طاولة العشاء، وقد بدا أنَّهما يستمتِعانِ تمامًا برِفقةِ أحدِهما للآخَر، الأمرُ الذي جعَلَ مارتي تُحِسُّ ارتِجافاتِ خوفٍ يسيرةً غريبةً تجري في أوصالِها. لقد كانت مِسي صغيرةَ السِّنِّ، إذ لم تتخطَّ عامَها السَّابعَ عشَر. فتضرَّعَت مارتي: رجاءً، **يا ربُّ، رجاءً، لستُ على استعدادٍ للتَّخلِّي عن عزيزتنا مِسي بَعد!**

قال لهُم غرانْت إنَّه ينوي أن يركَبَ راجعًا إلى المدينة قبلَ هُبوط اللَّيل، فأسرَجَت مِسي الفرَسَ لايْدي وامتَطَتها مُرافِقةً إيَّاه جُزءًا من الطَّريق.

لمَّا رجَعَت، رأتها مارتي تذهبُ إلى بوَّابة المَرعى لِتُطلِقَ سراحَ لايْدي، حيثُ مسَّدَتها ولاطفَتها قبلَما أطلقَتها في حالِ سبيلها. ولمَّا توقَّفَت مِسي في الخارج عندَ الحوض لِتَغسِلَ يدَيها، بدَت على طبيعتِها تمامًا بِما فيه الكِفاية. ثُمَّ توقَّفت على الشُّرفة لِتُبديَ إعجابها بغِطاء المِخدَّة الذي كانت البِنتُ الصُّغرى أليِّ تشتغِلُ فيه، قبلَ أن تدخُلَ المطبخ مُدَندِنةً بينَها وبينَ نفسِها، كما كانت تفعَلُ أغلبَ الأوقات.

كانت مارتي قدِ التقطَت مَحبوكتَها بسُرعة، وكانت تُحاوِل أن تبدوَ هي أيضًا على طبيعتها. فبادَرَت قائلةً: "هذا الشَّابُّ غرانْت الذي كان هُنا، لا أتذكَّرُ أنَّكِ قُلتِ الكثيرَ عنه".

"ليس مِن كثيرً يُقال. فلنرَ...".

كان في وسع مارتي فِعلًا أن ترى خديعةَ مِسي مُقبِلةً: **ألقي على ماما**

قالت مِسي مُستعجِلةً: "إنَّه أكبَرُ منِّي بثلاثِ سنين، وهو وحيدُ أهلِه. والدتُه قائدةُ مُسَاعدَةُ السَّيِّدات ووالِدُه طبيب. يُقيمُ أهلُه في بيتٍ حجَريٍّ كبير على شارِع مايْبِل، كما أظُنّ، لا يبعُدُ عن دار المُعلِّمين إلَّا نحوَ سبعةِ صُفوفٍ من المباني. إنَّهُم يحبُّون استِقبالَ الضُّيوف، ولذلك يُرحِّبونَ بأصدقاءِ غرانْت- الأمرُ الذي يشمَلُ الجميعَ تقريبًا- لِشُربِ الشَّاي، أو لِعبِ التَّنِس، أو سِوى ذلك". وختمَت بابتِسامةٍ مُلتَبِسة.

ما كانت مارتي لِتُصرَفَ عن غايتها بسُهولةٍ وافرة: "ما أُريدُ أن أعرِفَه هو: أأنتِ واحدةٌ من أصدِقاءِ غرانْت؟"

"نعَم، على ما أظُنُّ".

"صديقةٌ خاصَّةٌ تقريبًا؟"

فتهالكَت مِسي على كُرسيٍّ قريب، وقالَت مُتأوِّهةً: "آهِ ماما! كيف تجعلين فتًى يفهَمُ أنَّك تستلطِفينَه...ولكنَّ الأمرَ ينتهي عند ذلك الحدّ؟"

"هل قُلتِ له؟"

"أعتقِدُ أنَّني فعلتُ ذلك قبلًا".

"وهذهِ المرَّة؟"

"أرجو أنَّه يفهم".

نهضَت مِسي هازَّةً كتِفَيها هِزَّةَ عدَمِ مُبالاة، ومضَت إلى غُرفتها. وأبقت مارتي صِنَّارَتَي حَبكِها تُطَرطِقان. علَيها أن تتذكَّرَ مُحادثةَ الصِّبيان وإعلامَهُم بأنَّها لا تُريدُ أن تسمعَ أيَّةَ مُغايَظةٍ بشأنِ الشَّابِّ الذي أتى زائرًا. وقد رَجَت أن يكونَ الفتى قد فهِمَ فعلًا. مسكينٌ غرانْت! ولكنْ لم يَسَعها إلَّا أن تشعُرَ بالراحة.

لم يكُن لِمارتي أن تبقى في سلامٍ مُدَّةً طويلة، لأن لُو غراَهم استأذنَ كلارك أن يأتيَ زائرًا. وما كانَ لمارتي أيَّةُ مُشكِلة مع لُو نفسِه، بل كانت ما تزالُ تَلقى صعوبةً في أن تقبلَ حقيقةَ كونِ مِسي آخِذةً في البُلوغ. فنانْدري وكلاي كِلتاهُما كانتا أكبرَ سنًّا لمَّا استقبلتا زائريهما وتزوَّجتا، وقد رجَت مارتي تقريبًا لَو تحذو مِسي حذوَهُما. وربَّما كان من شأن مِسي أن تفعل ذلك، غيرَ أنَّ بِضعةَ شُبَّانٍ بدا أنَّ لَهُم أفكارًا أُخرى.

جلَسَ لُو الآن في رَدهَتِهم، مُلاعِبًا مِسي بالضَّاما. ولاحظت مارتي مِسي مُحاوِلةً عمدًا أن تخسر. فقد كانت مِسي تُحسِنُ لُعبةَ الضَّاما، وما كانت قطُّ- دونَ تعمُّد- لِتعلَقَ في الوضع الذي كانت فيه الآن. غيرَ أنَّ ذِهنَ لُو لم يَبدُ مُركَّزًا على اللُّعبة، ولم يستغِلَّ الفُرَصَ التي كانت مِسي تُتيحُها له.

ثُمَّ إنَّ اكْلار وآرني ولُوك استصعبوا أن يفهموا لماذا لم يشأ لُو أن ينضمَّ إليهم في لُعبة رَميِ الحَدَوات مثلَما كان يفعل دائمًا في

الماضي. وأخيرًا أُرسِلَ الصِّبيانُ الثَّلاثةُ إلى أسِرَّتِهم، وهُم ما زالوا مُتحيِّرين حِيالَ الوضع.

بعدَ لُعبة الضَّاما، غلَت مِسي شرابَ الكاكاو، وشرَّحت شيئًا من قالب الحلوى المُستطيل. وقد دُعيَ الكِبار للانضِمام إلى الشَّابَّين حولَ طاوِلة المطبخ، فلم يلقَوا أيَّة صُعوبة في الدَّردشة مع الشَّابِّ لُو الذي ما بَرِحوا يعرفونَه طوالَ حياته تقريبًا.

مشَت مِسي مع لُو حتَّى آخِرِ المَمرِّ المؤدِّي إلى الطَّريق، وانتظرَت ريثَما حلَّ حصانَه وانطلَقَ راجعًا إلى بيته.

ولمَّا عادت مِسي إلى المطبخ، سألَها كلارك: "هل ينوي أن يعود؟"

"أتوقَّعُ ذلك".

وخُيِّلَ إلى مارتي أنَّ صوتَ مِسي أعوَزَته الحماسة.

فعلَّقت قائلةً: "فتًى لطيف".

"أُوه- هَم! جميعُ آل غراهام لُطَفاء".

وسألت مارتي: "هل تتذكَّرين عندما كُنتِ تنوين أن تتزوَّجي تومي؟"

فقَهقهَت مِسي. "مِسكينٌ تومي! لا بُدَّ أنَّه كان مُحرَجًا. لقد أخبرتُ الجميع بذلك...ولكنَّه هو لم يقُل كلِمةً قَطُّ".

وأردفَت مارتي: "حسنًا، كان ذلك كلُّه في الماضي البعيد. فإنَّ لِتوم زوجتَهُ افْران الآن".

"وأنا؟"

فرفعَت مارتي نظرها مدهوشةً.

"ذلك هو ما تُفكِّرين فيه، أليس كذلك، ماما؟ ماذا عنِّي أنا؟"

وأقرَّت مارتي: "صحيح، ماذا عنكِ؟"

فقالت مِسي، هازَّة رأسها: "لا أعلم. أعتقِدُ أنَّني أحتاج إلى مِقدارٍ هائل من الوقت حتَّى يَنجَليَ لي الأمرُ كلُّه".

فقال كلارك: "لَن يدفعَكِ أحَدٌ إلى الإسراع!" وقد عبَّرَ عن مشاعِره ومشاعِرِ مارتي معًا.

استمرَّ لُو في زياراته. وكانت مِسي وَدودًا ورفيقةً لطيفة، إلَّا أنَّ مارتي لاحظت أنَّ مِسي لم تُبدِ تَورُّدَ فتاةٍ واقعةٍ في الحُبّ. وكان ذلك أمرًا لا بأسَ به عندَ مارتي.

٣٠

اكتِشافُ مِسي

كانت مِسي على وشْكِ أن تُغلِقَ مبنى المدرسة لمَّا انفتحَ الباب ودخَلَ وِلِي مرَّةً أُخرى بعد.

سأل: "أكان ينبغي أن أقرعَ الباب؟"

"ما كان ذلك لِيؤذي!"

فقال: "آسِف! المرَّةَ التَّاليةَ سأقرع".

واستمرَّت مِسي في تَزريرِ معطفها.

"عندَ التَّفكير في الأمر، أُخَمِّنُ أنْ لن تكونَ مرَّةٌ تالية".

آنذاكَ رفعَت مِسي نظرَها.

"جئتُ، في الواقع، لكي أقولَ وَداعًا بطريقةٍ ما".

"أأنتَ راحِل؟"

"صحيح".

"متى؟"

"بعدَ غَدٍ".

"قُلتَ إنَّك لن تُغادِرَ قبلَ الصَّيف".

"قلتُ إنَّ ذلك يتوقَّف على بِضعةِ أُمور، هل تتذكَّرين؟"

"أنا...أنا...أُخَمِّنُ ذلك. هل أُمُّكَ أحسَنُ حالًا إذًا؟"

فهزَّ وِلِي رأسه. "أخشى ألَّا تكونَ أحسن. لا أعتقِدُ أنَّ ماما ستكونُ أحسَنَ ذاتَ يوم". وكان في صوتهِ حُزن.

عندئذٍ قالت مِسي برِقَّة: "أنا آسِفة. كيفَ ستذهب؟"

"سأستقِلُّ العرَبةَ العُموميَّة حتَّى أصِلَ إلى السِّكة الحديديَّة. ثُمَّ أُسافِرُ في القطار إلى أبعدِ نُقطةٍ أستطيعُها. وإذا أردتُ أن أتَوغَّلَ بَعد، فسأشتري حِصانًا أو حِصانَين".

"ماذا تنوي أن تفعلَ حينَ تصِلُ إلى هُناك...أن تغسِلَ التُّرابَ والحَصى في وِعاءٍ بحثًا عن الذَّهب؟"

ربَّما لم تفُت وِلِي لَهجةُ مِسي السَّاخِرةُ قليلًا، ولكنَّه اختارَ أن يتجاهلها.

"تقريبًا، وجَّهتُ قلبي نحوَ أرضٍ ريفيَّة صالحة لتربية المواشي. فأُحِبُّ أن أحصُلَ على أرضٍ جيِّدة مُنبَسِطة وأُنشئَ قطيعًا. أعتقِدُ أنَّني أُفضِّلُ تربيةَ الماشية على زَرعِ الغِلال".

"حسنًا، بالتَّوفيق". وقد فوجئَت مِسي إذ عنَت ذلك فِعلًا، كما فوجئَت أيضًا بِكَم عنَته.

فقال وِلِي: "شُكرًا". وبعدَما توقَّفَ لحظاتٍ، وأضاف: "على فِكرة،

عندي شيءٌ لكِ. نَوعٌ من الدَّين القديم تقريبًا".

ثُمَّ دسَّ يدَه في جَيبه، وأخرج بِضعَ شرائطَ لِلشَّعر.

"إذا أصَبتُ في التَّذكُّر، كانت تلك الشَّرائطُ أكثرَ احمِرارًا بقليلٍ من هذه، ولكنَّ هذه هي الشَّرائطُ الأشدُّ احمِرارًا بينَ جميعِ ما استطعتُ العُثورَ عليه".

فهمَسَت مِسي : "أُوه، وِلِي". وفجأةً أرادت أن تبكي. "الأمرُ لا يهمُّ. أنا...لم أعُد حتَّى أربُطُ شعري بهذه الأنواع من الشَّرائط".

"إذًا احتَفِظي بها لأجل بِنتكِ الصَّغيرة. إذا كانت تُشبِهُ أُمَّها، فإنَّها ستجعَلُ الصِّبيانَ الصِّغار يفقدون عقولَهم، ويُرجَّح جدًّا أن يُغمَسَ كثيرٌ من شرائطِ شعرِها في مَحبَرة".

ثُمَّ دارَ لِيَمضي، وهمَسَ بصوتٍ أجَشَّ: "وَداعًا، مِسي. أرجو لكِ أفضَلَ كلِّ شيء".

"وَداعًا، وِلِي...شُكرًا لك...كانَ الله في عونك وحاطَكَ بعِنايته!"

ولاحقًا، ساءلت مِسي نفسَها أسَمِعَت حقًّا الكلِمتَين الرَّقيقتَين: "أنا أُحبُّكِ"، أم تصوَّرَتهُما فحَسْب.

تمَلملَت مِسي وتقلَّبت على مِخدَّتها تلك اللَّيلة. لم يكُن في وُسعها أن تفهمَ قلبَها المُخَبَّل. إنَّما علمَت أمرًا واحدًا: أنَّه سيَكونُ عليها أن تُواجِهَ لُو، أن تقولَ له صراحةً ونِهائيًا إنَّها تُريدُه صديقًا، لكنْ ليس

أكثرَ. ولكنْ رُغمَ حَسمِ ذلك الأمر أبَت أفكارُها وعواطِفُها المُدَوِّمةُ أن تدَعَها تنام. ومدَّت يدها تحتَ مِخدَّتِها لِتَمسَّ بأصابعها شرائطَ الشَّعرِ الحُمرَ. وِلِي لاهاي المجنون! لماذا وجَبَ أن يجعلَها تضطرِبُ هكذا، ولماذا جلَبَت فِكرةُ رحيله في ظرفِ يومَين أسًى كهذا إلى قلبها؟ أكان أنَّه بعدَ هذه السِّنينَ الحافِلةِ بِمُكافحتهِ والانقِضاضِ عليه قد وقعَت في الحُبِّ بطريقةٍ ما؟ غيرُ معقول!

غيرَ أنَّ مِسي لم تستَطِع أن تُقنِعَ قلبَها المُوجَع.

حمَلَ الخبَرَ إلى المدرسة أولادُ آل كُفِنز في اليوم التَّالي. لقد تُوفِّيَت السَّيِّدةُ لاهاي في أثناء اللَّيل. وبطريقةٍ ما، تَيسَّرَ لمِسي إتمامُ واجباتِها التَّعليميَّة. وقد وجِعَها قلبُها من أجل وِلِي، إذ كان يحبُّ أُمَّه بإعزاز. فماذا سيَفعلُ الآن؟ يقينًا أنَّه لن يتمكَّن من المُغادرة في العرَبة العموميَّة يومَ غَد.

حبَّذا لو تُتاحُ لها فُرصةٌ لِتتَحدَّثَ إليه، فتُعبِّرَ عن أسَفِها وتسحَبَ بعضًا من الأشياءِ المُنَفِّرة، والفَظَّةِ تمامًا بعضَ الأحيان، من جُملَةِ ما سبَقَ أن قالته عبْرَ السِّنين.

أخيرًا، اقتربَ النَّهارُ المدرسيُّ من نِهايته. فأعلنَت مِسي أنَّه بسبب حُصولِ وفاةٍ في الحيِّ ستُلغَى صفوفُ اليوم التَّالي.

ذلك المساءَ جاءَ لُو زائرًا. ولَم يبدُ أمرًا مُناسِبًا جدًّا أن يأتي شابٌّ لأجلِ التَّودُّدِ عشيَّةَ جِنازةٍ في الجِوار، فجعَلَ اضطِرابُ مشاعِرِها أسهَلَ

عليها أن تُوالِيَ عزمَها على وَضعِ حدٍّ للأمرِ كُلِّه. ومن ثَمَّ مشى لُو إلى حصانه، وهو يبدو مُكتئبًا جدًّا.

في اليوم التالي، أُضيفَت كومةُ تُرابٍ أُخرى إلى المقبرة في جِوار الكنيسة. وقد وقفَت مِسي مع النَّائحين الآخرين، والرِّيحُ تَسوطُ معطفَها الطَّويلَ حولَ جِسمِها.

ولمَّا دخَلَ الآخرون ليستدفئوا بِشُربِ قهوةٍ ساخنة، غادرَت مِسي المجموعة ومَشَت نحو الأشجار في ناحية الفِناء البعيدة.

كانت واقِفةً هُناك بصمت، مُستَنِدةً إلى جِذعِ شجرَة، إذ وُضِعَت يدٌ على مِرفَقِها. فلم تُجفِل قطُّ. ورُبَّما كانت تتوقَّعُ ذلك، راجيةً أن يُوافِيَها لُو.

"مِسي؟"

فالتفتَت، وقالت: "أنا آسِفة وِلِي...حقًّا آسِفة من أجلِ أُمِّك". وانحدرَتِ الدُّموعُ على خدَّيها.

طأطأَ وِلِي رأسَه ليُخفِيَ دموعَه، ثُمَّ مسَحَها بحِدَّة. وقال: "شُكرًا لكِ، ولكنَّني مسرور- مسرورٌ نوعًا ما- لأنِّي ما زلتُ هُنا. كان مُمكِنًا أن تحدُثَ الوفاةُ بعدَ رحيلي، وعندئذٍ...عندئذٍ أبقى نادمًا دائمًا".

"أما زلتَ ناويًا أن ترحل؟"

بدا وِلِي مدهوشًا من سؤالها.

"حسنًا، أنتَ قُلتَ إنَّ الأمر يتوقَّفُ على حالة أُمِّك، ولا أدري كيف

عنَيتَ...".

'لم أقُل ذلك...تمامًا. قلتُ إنَّ ذلك يتوقَّفُ على أُمورٍ أُخرى أيضًا".

"علامَ؟" انطرَحَ السُّؤالُ قبلَما تمكَّنت مِسي من كَبحِ نفسِها.

سادَ صمتٌ هُنيهةً. ثُمَّ قال وِلِي بِصُعوبة: "عليكِ، مِسي...عليكِ معَ لُو. تخميني أنَّكِ تعلمين كيف ما بَرِحتُ أشعُرُ حِيالَكِ. أمَّا الآنَ، وأنتِ ولُو...حسنًا...صديقان، فليس من شيءٍ كثيرٍ لي حتَّى أبقى هُهُنا".

"ولكنْ لُو وأنا لَسْنا...لسنا...".

"ما بَرِحَ يزورُكم بانتِظامٍ تقريبًا".

"ولكنَّ ذلك انتهى. لم يكُن للأمرِ قَطُّ مغزًى كبير...بلِ انطوى فقط على صداقة، والبارِحةَ أنا...طلبتُ من لُو ألَّا يزورنا بعد".

"حقًّا؟ حقًّا، مِسي؟"

"حقًّا".

وكانَ صمتٌ آخر. فابتلَعَ وِلِي رِيقَه بِصُعوبة. "هل تكونُ ثمَّةَ فُرصة...أيَّةُ فُرصة حتَّى أستطيعَ...حتَّى أستطيع أن آتيَ زائرًا؟"

فقالت مِسي- ضاحِكةً وباكيةً إذ مدَّت ذِراعَيها إلى فَوقُ وطوَّقت بهما عُنُقَه: "أنتَ مجنون، وِلِي لاهاي. أتنوي ذاتَ يومٍ أن تكبُر؟"

نظَرَ وِلِي عميقًا داخِلَ عينَيها، ولا بُدَّ أنَّه رأى هُناكَ الحُبَّ الذي لم يكد يجرؤ أن يرجُوَه. وضمَّها إليه من قرب في عِناقٍ رقيق. لقد كبُرَ وِلِي لاهاي بِسُرعة!

٣١

مُفاجآت ميلاديَّة

وفاءً بوعد كلارك، كان البيتُ الجديد جاهزًا قبلَ عيد الميلاد، وكان الانتقالُ إليه مَهمَّةً كبيرة. وفي إحدى رِحلات مارتي بين البيت الجديد والبيت القديم، قالت لكلارك إنَّها بالتأكيد لا تُريد أن تقوم بهذا أيَّةَ مرَّةٍ عاجلًا. ولكنْ ما إن أُدخِلَت جميعُ قِطَعِ الأثاث ووُضِعَت في أماكِنها، وعُلِّقَت السَّتائرُ الجديدة، واستقرَّ كلُّ فَردٍ في غُرفته الجديدة الخاصَّة، حتَّى باتت مارتي مسرورةً جدًّا. وقد جلسَ كلارك ومارتي إلى طاوِلَة الفَطور، وأمامَهُما أوَّلُ فِنجانَي قهوة، في مقرِّهما الجديد، وشكَرا الرَّبَّ على مُبارَكته لهما ولعائلتهِما على مرِّ السِّنين.

وإذ نهَضَ كلارك ليخرُجَ إلى الحظيرة، قال مازحًا: "حسَنًا، القهوة جيِّدة كَحالِها دائمًا. أنا شاعِرٌ بالفرَجِ يقينًا من أجل ذلك".

كان وِلِي لاهاي ضَيفًا مُعتادًا في بيت آل ديڤِس الجديد، وقد قدَّرَه كلارك ومارتي كِلاهُما. فإن كان لا بُدَّ لهما من التَّخلِّي عن عزيزتهما مِسي، فقد سرَّهُما أن يكون ذلك، في ما يبدو، لشابٍّ ظريفً كهذا.

ولكنْ عشيَّةَ عيد الميلاد، خرَقَ وِلِي دونَ قصدٍ شعورَ العائلة بالرَّاحة والقُبول حِيالَ التَّودُّد. وكان ذلك في أثناء حديثٍ عرَضيٍّ مع رِجال البيت. فقد كان جوش، زوجُ نانْدري، يتحدَّثُ عن خُطَطِه للحصول على حيواناتٍ من نوعيَّة فُضلى لقطعة الأرض المُخصَّصة للخنازير عندَه، فذكَرَ وِلِي أنَّ هذا كان الاتِّجاه الذي رغِبَ هو أن يسلُكَه...بادئًا بماشِيَة جيِّدة حقًّا ومُنشئًا بالتَّدريج قطيعَهُ الخاصَّ. ولكنْ سيكونُ عليه أوَّلًا أن يختار الأرضَ الصَّحيحة لأجل المشروع. وكان يأمُلُ أنَّه في ربيع السَّنة الجديدة يرحَلُ في جولةٍ استكشافيَّة ويقضي وقتًا وافرًا في اختيارِ مَنزِلِهِ وأرْباضِه. وبعدَ أن يكون قد أمَّن ذلك، يرجِعُ لأجل مِسي.

فلزِمَ كلارك الصَّمتَ حينًا، ودوَّمَ رأسُ مارتي.

أخيرًا سألَ كلارك: "ألا تنوي أن تُنشئ مزرعةً في هذا الجِوار؟"

فأجاب وِلِي: "لا أنوي إنشاءَ مزرعةٍ أبدًا، بل عندي بالأحرى تَوقٌ فِعليٌّ شديد للقيام بتربيةِ مَواشٍ وخُيول".

وسألَت مارتي بتَردُّد: "إلى أيِّ بُعد...إلى أيِّ بُعدٍ تظنُّ أنَّ عليكَ أن تمضيَ لكي تعثُر على أرضٍ مُناسِبة لتربية المواشي والخيول بسعرٍ في مُتناوَلِ يدِك؟"

"بِضعَ مئاتٍ من الأميال، على كُلِّ حال".

شعرَت مارتي بِضَعفٍ يدبُّ في أوصالها. لقد كان وِلِي مُتوجِّهًا إلى

الغَربِ الأبعد. وكان وِلِي أيضًا ناويًا أن يتزوَّجَ غالِيتَها مِسي. فانتحَبَت داخِلَ كِيانِها: **آه، إلهي الكريم! إنَّه ينوي أن يأخُذَ مِسي إلى الغربِ النَّائي.**

ثُمَّ انسلَّت بهدوءٍ خارِجةً إلى المطبخ، راجيةً ألَّا يكونَ أحَدٌ قد لاحظَها تخرُج. ومشَت إلى داخِلِ بُرودةِ مخزن الأواني والأطعِمة، وأسندَت رأسَها إلى بابِ خزانة.

وقد صلَّت من جديد، مُتَفوِّهةً بالكَلِمات عبْرَ شفتَين مُرتَعِشتَين: "أيُّها الرَّبُّ الحبيب، رجاءً، ساعِدْه كي يطرُدَ هذه الفِكرةَ السَّخيفةَ من رأسه!" وما لبِثَ رأسُها أنِ ارتفعَ لدى فكرةٍ مُفاجئة. **يا للهول، هل تعرِفُ مِسي حتَّى أيَّ شيءٍ بشأن الأمر؟**

إلَّا أنَّ مِسي كانت قد لحِقَت بأُمِّها إلى داخِلِ المخزن في المطبخ. وإذ وضعَت يدًا على ذِراعِ مارتي قالت: "ماما، ماما، أأنتِ بخَير؟"

فطمأنَتها مارتي، مُقوِّمةً جِسمَها: "أنا بخَير...بِخَير".

"هلِ السَّبَب...ما قالَه وِلِي؟"

"حسنًا، أعتَرِفُ بأنَّ الأمرَ كان صدمةً من نوعٍ ما. لم يكن عندي أدنى فكرة بأنَّ لديه خُطَطًا من هذا القبيل".

"كان ينبغي لي أن أُخبِرَكِ عاجلًا قبل الآن".

"إذًا، كنتِ تعرفين؟"

"طبعًا! لقد تحدَّث وِلِي عن ذلك حتَّى قبلَ...قبلَما وضَعنا أيَّةَ خُطَط".

”فهِمتُ“.

وعادت مِسي فقالت: ”كان ينبغي لي أن أُخبِرَكِ. تخميني أنَّ وِلِي ظنَّ أنَّني فعلتُ ذلك“.

”لا بأس، مِسي “.

”الأمرُ...الأمرُ صَعبٌ عليكِ نوعًا ما، أليس كذلك ماما؟“

”بَلى...بلى، أعتقِدُ أنَّه كذلك“. وقد حاولَت مارتي أن تحولَ دونَ ارتِجافِ صوتها.

فقالت مِسي بحِرص: ”أفتَرِضُ أنَّكِ تشعُرين نوعًا ما بمِثل شعورِ ماماكِ لمَّا نَوَيتِ أن ترحلي مع كليم“.

همَّت مارتي بأن تقول لائمةً: **الآن، أصغي إليَّ ههُنا. أنت تتصرَّفين بِلا إنصاف، إذ تَرمِينَني بذلك!** ولكنَّها بعدَ هُنَيهةٍ قالت بالأحرى: ”نعم، تخميني أنَّ ذلك صحيح“.

تلك كانت أوَّلَ مرَّة فيها فكَّرَت مارتي في مشاعر أُمِّها، وأدركَت لماذا كان صعبًا جدًّا على عائلتها الأصليَّة أن تقبَلَ رحيلها.

فقالت أيضًا: ”نعم، تخميني أنَّها هكذا شعرَت“.

وردَّت مِسي فورًا: ”ولكنَّكِ أحبَبتِ كليم وعَلِمتِ أنَّه كان عليك أن تمضي“.

”نعم، أحبَبتُه“.

فطوَّقت مِسي مارتي بذِراعَيها وضمَّتها بحرارة. "أُوه، ماما، إنَّني أُحِبُّ وِلِي كثيرًا جدًّا. لقد صلَّينا لأجل هذا معًا. ففي وسعنا أن نتوغَّلَ غربًا بعد. وفي وسعنا أن نفتَتِحَ حيًّا جديدًا معًا. وفي وسعنا أن نبنيَ مدرسة، وكنيسة، ونجعَلَ حيًّا جديدًا يزدَهِرُ ويكبرُ. ألا ترَينَ ذلك، ماما؟"

فضمَّت مارتي فتاتَها الصَّغيرةَ ضمًّا شديدًا. "بالتأكيد أرى ذلك. بالتأكيد. إنَّما سيقتضي ذلك قليلًا من التَّعوُّد. هذا كلُّ ما في الأمر. ارجِعي أنتِ الآن. أمَّا أنا فسأتنشَّقُ قليلًا من الهواء".

بدَت مِسي مُتردِّدةً بعضَ الشَّيء، ولكنَّها رجعَت عائدةً إلى الضَّحِك المُنبَعِث من حُجرة جلوس العائلة.

ثُمَّ لفَّت مارتي بإحكام شالًا مُدفئًا حولَ كتِفَيها، وخَطَت خارجةً إلى قلبِ هواءِ اللَّيل المُنعِش.

كانت السَّماءُ صافيةً، وأكَّدَ البَردُ لَمَعانَ النُّجوم فوقَ مارتي، فحوَّلَت وجهَها نحوَ السَّماء.

وقالت بصَوتٍ عالٍ: "إلهي، إنَّها واحدةٌ من أولادك. ونحنُ منذُ زمانٍ طويل أعَدناها لك، كلارك وأنا. أنت تعلَمُ كيف أشعُرُ حِيالَ رحيلِها. ولكنْ إذا كان ذلك في خُطَّتِك، فساعِدني يا أبانا...ساعِدني كي أقبلَ الأمر وأُطلِقَها. أرشِدها، إلهي، واعتَنِ بها...اعتَنِ بفَتاتِنا الصَّغيرة".

شاهَدَ آلُ ديفِس وِلِي لاهاي كثيرًا في الأشهُرِ القليلة التَّالية. وبدا لمارتي أنَّه رُبَّما يُحضِرُ أيضًا فِراشَهُ اللَّفيف. لقد أحبُّوا وِلِي واستحسنوا العَلاقةَ بينَه وبينَ مِسي، ولكنَّ مارتي علِمَت أنَّ وقتَهُم الباقيَ مع مِسي في بيتهم سيكونُ قصيرًا جدًّا جدًّا. بعدَ أن يتزوَّجا، هي وَوِلِي...حاولَت مارتي ألَّا تُفكِّرَ مُسبَقًا أدنى تفكيرٍ بشأن ذلك الحدَث المُستقبليِّ البعيد. ولكنْ لِوجود مِسي في المدرسة طيلةَ النَّهار، كان صعبًا أن تُضطرَّ مارتي إلى مُشارَكتها مع وِلِي كلَّ مساءٍ تقريبًا.

كان وِلِي ومِسي مُفعمَين خُطَطًا وأحلامًا. وقد قضى وِلِي مُعظمَ وقته مُتحدِّثًا إلى رِجالٍ سبقَ أن توغَّلوا غربًا، مُستَفسِرًا عن الأرض الرِّيفيَّة الجيِّدة. فنصحَهُ أغلَبُهم أن يُسافِرَ نحوَ الجبال، ثُمَّ يتتبَّعَ سِلسِلةَ الجبال نحوَ الجَنوب. وأجمعَت الآراءُ على أنَّ ثلوجَ الشِّتاء ليست عميقةً بالمِثل هُناك، وأنَّ الأرضَ بين الجِبال مُمتازة. وقد نُبِّهَ وِلِي كي يتيقَّنَ بأن يختارَ بدِقَّة، وفي بالهِ وجودُ مَورِدٍ مائيٍّ على مدار السَّنَة.

ذاتَ مساء، رجَعَت مِسي من تَوديعِ وِلِي وتَمَنِّي ليلةٍ سعيدة له، ولكنْ هذه المرَّة قدَحَت عَيناها شرَرًا وتورَّدَ خدَّاها غضبًا. فمسحَت خدَّها سريعًا بِقَفا يَدِها، مُحاوِلةً أن تُخفيَ دموعها.

نظَرَ كلارك ومارتي كِلاهُما إلَيها مدهوشَين، ولكنَّهما لم يقولا شيئًا.

ودَمدَمت مِسي : "أُفٍّ من وِلِي لاهاي ذاك!" ثُمَّ توجَّهَت صاعدةً الدَّرَج إلى غُرفتها في الدَّور العُلْويّ.

لم تُخبِرهُم بموضوع الخِصام، ولكنْ بعدَ مساءَين بدا أنَّ الخِلافَ سُوِّيَ وأنَّه حصَلَ غُفران ونِسيان.

في العاشِر من أيَّار، سيرحَلُ وِلِي ليُفتِّشَ على أرضه الجديدة.

ودَّعَته مِسي سرًّا. وقدِ انتقلَت إليها حماستُه، مالئةً قلبَها وخَيالَها. إنَّها أرادت له فعلًا أن يمضيَ ويعثُرَ على أرضِهما لكي يُحقِّقَ أحلامَهُما، ولكنَّها- آه!- سوفَ تفتقِدُه. وهُنالك دائمًا الاحتِماليَّةُ الضَّئيلة بألَّا يرجِع. فقد سمِعَت حِكاياتٍ عن رجالٍ آخرين رحلوا، وبسبَبِ مرَضٍ أو حادثٍ لم يرجِعوا قطُّ. إلَّا أنَّه طمأنَها مِرارًا وتَكرارًا بأنَّه سوف يعود. فأرادت أن تُصدِّقَه وحاولت أن تصُدَّ الأفكارَ السَّوداء، ولكنَّ تلك الأفكار أبَت أن تُطرَدَ نهائيًّا.

لقد علِمَت أنَّ وِلِي أيضًا صارَعَ شُكوكًا. فَهُما قد تناقشا عدَّةَ مرَّات في حقيقةِ أنَّ الغربَ كان يُناديه، ولكنَّه تساءلَ أحيانًا هل كان مُخطئًا تمامًا في تلبيةِ النِّداء. رُبَّما وَجَبَ أن يتزوَّجا أوَّلًا ويرحلا معًا؛ عندئذٍ لن يكونَ لزومٌ لانفصالٍ ما. ولكنْ عندئذٍ أيضًا، قد يكونُ الأمر صعبًا بصورةٍ هائلة على مِسي...مُتَتبِّعةً إيَّاه في تَجواله بحثًا عن مكانٍ يُمكن أن يصيرَ لهُما. فلم يعُدِ العُثورُ على أرضٍ الآنَ سهلًا كما كان في ما مضى...بالنِّسبة إلى الأرض الجيِّدة على الأقلّ. إنَّ ذلك قد يعني العيشَ في عَرَبَة ذاتِ غِطاء على مدى شهورٍ عدَّة. لا، لقد قرَّرَ أنَّ جعْلَها تجتازُ في ذلك كلِّه هو أمرٌ أنانيٌّ. سوف يذهب وحدَه أوَّلًا، ثُمَّ

يعودُ لأجلها. لعلَّ الشُّهورَ تمرُّ بسُرعة نِسبةً إلى كِلَيهما. وقد صلَّى طالبًا أن يتمَّ ذلك.

كان وِلِي أيضًا قد تحدَّثَ بصراحةٍ مع مِسي بشأن وجود شُبَّانٍ آخَرين حوالَيها في الجِوار فِعلًا- وواحِدٌ منهم لُو غراهام- وعن كونِ مِسي فتاةً جميلة وجذَّابة جدًّا. أكان في وُسعِ فتاةٍ مُوحَشة، تُترَكُ وحيدةً عدَّةَ شُهور، أن تُبقيَ الشُّعلةَ مُتأجِّجةً من أجله؟ أن تنتظِرَه حتَّى يعودَ لأجلها؟ لقد أكَّدت له مِرارًا وتكرارًا أنَّ ذلك في وُسعِها.

وفيما مِسي تمشي بجانبه الآن، ويدُها في يده مرَّةً أُخرى بَعد، قبلَ أن يرحل، عبَّرَت بالكلام عن أفكارهما كِلَيهما. "أخشى أنَّه سوف يبدو زمانًا طويلًا بصورة هائلة!"

فتوقَّف وِلِي عنِ المَشي، والتفتَ إليها، ونظَرَ عميقًا داخِلَ عينَيها.

"بالنِّسبة إليَّ أيضًا". وبلَعَ ريقَه بصعوبة. "أرجو وأُصلِّي طالبًا أن تمُرَّ الأيَّامُ والأسابيعُ بسُرعة".

فصاحَت مِسي: "آه، وِلِي! سأُصلِّي لأجلك كلَّ ليلة...لكي...لكي يحفظَكَ الله و...ويُسهِّلَ طريقك".

"وأنا سأُصلِّي لأجلكِ". وأمَرَّ وِلِي إصبعًا على خدِّ مِسي، فألصقَت وجهها بكَتِفه وتركَتِ الدُّموعَ تسيلُ بغزارة. فضمَّها إليه عن كثَب، واستطاعت أن تُحِسَّه مُمَسِّدًا شعرَها البُنِّيَّ الطَّويل. ما كان مُفترَضًا أن يبكيَ الرَّجُل، ولكنَّها علِمَت أنَّه بكى، فأحبَّته أكثرَ جدًّا بَعدُ من أجل

ذلك.

آنَ الأوانُ كي يرحلَ وِلِي. فقبَّلَها بِضعَ مرَّات، وهمس لها بوعوده مِرارًا وتكرارًا، ثُمَّ أبعَدَها عنه بلُطف. ولم يلتفِتْ لينظُرَ إلَيها حالَما توجَّه نحوَ حصانه.

وعَدَت مِسي نفسَها بصوتٍ عالٍ: "سوف يرجَع. وِلِي سوف يرجِع". ثُمَّ رفعَت وجهَها نحوَ النُّجوم، وهمَسَت: "رجاءً، أبانا، اعتَنِ به!"

لم تكُن توديعاتُ وِلِي قدِ انتهَت بعد. إذ رافقَ زيك لاهاي ابنَه إلى المدينة وشغَلَ نفسه بترتيباتِ الدَّقيقة الأخيرة وشِراءِ أشياءَ غيرِ ضروريَّة. ولمَّا حانَ أخيرًا وقتُ انطِلاق المجموعة المُتوجِّهة غربًا، تقدَّم زيك وصافح ابنَه باليد مُصافحةً قلبيَّة، مُعطيًا إيَّاه بعضَ النَّصائح التَّحذيريَّة في الدَّقيقة الأخيرة.

"خُذ حِذرَك الآن، بُنَيَّ. وكما كان من شأن أُمَّك أن تقولَ لك، لو كانت ما تزالُ هُنا، كُن لطيفًا مع الذين تُقابِلُهم، لكنْ لا تسمحْ لنفسك بأن تُداس. اهتمَّ بنفسك وبِمُعَدَّاتك. إنَّها ستكون نافعةً لك إنِ اعتنيتَ بها. ابقَ بعيدًا عن جانب الأُمور الأسوأ...لا داعيَ لأنْ أذكُرَها بصراحةٍ أبدًا. خُذ حِذرَك، سَمِعتَ؟"

أومأ وِلِي برأسهِ إيجابًا، وشكَرَ أباه، وهمَّ بأن يدورَ ويمضي، فإذا زيك

لاهاي يطرَحُ تحفُّظَه المعهود جانبًا ويتقدَّمُ ليَغمُرَ فتاهُ بعِناقٍ حارّ. فردَّ وِلِي العِناقَ بمِثله، مُعترفًا بِكَم شعَرَ بحُسنِ الحال إذ طوَّقَهُ أبوه بذراعَيه. وكانَ آخِرَ ما رآه وِلِي، لدى مُغادَرتهِ، أبوه زيك لاهاي، الكبيرُ المُحنَّك، وهو يمسَحُ دمعةً عن وجهه الذي سفَعَته الشَّمس.

٣٢

مُفاجأةٌ أُخرى بعد

كان ذلك يومَ سبْت، وكانت مارتي في المطبخ تصنَعُ عجنةَ خُبز، إذ دخَلَ لُوك واثبًا بمَرَح.

قعدَت مِسي تعمَلُ حاشيةً لِشَرشَفِ طاوِلة، حتَّى إنَّها لم ترفع رأسَها صوبَ أخيها الصَّغير، إلى أن أعلَن بِصَوتٍ مُغايِظٍ مُنَغَّم: "وِلِي آتٍ!"

قالت مارتي: "أُوه، لُوك، كُفَّ عن ذلك!" فقد كانت مِسي مُوحَشةً وبائسةً كِفايةً دون أن يتلاعب أحَدٌ بِمَشاعرها. كان قد مضى عامٌ تقريبًا على رحيل وِلِي، وكانت الرَّسائلُ بينَهُما قليلةً جدًّا جدًّا. ليس أنَّ أيًّا مِنهُما لم يُرِد أن يكتب، ولكنَّ إيصالَ البريد إلى شخصٍ ما على ظَهرِ حصان كان صعبًا في أحسَنِ الأحوال.

قال لُوك مُحاجًّا: "إنَّه آتٍ فعلًا...ما عليكِ إلا أن تنظُري بنفسكِ". ثُمَّ أشارَ إلى الطَّريقِ تحت.

فركضَت مِسي إلى النَّافذة. "إنَّه آتٍ، ماما!" قالت شِبهَ صارخةٍ في حماستها وتأثُّرها، وانطلقَت خارجةً من الباب إلى الطَّريق.

”حسنًا، يا لَلعجَب!“ وقفت مارتي عند النَّافذة، فشاهدَت حصانَ وِلِي الجاريَ عَدْوًا يتوقَّف مُنزَلِقًا والشَّابَّ يقفِزُ إلى الأرض، في حرَكةٍ واحدة معًا.

فقالت مارتي ثانيةً: يا لَلعجَب! لقد كان الفتى غائبًا في الغرب النَّائي، وقد عاد، وها هو يُخاطِرُ بِعُنقه في فِنائي“. ثُمَّ ابتسمَت إذ شاهدت الشَّابَّين يتعانقان، وكان واضحًا أنَّه لم يهمَّهما وجودُ أي شخصٍ يُشاهِدُهما.

رجعَت مارتي إلى خُبزِها. بعدَما رحَلَ وِلِي أوَّلَ الأمر، تطلَّعَت مارتي سرًّا إلى قضاءِ وقتٍ إضافيٍّ مع مِسي وحدَهما. ولكنَّ النَّظرةَ في عينَي مِسي والدَّليلَ على ليالي أرَقٍ وقلَقٍ سرعانَ ما جعَلا مارتي تُدرِكُ أنَّها هي أيضًا ستُرحِّبُ مسرورةً بِعَودةِ وِلِي.

توافَرَ كثيرٌ من الفرَح إلى المائدة ذلك المساء. وقد قضى مِسي وَوِلِي في تمتيعِ أعيُنِهما أحَدِهما بالآخر وقتًا أطول ممَّا في تناوُلِ الطَّعام. ولم يسَع مارتي إلَّا أن ترجوَ أنَّ مسعى وِلِي رُبَّما كان خائبًا وأنَّ قرارَهُ سيَقِرُّ أخيرًا على إنشاء مزرعة في المِنطقة.

أخيرًا، طرَحَ كلارك السُّؤال: ”هل وجدَت ما كنتَ تبحث عنه في الغرب النَّائي؟“

”بكُلِّ تأكيد!“

فغاصَ قلبُ مارتي، ولكنَّها اعتصمَت بهدوئها وأبقَتِ ابتسامةً على

وجهها.

وحمَلَت نفسَها على أن تسأل: "كيف هي؟" وقد فاجأها أنَّ صوتَها بدا طبيعيًّا.

فتكلَّمَ وِلِي وعيناه مُشرِقتان. "حسنًا، سيِّدتي. إنَّها تقريبًا أجمَلُ شيءٍ...". وما لبِثَ أن استدركَ في الحال، معَ ابتسامةٍ عريضة مُوجَّهة نحو مِسي : "في ما يتعلَّقُ بالأرض...يضَعُ رجُلٌ علَيه عينَيه يومًا". ثُمَّ التفتَ مجدَّدًا إلى العائلة فيما تابَعَ كلامه، وقامت مارتي لكي تملأ زُبديَّةَ البَطاطا ثانيةً.

"ليس في المِنطقة أشجارٌ باسِقة، بل أجمأتُ شُجَيراتٍ على المُنحدَرات فقط. والتِّلالُ خفيضةٌ ومُتموِّجة بكثيرٍ من العُشب. وتُجاهَ أحَدِ الأطراف وادٍ- كأنَّه صُورة- يحتوي على بُقعة مُمتازة لبناءِ مَنزِل. إنَّها مَحميَّةٌ وخضراء، بِقُربِها نُهَيرٌ يُغذِّيه نَبعٌ جارٍ في الأسفل. وفي المكان أيضًا مِياهٌ كثيرة. ثلاثةُ ينابيعَ علِمتُ بها، وربُمَّا وُجِدَ أكثَرُ لم أكتشِفه بَعد".

كانت الحماسةُ في وجه وِلِي مُعدية.

وقال كلارك مازِحًا: "يكادُ الوصفُ يجعلُني أتمنَّى لو لم أكُن كبيرَ السِّنِّ وعاجزًا، يا بُنَيَّ!"

مدَّت مارتي يدها من فَوقِ كتِفه بالزُّبديَّة المملوءة ثانيةً، ثُمَّ وقفَت وراءِ كُرسيِّه ومسَّت شعرَه بِحَنان، وقالت له: "أنا بكُلِّ يقين لستُ

مُتزوِّجةً شخصًا كبيرَ السِّنِّ وعاجزًا، يا كلارك ديفِس. تُرى، عمَّن تتكلَّم؟" وضحِكَت العائلةُ معها.

"هل تمكَّنتَ من عقدِ الصَّفقة؟" كان كلارك رجُلًا عمليًّا. والعُثورُ على أرضٍ جيِّدة لا يعني امتِلاكَها.

أومأ وِلِي برأسه إيجابًا. "ذلك هو ما استغرقَ وقتًا. عجَبًا، ما كُنتَ لِتُصدِّقَ المُشاحَنةَ تمامًا: الذَّهابُ إلى هُنا، الذَّهابُ إلى هُناك، مُقابلةُ هذا الرَّجُل، البَحثُ عن ذاك، طلَبُ إرسالِ أوراقٍ حكوميَّة. حتَّى لقد بدأتُ أتساءلُ هل لي أن أُنجِزَ ذلك كلَّه".

ثمَّ ابتسمَ ابتسامةً عريضة وأومأ برأسه إيجابًا من جديد. "غيرَ أنَّني أنجزتُ الأمرَ أخيرًا. والأوراقُ التي أحتفِظُ بها تؤكِّد أنَّ تلك الأرضَ كلَّها لي. ثُمَّ إنَّها أقربُ إلى هههُنا أكثرَ جدًّا ممَّا توقَّعتُ لها أن تكون". وكان في وُسعِ مارتي أن تؤكِّد أنَّه أتى على ذِكر ذلك لأجل فائدتها هي في المقام الأوَّل. ثُمَّ قال وِلِي لهم: "لن يستغرِقَ السَّفَرُ إلى هُناك مُدَّةً تفوقُ الحدَّ. فهُناك قافِلتا عرَباتٍ تُسافِرانِ عبْرَ تلك النَّاحية كلَّ صيف. إنَّهما تنقُلانِ المؤَنَ إلى المُدن الواقعة هُناك نُزولًا نحو الجَنوب، ولكنَّهما لا تُمانِعان أن يُرافِقَهما مُسافرون طَوالَ الطَّريق. بتلكَ الطريقةِ تصِلُ إلى هُناك سالِمًا وسليمًا وجميعُ مؤنِكَ في مُتناوَلِك".

فهكذا سيكونُ أنَّه بعَرَبةٍ مُغطَّاة، رُغمَ كلِّ شيء، سوف تُسافِرُ مِسي. وقد تذكَّرَت مارتي سَفرتَها الشَّخصيَّةَ إلى الغرب بعرَبة، ونهايتَها

المأساويَّة في مكان غيرِ بعيد من هههُنا. وكانت قد رَجَت في سرِّها أن تُسافِرَ مِسي بالقطار، إذا كان عليها أن ترحَلَ حقًّا. ثُمَّ عبرَت إلى النَّار وبدأت تزيدُ حطَبًا حيثُ لم تدعُ الحاجَةُ إلى أيَّة حطَبة، ولكنَّها سرعانَ ما كبَحَت نفسَها. فلو فعلَت ذلك، لَطردَت الجميعَ من مطبَخِها بِالحرارة الشَّديدة.

لا نفعَ من مُحاوَلةِ التَّظاهُرِ بعد. فإنَّ محبوبتَهُم مِسي سوف تُغادِرُ، مُتوجِّهةً غربًا، وذلك في غضونِ مُدَّة قصيرة. وما كانت مارتي قد جاهرَت بمُعارَضتها لذلك، إلَّا أنَّها بطريقةٍ ما كانت قد دفعَتِ الفِكرةَ جانبًا، آمِلةً أن تتغيَّرَ الأُمور...أن يُقرِّر العروسان الشَّابَّان ألَّا يذهبا. والآنَ كان هُنا ذلك الشَّابُّ المُتحمِّس، وفي حَوزَتِهِ الأوراقُ التي تُصرِّح بأنَّه مالِكُ أرضٍ في الغَربِ النَّائي، ومِسي المُتحمِّسةُ بالمِثلِ مُتعلِّقةً بكُلِّ كلِمةٍ يقولُها كما لو كانت لا تُطيقُ الانتِظارَ حتَّى تنطلِق. فما كان أيُّ شيءٍ لِيُوقِفَ المشروعَ الآن.

وقرَّرَت مارتي أن تنسَلَّ بهدوءٍ لأجلِ نُزهةٍ قصيرة سَيرًا على قدَمَيها إلى النَّبع.

فيما اقتربَ يومُ الزِّفاف، علِقَ البيتُ في حُمَيَّا التَّحضيرات. وفضلًا عن الزِّفاف بحدِّ ذاته، وجَبَ إيلاءُ المُراعاةِ الدَّقيقة لكُلِّ قِطعةٍ كانت مِسي تجمَعُها إعدادًا لبيتها التُّخوميِّ العتيد، لأنَّ كلَّ قِطعةٍ يجب أن تكونَ أساسيَّة، ويجب أن تُناسِبَ العرَبة، وينبغي أن تصمُدَ في أثناء الرِّحلة

الطَّويلة.

كانت مارتي قد مضَت إلى صُندوقِها العتيق وأحضرَت شَرشفَ سُفرَةٍ سبقَ أن صنعَته جدَّتُها العزيزة بِيدَيها وأهدته إليها في عُرسها. وكانت مارتي قدِ استعملت أغلبَ الأشياء التي جلبَتها معها من الشَّرق، غيرَ أنَّ هذا الشَّيءَ كان مُميَّزًا. كذلك أيضًا كان في الصُّندوق مِفرَشٌ صنعَته أُمُّ مارتي. فهذا سوفَ يُحفَظُ لأجل أُلِّي.

وفضلًا عن خِياطة البَياضات ومُختلِفِ الحاجيَّات البَيتيَّة، اشتغلَت مِسي بتحضيرِ مَلابسِها. فهي لم تُرِد قطُّ أن يُعوِزَها أيُّ شيءٍ مهما طال وقتُ بقائهما على الطَّريق. وكان ينبغي أن تكونَ فساطينُها خفيفةً لأجل الصَّيف الحارِّ المُقبِل، ومع ذلك تصمُدُ جيِّدًا عندَ ارتدائها في أثناء السَّفرة الشَّاقَّة.

خاطت مِسي حاجيَّاتِها بحماسة. فقد كانت تستمتِعُ بالخِياطة، وبوجودِ هدَفٍ مُشَوِّق كهذا، كان العمَلُ مُتعةً لا مَهمَّة. فأخذت القُبَّعاتُ الزَّاهية والمآزِرُ المُلَوَّنة تتشكَّل. وصنَعَت مِسي ببراعةٍ أثوابًا من خامٍ، ثُمَّ صرَّتها وحزَمَتها في صناديقَ خشبيَّة قويَّة كان كلارك قد صنعها. كما ظلَّت مارتي تُفكِّرُ في أشياءً لا بُدَّ أن تحتاجَ مِسي إليها، أشياءَ لم يكُن لها هي بصيرةٌ ثاقِبة كي تحزِمَها لمَّا جاءت إلى الغرب. مَقالٍ، أوانٍ، غلَّايات، أوعيةٌ فخَّاريَّة، مَوادُّ طِبِّيَّة، مَراطبين، عُلَب للطَّعام...حتَّى بدَتِ اللَّائحةُ لانهائيةً وغالِبًا ما جعلَت مِسي تضحك

قائلةً: "أُوه، ماما!"

أبى ذِهنُ مارتي القلِقُ أن يَنشُدَ الرَّاحة، بل ظلَّ يجري على الدَّرب البالي عينهِ مِرارًا وتَكرارًا: لا طبيب، لا واعظ، لا مدارس، ورُبَّما لا جاراتِ قريباتٍ...الأمرُ الذي عنى لا ما غراهَم. آه، كم وكم أرادت ألَّا ترى مِسي راحِلة.

ولكنَّ مِسي غنَّت وهي تشتغِلُ وتُحزِّم. لقد رقَصَتِ الفتاةُ تمامًا في أنحاء المَنزِل في غمرةِ سعادتها.

لدى سَماعِ صَوتِ حِصانٍ يقترِب، هبَّت مِسي واقِفةً عن ماكينة الخِياطة، حيثُ كانت تشتغِلُ لإنجاز فُسطانٍ من قُماش الجِنهام.

"ذاك وِلِي. لقد وعدَني بأن يُساعِدَني في التقاطِ ما يكفي من الفْريز للعشاء. لن نتأخَّر، ماما".

تنهَّدَت مارتي وألقَت جانبًا اللِّحافَ الذي كانت تُضَرِّبُه، والذي سيُوضَعُ أيضًا في أحَد الصَّناديق. إنَّها ستصنَعُ بعضَ الغُرَيِّبة لِتُؤكلَ مع الفْريز.

انطلَقَ الشابَّان، مُتَشابِكَي الذِّراعَين، صوبَ المرعى البعيد، ودَلوُ مِسي الأحمَرُ العتيقُ، ذاك الذي كانت تحمِلُ غداءها فيه، يترجَّحُ إلى جَنبِ وِلِي.

وبينَما مارتي في طريقها إلى المطبخ، توقَّفت ونظرَت إلى خِياطةِ

مِسي. كانت مِسي قد أصبحَت خيَّاطةً ماهرة، وكانت مارتي فَخورًا بها.

وقفت تُمِرُّ أصابِعَها على الثَّوب، ثُمَّ جرَت يدُها بِحُنُوٍّ على الماكينة. على مرِّ السِّنينَ كُلِّها، منذُ أن صارت مارتي ماما لمِسي، خاطت هذه الماكينة الثِّيابَ لكلِّ ولَدٍ من أولادها. فههُنا أُصلِحَتِ المَلابِس، وهُدِّبَت المناشِفُ الجديدة، وخِيطَتِ الحاجيَّاتُ البيتيَّة لثلاث عرائس، وتعلَّمَت أيدٍ غضَّةٌ فنَّ الخِياطة. وما خذَلَتها الماكينة قطُّ. صحيحٌ أنَّها لم تعُد تحتفِظُ بذلك اللَّمَعان الذي كان لها لمَّا حُمِلَت أوَّلَ مرَّة عبْرَ بابها، ولكنَّها صمَدَت جيِّدًا على مرِّ السِّنين.

استغرقَت مارتي في تفكيرٍ عميق، وأخيرًا بدأت دموعُها تسقُطُ دونَ تَقَصُّد. ثُمَّ حضَرَ كلارك هُناك بجانبها، ومدَّ يدَه فأمسكَ يدَها. فرفعَت نظَرَها إليه، وحرَّرَت نفسَها حالًا من استِغراقها في التَّفكير الحالِم. ومرَّت لحظةٌ قبلَما أحسَّت أنَّها مسيطِرةٌ على نفسِها كِفايةً حتَّى تتكلَّم.

"كلارك، كنتُ أُفكِّر. أوَدُّ أن أُعطيَ الماكينة- ماكينة ألِن- لِمِسي. فهل تُمانع؟"

رانَ صمتٌ إلى حين، ثُمَّ أجابَ كلارك: "الماكينة لكِ كي تُعطيها. إذا كان ذلك هو ما تُريدينَه، فلا بأسَ عندي في ذلك".

"أوَدُّ ذلك...ستكونُ مِسي بحاجةٍ إليها في السِّنين المُقبِلة. ثُمَّ إنَّ

ألِن كانت أُمَّها".

"وهكذا أنتِ أيضًا". وطوَّقَت ذِراعُه خصرَها، فاتَّكأت عليه.

أخيرًا، سألَ كلارك: "وماذا ستفعلينَ أنتِ؟"

"في وسعي أن أرجِعَ إلى الخِياطة بِالْيَد. لقد كنتُ مُتعوِّدةً تلك؛ أمَّا مِسي...فهي دائمًا مُتعوِّدةٌ المَكنة. وستكونُ ضائعةً بِلاها. أضِف أنَّني أعتقِدُ أنَّ ذلك مُناسِبٌ تمامًا".

ومسَحَت آخِرَ أثَرٍ من الدُّموع، ثُمَّ مدَّت يدًا لِتُجريَها على المَعدِن النَّاعم والخشَب المصقول في الماكينة المحبوبة جدًّا.

"هلَّا تعمَلُ معروفًا، كلارك، بِصُنعِ صُندوقٍ قويٍّ جميلٍ لها، ثُمَّ ألُفُّ بَطانيَّةً عتيقة حولها حتَّى لا تُخدَش".

فأومأ كلارك برأسِه مُوافِقًا. "سأُباشِرُ صُنعَهُ غدًا تمامًا".

فقالت مارتي: "شُكرًا لك!" ومضَت لِتُحضِّرَ كعكَ الغُرَيِّبة.

٣٣

يومٌ استثنائيٌّ

لمَّا بزَغَ نهارُ زِفافِ مِسي صافيًا ومُشرِقًا، أحسَّت مارتي أنَّ ذلك لاءمَ تمامًا الفتاة، ابنتَهُما الشابَّةَ السَّعيدة والمُتحمِّسة والجميلة.

تمهَّلَت مارتي هُنَيهةً قبل مُغادرَةِ سريرها لِتَرفع نحوَ السَّماءِ طِلبةً سريعةً لكنْ حارَّة: **أللَّهُمَّ، رجاءً، رجاءً اشمَلْ بعنايتِك فتاتَنا الصَّغيرة...و...واجعَلِ اليوم يومًا تستطيعُ أن تنظُرَ إليه رجوعًا بفَرَحٍ وذِكرَياتٍ طيِّبة.** ورفعَت نظرَها نحو كلارك وهو ما يزالُ يَغِطُّ في نومه بهدوء، ثُمَّ انسلَّت بِصَمت من تحتِ الأغطِيَة.

كان هُناك كثيرٌ ينبغي أن يُعمَل. وعلِمَت مارتي أنَّ عليها ألَّا تتوانى شُعورًا أو عاطفةً. فارتدَت ثيابَها بسُرعة وذهبَت إلى المطبخ. وسرعانَ ما انضمَّ كلارك إلَيها وأشعَلَ نارًا مُتأجِّجةً في موقد الطَّبخ العتيق. لمَّا انتقلوا إلى البيت الجديد، قال لها كلارك إنَّها تستطيعُ أن تحوزَ موقد طَبخٍ جديدًا- شيئًا أحدَثَ طِرازًا- ولكنَّها أبَت.

وقد شرحَت قائلةً: "عجبًا، من شأني أن أشعُرَ بِالغَدر إذا طرحتُ

خارجًا صديقًا قديمًا وفيًّا نظيرَ ذاك. فالموقد العتيقُ وأنا غَلَينا القهوة للأصدقاء، وخبَزنا الخُبزَ للعائلة، و...و...أيضًا عَمِلنا فطائر البانكيك!" وختمَت بابتسامةٍ عَلمية، مُتذكِّرةً محدوديَّاتِ لائحةِ الطَّعام لَدَيها في الماضي البعيد.

وهكذا انتقلَ الموقد العتيقُ معها. والآنَ فحَصَتِ الحطَبَ فيه ودفعَتِ الغَلَّايةَ إلى الأمام.

كانت مِسي قد قرَّرت أن تتزوَّجَ في البيت.

"أُريدُ أن أنزِلَ على ذلك الدَّرجِ هُناك مُستنَدِةً على ذِراعِ أبي. حقًّا، ماما، إذا فتَحتِ جميعَ الغُرَف، يصيرُ البيتُ كبيرًا كمبنى الكنيسة تقريبًا على كلِّ حال".

وسَرَّ كلارك ومارتي أن يوافِقا.

كرَّت ساعاتُ الصَّباح بسُرعةٍ زائدة. إذ تمَّت تحضيراتُ الدَّقيقة الأخيرة لطعام الوليمة بعدَ الظُّهر. ووجَبَ أن يؤتى بزهورٍ جديدة وتُرتَّب. كما وجَبَ أن يُفحصَ الأولادُ للتحقُّق من قِيامهم بمَهامِّهم المُحدَّدة. فأحسَّت مارتي كأنَّها تخوضُ سِباقًا مُعظَمَ الوقتِ قبلَ الظُّهر.

عُيِّنَ الزِّفافُ في السَّاعةِ الثَّالثة بعدَ الظُّهر. وكانت الساعةُ قد تخطَّتِ الثَّانيةَ لمَّا تمكَّنت مارتي من مُغادرة المطبخ على وجهِ السُّرعة، وإجراءِ فَحصِ الدَّقيقة الأخيرة لِلغُرَف، والجَريِ إلى غُرفةِ نومها لأجل حمَّامٍ سريع. وكان آرني قد ملأ لها حوضَ الاستِحمام. ثُمَّ لبِسَت بسُرعةٍ

فُسطانَها الجديد. وقد تَهَدَّلَ شعرُها الطَّويلُ حولَ كتِفَيها، وإذ رفَعته بالدَّبابيس لاحظَت أصابِعَها ترتجِف. وبعدما ألقَت نظرةً أخيرة سريعة على مظهرها، ذهبَت إلى غُرفةِ مِسي.

خُيِّلَ إلى مارتي أنَّ مِسي ما بدَت قطُّ أجمَلَ منها في تلك اللَّحظة. فإذ وقفَت هُناك في ثَوبِ زفافِها، وقد تورَّدَ خدَّاها وتلألأتْ عيناها رِقَّةً، بدَت سعيدةً للغاية حتَّى علِقَت غُصَّةٌ في حَنجرةِ مارتي.

قالت مِسي همسًا: "أُوه، ماما".

فردَّت مارتي هامِسةً: "أنتِ جميلة، مِسي. جميلةٌ حقًّا". ثُمَّ شدَّتِ الفتاة إلى صَدرِها.

وتنهَّدَت مِسي : "أُوه، ماما! ماما، أُريدُ أن أقولَ لكِ شيئًا. ما قُلتُ ذلك قطُّ مِن قبل، ولكنَّني أُريدُ أن أشكُرَكِ...أن أشكُرَكِ على دُخولكِ إلى حياتنا، على جَعلِنا في غايةِ السَّعادة، أنا وبابا".

حبَسَت مارتي نفَسَها. فلو حاولَت أن تتكلَّم لبَكَت، كما علِمَت. ومن ثَمَّ لم تقُل أيَّ شيء، بل ضمَّت فقطِ بِنتَها الصَّغيرة ضَمًّا ألصَق، وقبَّلَتِ الرَّأسَ البُنِّيَّ الجَعْدَ الشَّعر.

ثُمَّ دخَلَ كلارك، وطوَّقَهُما كِلتَيهما بذِراعَيه. وبدا صوتُه مشدودًا بالعاطفة إذ تكلَّم فقال: "الله يُبارِك...الله يُبارِكُكما كِلتَيكُما". وطبَعَ قُبلَةً على خدِّ كُلٍّ مِنهُما، ثُمَّ وضَعَ يدَه برِفقٍ على رأس مِسي، وحاوَلَ أن يُزيلَ الخُشونةَ من حَنجرته، وصلَّى بصوتٍ خفيض: "يُبارِكُكِ الرَّبُّ

ويحرُسُكِ، يُضيءُ الرَّبُّ بوجهِهِ عليكِ ويرحَمُكِ، يرفَعُ الرَّبُّ وجهَهُ عليكِ ويمنَحُكِ سلامًا...الآنَ وكلَّ أوان، يا مِسي. آمين!"

طرَفَت مِسي بعينيها دَرءًا لِدُموعها وخرجَت إلى الرَّدهة لِتَسمعَ توجيهاتِ الدَّقيقة الأخيرة من القِسِّيس جُو.

مدَّ كلارك يدَه إلى مارتي. وأوَّلَ الأمرِ لم يقُل أيَّ شيء، بل نظرَ فقط عميقًا داخِلَ عينيها.

ثُمَّ همَسَ: "الأمرُ مؤلِمٌ قليلًا، أليس كذلك؟"

فأومأت مارتي برأسها إيجابًا. "أليست جميلةً...غاليَتُنا مِسي؟"

وأظلَمَت عَينا كلارك انفِعالًا. "بَلى، هي جميلة!"

"أُوه، كلارك...إنَّني أُحِبُّها كثيرًا".

"أنا أعلَمُ أنَّكِ تُحبِّينها". ثُمَّ شدَّها إليه عن كثَب وربَّتَ ظهرَها. "لذلك السَّبب أنتِ تُطلِقينَها".

في الدَّور الأسفَل، شرَعَ الجيرانُ المُنتظِرون في ترتيلٍ ترنيمة. فعلِمَت مارتي أنَّ الوقتَ قد حانَ لِتَشغلَ مكانها تَحتُ. وعاجلًا سيكون كلارك نازلًا هو أيضًا، ومِسي المُتألِّقة شابِكةٌ ذِراعَها بذِراعه.

نظرَت مارتي إلى كلارك، قابِلةً سرًّا بتقديرٍ عميقٍ القُوَّةَ التي قدَّمَها. ثُمَّ انسلَّت مُبتَعِدةً.

لن تبكيَ بَعد...ليس اليومَ، يومَ عُرسِ مِسي. سيكونُ لأجل ذلك أوقاتٌ كثيرةٌ في المُستقبل. اليومَ ستبتَسِم...ستُقابِلُ جيرانَها بصِفَتِها أُمَّ

العروسِ السَّعيدةَ...ستُرحِّبَ- بمحبَّة- بصِهرٍ آخَر.

توقَّفَت عندَ رأسِ الدَّرَج، وهمسَت بِصَلاةٍ سريعة، وأخذَت نفَسًا عميقًا، ثُمَّ نزَلَت مُبتَسِمةً.